المدرسة الفكرية

السيد محمد باقر الصدر (قدس)



التجديد الكلامي
عوامل النبوغ الفكري
منهج التقييم ومنهج الإبداع
حركة التجديد
منهج التأصيل النظري

تأليف الباحث والمحقق
الشيخ عباس أمين حرب العاملي

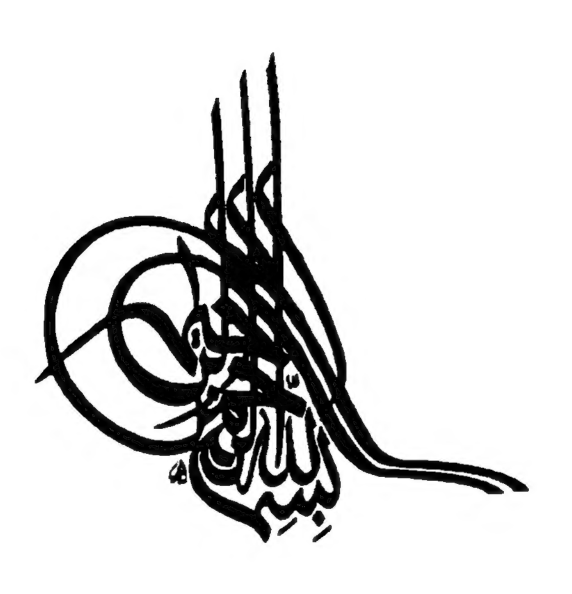
دار المحجة البيضاء



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

المدرسة الفكرية

السيد محمد باقر الصدر



المدرسة الفكرية
السيد محمد باقر الصدر

التجديد الكلامي.

عوامل النبوغ الفكري.

منهج التقييم ومنهج الإبداع.

حركة التجديد.

منهج التاصيل النظري.

تأليف
الباحث والمحقق
الشيخ عباس أمين حرب العاملي

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبته الطيبين الطاهرين.

المقدمة:

كم تشعر بلذة حينما تعالج فكر شخصية دينية منفتحة وذات حركة سياسية وفكرية واجتماعية لا تهدأ، بعكس معالجة فكر وشخصية رجل جاف في حركته، وتقليدي في فكره.

فما أغنى الحديث عن المفكر الإسلامي السيد محمد باقر الصدر قُدِّسَ سِرُّه ، على اعتبار أنه صاحب تجارب غنية وفريدة من نوعها، فالكلام عنه يطول ويتشعب، والتأريخ لحركته مهمة صعبة وذات أهمية، وهذا ما تحمّله وقام به صاحب الفضيلة العلم الشيخ عباس أمين حرب العاملي (دام حفظه) حيث أنه استعرض في كتابه الموسوم: «**المدرسة الفكرية السيد محمد باقر الصدر**» العديد من آرائه وأفكاره، مثل: «**التجديد الكلامي– عوامل النبوغ الفكري– منهج التقييم– منهج الإبداع –منهج التأصيل - حركة التجديد**» ، مضافاً لمناقشتها ودراستها دراسة موضوعية.

ولعل فضيلة الشيخ العاملي أراد ببحثه هذا الإضاءة على الجانب العلمي في شخصية السيد الشهيد محمد باقر الصدر قُدِّسَ سِرُّه ، خلافاً لما هو معتاد في ذكر منحاه السياسي، وحركته في هذا المضمار دون سواها،

وبالمحصلة فقد نجح المصنف في هذه المهمة، وبذلك يكون قد رد بالفعل والقول على كل من يقزم السيد الصدر وفكره، ويجعله مجرد شخص نشط وحرك فقط، دون أن تكون لديه خلفية ثقافية وسياسية...

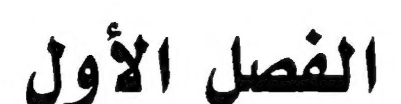
أمر آخر حسّن في توقيت هذه الدراسة يعود للظرف الذي تنشر فيه، حيث أن الأفكار التي نادى بها الإمام السيد محمد باقر الصدر هي اليوم الحل الوحيد لكل مشاكلنا، كما وأن الطروحات التي عارضها ﵀ هي سبب بلائنا...

وبعبارة أخرى ان العلاج من الأوبئة السياسية والإجتماعية التي تهددنا يكون بالعودة للخلفية التي انطلق منها السيد الشهيد الصدر وبالأسلوب العلمي الذي تعاطى فيه سيدنا الأستاذ الشهيد الصدر ﵁.

وأخيراً نتمنى لسماحة الشيخ العزيز عباس أمين حرب العاملي مزيداً من النتاجات المفيدة، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياه لمرضاته.

إنه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين

الشيخ محمد إبراهيم الأنصاري



نبذة عامة عن التاريخ الأسري

١ـ سيرته الذاتية.

٢ـ التاريخ الأسري.

٣ـ أسرة آل الصدر.

٤ـ السيد صدر الدين الصدر.

٥ـ السيد إسماعيل الصدر.

٦ـ سيرته وأخلاقه.



نبذة عامة عن التاريخ الأسري



سيرته الذاتية:

في مدينة «الكاظمية» من ضواحي العاصمة العراقية «بغداد» ولد الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر، وبالتحديد في يوم الأحد في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة من عام (١٣٥٢هـ)، الموافق للثامن والعشرين من شهر شباط / فبراير من عام (١٩٣٥م)[١].

كان مولده مبعث فرحة عارمة اهتزت لها جوانب البيت الذي ضمّ السيد حيدر الصدر وكريمة آل ياسين، وقد مضى على أوّل وليد لهما ما يربو على عشرة أعوام.

وها هو الوليد الثاني يطل عليهما بالفرح والسرور والألفة والمودة لكن القدر فاجأ البيت ودخله دون استئذان فهز أركانه بقوة معلناً وفاة الأب «السيد حيدر الصدر».

(١) مركز الدراسات الإسلامية بيروت - الشهيد محمد باقر الصدر، دراسة في سيرته ومنهجه.

كان ذلك في عام (١٣٥٦هـ) ولم يمض على ولادة الشهيد الصدر ما يزيد على ثلاثة أعوام.

لم يعِ الشهيد الصدر أو يدرك فصلاً من حياة أبيه، ولم تحمل ذاكرته شيئاً ينتمَي إلى تلك المرحلة.

لكنه لابد شكّل في ذهنه صورة عن أبيه، صنعها من أحاديث كبار الأسرة، الأم والأخوال والأخ الأكبر، الأم التي سهرت على أولادها (إسماعيل، محمد باقر، آمنة) وظلت عاكفة عليهم، تنميهم في ظل مجد عريق وتغذيهم من ذلك النبع الصافي الذي استقى منه الأب (الراحل) والأجداد، أجداد الأب والأم معاً.

وهل يغيب السيد حيدر «**الأب الراحل**» عن الذاكرة، وهل للأيام وتقادمها أن تذهب بأيامه، وتعطل الذاكرة عن تخيل صورته.

كيف وهو العالم الذي ترك بصماته في عالم الفكر يُردّد (اسمه) أساطين العلماء.

ونقدّر أنّ ذاكرة الشهيد الصدر احتفظت بصورة (الأب) كلما كبر دون أن تطفي (السنون) وهج هذه الصورة وتلألأها.

وقد ينصرف ذلك الطفل أي طفل إلى التعويض عن أساه بقوة وعنف لعله يدرك ما فاته ويعوض خسارته الجسيمة، وهو ما ينتهي به إلى نتائج جد غريبة. وهي نتائج بحق مذهلة، يحار العقل في تفسيرها وتحليل مضامينها وتفكيك ألغازها.

لقد لاحظ علماء النفس من خلال عمليات استقراء وبحوث ميدانية أن ذلك التعويض غالباً ما يسير في اتجاهين، إلى الإجرام مرة، أو إلى العبقرية أخرى.

وإن كان الاتجاه إلى الأجرام قد يبدو مبرراً في عالم يغيب فيه «الأب» والرقيب المسؤول عن التربية والإشراف، ففي الاتجاه الآخر الذي ينحو نحو الإبداع والعبقرية سرّ كبير، يتجاوز الصدفة ويرقى إلى القانون.

ولئن عُدم الشهيد الصدر الحنان الأبوي، فقد حوته أحضان دافئه وأياد بارة وقلوب رحيمة أولته الاهتمام البالغ والعناية الفائقة.

خاله الكبير ـ عميد أسرة آل ياسين ـ المرجع الشيخ محمد رضا آل ياسين شمله بما لم يشمل غيره من العناية والإحاطة والود، فيما كان لخاله الفقيه الشيخ مرتضى آل ياسين مثل ذلك بل وأكثر، ولم يتخلف الشيخ راضي آل ياسين عنهما في بره وحبه.

وكان لثانيهما ـ أعني الشيخ مرتضى آل ياسين ـ دور كبير في حياة الشهيد الصدر ليس في بواكير حياته وحسب، وإنما في حياته فيما بعد، وقد تبوأ الشهيد مكانة جد كبيرة في الميدان العلمي والاجتماعي والسياسي.

أمّا الأخ الأكبر السيد إسماعيل الصدر، فهو كما وصفه الشهيد الصدر في ترجمة أخيه السيد إسماعيل بخطه الشريف يقول في بعض فقراتها: «... **رافقته أكثر من ثلاثين سنة كما يرافق الابن أباه، والتلميذ أستاذه، والأخ أخاه في النسب، وأخاه في الآمال والآلام، وفي**

العلم والسلوك..»[١]، وكان الشهيد الصدر قد كتب ـ على ما نقله البعض ـ على نسخة من كتابه «**اقتصادنا**» أهداها أخاه السيد إسماعيل الصدر: «**أخي أي بل أفديه نفسي..**»[٢].

رعاية أخواله له لا تعني أنه عاش في عالم «**أرستقراطي**» كما قد يتخيل، فالأخوال ـ خاصة عميد الأسرة ـ لم يعرفوا في أوساط الناس بتمولهم وملاءتهم، فعاش السيد الصدر حياة الفقر والعوز بما لا مزيد عليه، يكابده بجلد وصبر، ويقارعه بجد واجتهاد، ويلويه بكبرياء وأنفة وعناد.

كانت الأهداف الكبيرة تشده إليها بقوة، أشبه ما تكون بقوى الجاذبية الهائلة، يترنم بأنشودتها التي ملأت طريقه وأضاءت أمامه السبيل.

كان الطريق واضحاً يخطو فيه خطواته، بثبات، وعزيمة منقطعة النظير، تبدو له عشرات الصور، صور الآباء والأجداد، وبطولاتهم وتفانيهم في سبيل العلم والجهاد والدين.

تلك الصور التي يمكن أن تكون من أبرز مصادر العبقرية ولِمَ لا، وقد أثبتت الدراسات الحديثة ما للمثل والقدوة من تأثير في تفجير الطاقات واستنهاض الهمم.

---

(١) الإمام شرف الدين ، عبد الحسين، بغية الراغبين، ٢٧١/١ (المستدركات) ط١، ١٩٩١ بيروت ـ الدار الإسلامية.

(٢) مركز الدراسات الإسلامية بيروت ـ الشهيد محمد باقر الصدر، دراسة في سيرته ومنهجه.

التاريخ الأسري:

ينتمي الإمام الشهيد محمد باقر الصدر إلى أسرة تتصل بوشيجة النسب إلى رسول الله ﷺ، وبالتحديد إلى الإمام موسى الكاظم عليه السلام عن طريق ابنه إبراهيم المرتضى (٢١٠هـ).

ونسب الشهيد الصدر كما حققناه، وفي عدد من المصادر كالآتي[1]:
«محمد باقر بن حيدر بن إسماعيل بن صدر الدين بن صالح بن محمد بن إبراهيم «شرف الدين» ابن زين العابدين بن علي «نور الدين» بن «نور الدين» علي بن «عز الدين» الحسين بن محمد بن الحسين بن علي بن محمد بن تاج الدين المعروف بأبي الحسن ابن محمد ولقبه «شمس الدين» بن عبد الله ويلقب «جلال الدين» ابن أحمد بن حمزة بن سعد الله بن حمزة بن «أبي السعادات» محمد بن «أبي محمد» نقيب نقباء الطالبيين في بغداد بن «أبي الحارث» محمد بن «أبي الحسن» علي المعروف «بابن الديلمية» ابن «أبي طاهر» عبد الله ابن «أبي الحسن» محمد المحدِّث بن أبي الطيب طاهر ابن الحسين القطعي بن موسى «سبحة» بن إبراهيم «المرتضى» ابن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين ابن الإمام الحسين ابن الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام».

وتعرف أسرته بآل الصدر، نسبة إلى صدر الدين (١٢٦٣)، ويلقب بالكاظمي أحياناً نسبة إلى الكاظمية موطن الأسرة مؤخراً حيث يقيم

---

(١) انظر بغية الراغبين ١/ ١٤ _ ١٣، النص والاجتهاد السيد عبد الحسين شرف الدين ص ٧، ط طهران مؤسسة البعثة، العتبات المقدسة (قسم الكاظمية) ١/ ٧٤ ط ٢ (١٩٨٧) (الخليلي).

الآن عميد أسرى آل الصدر آية الله الفقيه السيد حسين إسماعيل الصدر (دام ظله).

ولذا عدّ الدكتور حسين محفوظ أسرة «**آل الصدر**» في (بيوتات الكاظمية[1]).

وقد وجد بعض الأفاضل[2] في بعض ما كتبه الفقيه الشيخ محمد تقي الجواهري أنّه ـ أعني الشهيد الصدر ـ يعرف بالحيدري.

ولعلّها نسبة إلى والده السيد حيدر.

وقد عرفت أسرته في بعض الأزمان القديمة بعدة تسميات منها:

ـ أل (أبي سبحة) نسبة إلى موسى (أبو سبحة) بن المرتضى إبراهيم ابن الإمام موسى الكاظم.

وبـ «**موسى**» هذا تلتقي أسرة آل الصدر مع آل الشريفين المرتضى والرضي، وتفترق عنهم في «**الحسين**» جد «**آل الصدر**» فيما يفترق آل الشريفين بـ «**محمد الأعرج**» والد «**موسى الأبرش**» الذي أعقب ثلاثة أبناء أحدهم أبا أحمد الحسين النقيب والد الشريفين.

ـ آل القطعي نسبة إلى الحسين القطعي بن موسى «**أبو سبحة**»..

---

(١) العتبات المقدسة، المرجع السابق، الأسرة الموسوية في الكاظمية (بحث) حسين محفوظ ٧١/١.

(٢) عن بغية الراغبين، المرجع السابق، ١/ ١٣، وأنظر الأعيان، المرجع السابق، ٣٣٩/٢، تكملة الأمل، ص ١٧٣.

ـ آل أبي الحسن «**واسمه عباس كما عن الميرزا النوري في خاتمة مستدرك الوسائل**»[1].

ـ آل شرف الدين، نسبة إلى إبراهيم المعروف بـ«**شرف الدين**» المتوفي عام(١٠٨٠هـ)، وهو الجد الخامس للشهيد الصدر، ولا زالت النسبة، قائمة إلى اليوم، وإليه تنسب الأسرة العلوية المعروفة في العراق وجبل عامل عدا «**آل الصدر**» حيث انتسبوا إلى جدهم السيد محمد المعروف بـ «**صدر الدين**» ابن صالح بن محمد بن إبراهيم «**شرف الدين**» المشار إليه آنفاً.

والمعروف اليوم أن أُسرة «**آل الصدر**» لبنانية الأصل، وبالتحديد من «**جبل عامل**»، إلا أن الأصح أنها عراقية قبل ذلك، فقد كان العراق موطن الأجداد منذ أصبح موطن الأئمة عليهم السلام.

قال علي الخاقاني في كتابه «**شعراء بغداد**» في ترجمة السيد أبو الحسن الصدر: وآل الصدر من الأسر العلوية والعلمية الشهيرة في العراق، وقد كان موطنها الأول في بغداد وكربلاء، وتعرف يومذاك بآل الحسين القطعي، ومن هذه الأسرة العلمان الشهيران السيد المرتضى والسيد الرضي يجمعهم جدّ واحد هو السيد موسى المعروف بأبي سبحة.

أسرة آل الصدر موسوية تنسب إلى الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام عن طريق ولده السيد إبراهيم المرتضى وهو مدفون في مشهد الإمام الحسين عليه السلام قريباً من الضريح.

وهو غير السيد إبراهيم المجاب الذي له ضريح في الرواق.

---

(١) وجد الأستاذ الشيخ حسن الجواهري على نسخة (الكفاية) لوالده الشيخ محمد تقي الجواهري انه شرع بتدريسها لجملة من الطلاب منهم السيد باقر الحيدري ويعني به السيد محمد باقر الصدر.

وبقي أفراد هذه الأسرة في كربلاء يتناسلون وقد هاجر بعضهم إلى لبنان جبل عامل وقد عرفوا بآل شرف الدين نسبة إلى العلامة السيد إبراهيم الملقب (بشرف الدين)، ولا يزال قسم من أولاده يقيمون هناك، وقد رجع إلى العراق حفيده صالح بن محمد على أثر اشتداد طغيان الجزار حاكم «عكا» حيث عاث فساداً وطغى وبغى، فلم ير السيد صالح بُداً من الهجرة فتوطن النجف وبقي فيها يتمتع بالمرجعية وبالحلقات التي يعقدها لطلابه، وهو جدّ أسرة آل الصدر المقيمة اليوم في الكاظمية[1].

مّا هجرتهم إلى جبل عامل فلا نعرف بالتحديد تاريخها ولا أوّل من هاجر منهم إليها.

وفي حدود إطلاعي لا أعرف منهم أحداً أسبق من جدهم الشهيد عز الدين الحسين ابن أبي الحسن المعروف بالموسوي العاملي الجبعي «نسبة إلى بلدة جباع حالياً قضاء النبطية» وهو الجد التاسع للشهيد الصدر.

وتذكر مصادر التراجم[2] أنّه ولد في جبع (من قرى جبل عامل) عام (٩٠٦هـ) ونشأ فيها ودرس عند والد الشهيد الثاني وعدد آخر من أبرز علماء الجبل من أمثال الشيخ علي الميسي (٩٣٨هـ) والسيد حسن ابن السيد جعفر الكركي الموسوي (٩٣٣هـ).

---

(١) الخاقاني، علي، شعراء، بغداد، ٢٠٦/١ _ ٢٠٥ بغداد، ط١٩٢٦.

وكان عز الدين الحسين - المذكور _ من المعاصرين للشهيد الثاني (٩٦٥) استشهد عام (٩٦٣هـ)، أي قبيل استشهاد الشهيد الثاني بسنة أو سنتين على اختلاف الروايات في شهادة الأخير.

(٢) انظر، الأعيان، ٤١٥/٥، وبغية الراغبين، ١٢٣/١ وتكملة الأمل للسيد حسن الصدر ١٧٣ ط بيروت ١٩٨٦، لؤلؤة البحرين، للبحراني (يوسف) ص ٥٢، تحقيق محمد صادق بحر العلوم ط قم مؤسسة أهل البيت.

أمّا قبل هذا التاريخ فلا نعرف أحداً أسبق منه، ولا نعرف سبب هجرة والده أو جده على أقل تقدير إذ إن الشهيد عز الدين الحسين ولد في جبل عامل وهو ما يؤكد أن الهجرة أسبق من هذا التاريخ.

ولا نعرف ـ كذلك ـ سبب الهجرة ودوافعها، وإن كنا نرجّح أن تكون لسبب علمي، فالأسرة كما هو المعروف علمية المنشأ والاتجاه عاشت منذ وقت طويل قلق المعرفة.

خاصة إذا أخذنا بالاعتبار ما كانت عليه (حوزة) النجف الأشرف وغيرها من المراكز العلمية الشيعية، إذ عرف «**جبل عامل**» في تلك الفترة بالازدهار العلمي وتطور الحركة العلمية فيه وتقدمها على أيدي عدد من أعلامها من أمثال الشهيد الأوّل والشهيد الثاني.

يبقى أن نشير إلى أن ما يتردد على بعض الألسنة عن الأصل الفارسي لأسرة آل الصدر هو عبارة عن محض توهم إن لم يكن افتراء متعمداً تسوقه دوائر سياسية أحياناً أو عنصرية متعصبة أحياناً أخرى، وإن كان بعض رجال الأسرة قد توطن (إيران) فهو تاريخياً لا يتجاوز المائة وخمسين عاماً، وقد يقترن مع توطن السيد محمد علي نجل السيد صدر الدين المعروف «**بأغا مجتهد**» المتوفى عام (١٢٨٠هـ) حيث أقام بأصفهان.

أمّا السيد صدر الدين جدّ الأسرة فهو من مواليد «**جبل عامل**» عام (١١٩٣ هـ) ونشأ في العراق بين بغداد وكربلاء والنجف، وأقام في إيران مدة من الزمان بناء على طلب علماء أصفهان عقيب عودته من زيارة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، وكانت أصفهان يومذاك مركزاً علمياً مرموقاً، وقد تخرج من مجلس بحثه عدد من أكابر العلماء في مقدمتهم

الشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري (١٢٨١هـ).

ولم تطل مدة إقامته هناك فقد عاد إلى النجف الأشرف وتوفي فيها عام (١٢٦٣هـ).



النشئة العلمية:

- نشأ السيد الشهيد محمد باقر الصدر في الكاظمية يتيماً تحت رعاية والدته الكريمة وخاله المرجع الكبير عميد أسرة آل ياسين الشيخ محمد رضا آل ياسين الذي شمله بما لم يشمل غيره من العناية والإحاطة والود، وخاله الفقيه الشيخ مرتضى آل ياسين الذي كان له مثل ذلك بل وأكثر، وكذلك خاله الشيخ راضي آل ياسين وأخوه الأكبر السيد إسماعيل الصدر.

- ظهرت عليه علائم النبوغ والذكاء منذ نعومة أظفاره، وكان موضع احترام زملائه وأساتذته ومعلميه في المدرسة وذاع صيته بين الناس واتخذوه قدوة يقتدي بها من أراد بلوغ الدرجات الرفيعة في العلم والأدب والأخلاق.

- هاجر إلى النجف الأشرف عام (١٣٦٥ هـ) وحضر أبحاث خاله آية الله الشيخ محمد رضا آل ياسين والمرجع الديني الكبير آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي في سن مبكرة وبلغ مرتبة الاجتهاد في أوائل عمره فقد حرّم عليه التقليد آية الله الشيخ عباس الرميثي حدود عام (١٣٧٠ هـ) بل نقل عنه أنه رضوان الله عليه قلد قبل بلوغه آية الله العظمى الشيخ محمد رضا آل ياسين ومن حين بلوغه لم يقلد أحداً.

شرع بتدريس خارج الأصول عام (١٣٧٨ هـ) وفي عام (١٣٨١ هـ) شرع بتدريس خارج الفقه على متن العروة الوثقى.

تميزت مدرسته بالسعة والشمول، والأصالة والعمق، والإبداع والتجديد، وتميزت بحوثه بالمنهجية والترتيب، وبالنزعة المنطقية البرهانية المتطابقة مع الوجدان، وبالذوق الفني المنسجم مع المرتكزات العقلائية، شملت أبحاثه علم الفقه وأصوله، والمنطق، والفلسفة، والعقائد، والعلوم القرآنية، والاقتصاد، والتاريخ، والقانون، والسياسة المالية والمصرفية، ومناهج التعليم والتربية الحوزوية، ومناهج العمل السياسي، وأنظمة الحكم الإسلامي، وغيرها من حقول المعرفة الإنسانية والإسلامية.

أهم مؤلفاته:

١ ـ فلسفتنا طبع في سنة (١٣٧٩ هـ).

٢ ـ اقتصادنا طبع في سنة (١٣٨١ هـ) في مجلدين.

٣ ـ الأسس المنطقية للاستقراء طبع في سنة (١٣٩١ هـ).

٤ ـ بحوث في شرح العروة الوثقى في أربعة أجزاء طبع الأول منها في سنة (١٣٩١ هـ).

٥ ـ دروس في علم الأصول في ثلاث حلقات، والحلقة الثالثة منها في مجلدين طبعت في سنة (١٣٩٧ هـ).

نال درجة الشهادة الرفيعة بعد اعتقاله من قبل السلطة بتاريخ ١٩ جمادى الأولى عام (١٤٠٠ هـ) الموافق ٥ نيسان عام (١٩٨٠ م)، وسلم جثمانه الطاهر لآية الله السيد محمد صادق الصدر ليلة التاسع من شهر نيسان، ودفن في مقبرة وادي السلام في النجف الأشرف ضمن أوضاع خاصة فرضتها السلطة الحاكمة آنذاك.



أسرة آل الصدر:

لا تخلو موسوعة رجاليّة من ترجمة لرجال أسرة آل الصدر، فهذه الأسرة المباركة أسرة علمية معروفة، ولمّا كان هدفنا ترجمة أحد أبرز رجالها في هذا القرن وهو الشهيد الخالد آية الله العظمى السيد محمّد باقر الصدر (رضوان الله عليه) وليس رجال الأسرة جميعاً فقد اقتصرنا علي ما هو الضروري وما يتطلبّه الموضوع .

وكان المرحوم حجة الإسلام والمسلمين السيد المرحوم عبد الغني الأردبيلي [1] قد جمع من كتب الرجال والتراجم موجزاً عن أسرة آل الصدر .

وقد نقله عنه آية الله السيد الكاظم الحائري دام ظله فيما كتبه عن أستاذه الشهيد الصدر في مقدمة كتابه «مباحث الأصول» الجزة الأول من القسم الثاني، وهنا أنقل ـ مع تغيير يسير وإضافات مناسبة ـ بعض ما جاء في تلك الترجمة.

---

(١) السيد عبد الغني الأردبيلي من طلاب الشهيد والمقربين منه، توفي في حادث سيارة في حياة السيد الشهيد ورثاه في مقدمة كتابه (دروس في علم الأصول).

«أسرة أل الصدر معروفون بالفضل والتقى والعلم والعمل ومكارم الأخلاق، وقد كانوا مشعلاً للهداية والنور، ومركزاً للزعامة والمرجعيّة الدينيّة، ومداراً للإفادة والإفاضة في مختلف الأجيال، وقد انحدروا من شجرة الرسالة والسلالة العلويّة من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»[1].

وهذه الأسرة العريقة قد اتخذت ألقاباً باختلاف العصور طيلة ما يزيد على قرنين من الزمن، فكانوا يلقّبون:

١- آل أبي سبحة.
٢- آل حسين القطعي.
٣- آل عبد الله.
٤- آل أبي الحسن.
٥- آل شرف الدين.
٦- آل الصدر.

وهنا نشير إلى عدد من الفحول العظام من سلالة هذه الشجرة الطيّبة التي أنجبت العباقرة ومنعم القائد الفذّ، ومرجعاً عبقريّاً لم تر عين الزمان مثله ألا هو المفكر الإسلامي الكبير السيد الشهيد محمّد باقر الصدر (رضوان الله عليه).

❋❋❋❋❋❋

(١) الحائري — السيد كاظم، مقدمة مباحث الأصول.

السيد صدر الدين الصدر:

هو السيد صدر الدين محمّد بن السيد صالح، بن السيد محمّد، بن السيد إبراهيم شرف الدين، بن زين العابدين، بن السيد نور الدين الموسوي العاملي.

هو فخر من مفاخر الشيعة، وعالم فذّ من كبار علماء المسلمين، ومن نوابغ العلم والأدب، قلّ من يضاهيه في الفضيلة والتقوى.

ولد في قرية (معركة) من قرى جبل عامل، ونشأ ونما علميّاً في النجف الأشرف، ثم هاجر إلى الكاظميّة، ومنها إلى أصفهان، ثمّ عاد إلى النجف الأشرف، وتوفي ودفن فيها رحمه الله.

والده (السيد صالح) من أكابر العلماء، وكان مرجعاً للتقليد، وزعيم الطائفة الإماميّة في بلاد الشام، هاجر من جبل عامل إلى النجف الأشرف فرارا من الحاكم الظالم في جبل عامل وقتئذٍ «**أحمد الجزّار**» وتوفي في سنة (١٢١٧) هجرية.

ولد السيد صدر الدين الصدر في (٢١) من ذي القعدة من سنة (١١٩٣ هـ) في جبل عالم، هاجر في سنة (١١٩٧ هـ) مع والده إلى العراق، وسكن النجف الأشرف، وأهتمّ بتحصيل العلوم الإسلاميّة والمعارف الإلهيّة في صغر سنّه، حتى إنّه كتب تعليقة علي كتاب قطر الندى وهو ابن سبع سنين .

وقد نقل عنه أنّه قال: حضرت بحث الأستاذ الوحيد البهبهاني في سنة (١٢٠٥) وكنت أبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة، وكان الأستاذ معتقداً

بحجّيّة مطلق الظنّ، ومصراً على ذلك .

وحضرت في نفس السنة بحث العلامة الطباطبائي السيد بحر العلوم، وقد قالوا: إنّ السيد بحر العلوم كان ينظم آنئذٍ ما أسماه بـ «**الدرّة**» وكان يعرضها على السيد صدر الدين لما يلاحظُ فيه من كماله في فنّ الأدب والشعر.

وقد ذكر السيد حسن الصدر في تكملة «**أمل الآمل**» أنّ الشيخ جابر الكاظمي ـ الشاعر المعروف مخمّس القصيدة الأزريّة ـ قال: «**إنّ السيد الرضي أشعر شعراء قريش والسيد صدر الدين أشعر من السيد الرضي**».

بلغ السيد صدر الدين الصدر مرتبة الاجتهاد قبل بلوغه سنّ التكليف، وقد أجازه بالاجتهاد صاحب الرياض رحمه الله في سنة (١٢١٠ هـ) وصرّح بأنّه كان مجتهداً قبل أربع سنين.

وهذا يعني أنّه قد بلغ الاجتهاد في السنة الثالثة عشرة من عمره الشريف، وهذا ما لم يسمع نظيره إلاّ بشأن العلامة الحلي والفاضل الهندي، على أنّه يفوقهما في فنّ الشعر والأدب.

وقد ذكر السيد حسن الصدر في تكملة «**أمل الآمل**»: أنّ الشيخ محمّد حسن صاحب الجواهر والشيخ حسن بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء ـ وهما من أكابر أساتذة النجف الأشرف ـ كانا يدينان بالفضل للسيد صدر الدين عند رجوعه من أصفهان إلى النجف الأشرف، وكانا يجلسان لديه جلسة التلميذ لدى أستاذه.

ودخل يوماً السيد صدر الدين على المحقّق صاحب الجواهر رحمه اللّٰه فأقبل صاحب الجواهر إليه آخذاً بعضده، وأجلسه محلّه وجلس أمامه وتذاكرا في العلم والفقه، وأنجرّ الكلام إلى اختلاف الفقهاء في مسألة مّا، فبيّن السيد ببيان فائق اختلاف الفقهاء في تلك المسألة مع اختلاف طبقاتهم من العصر الأوّل إلى زمانه، وفرّع الخلاف في ذلك على اختلافهم في المباني والمسالك، وشرح تلك المباني والفروق فيما بينها.

فتعجّب الشيخ صاحب الجواهر من تبحرّ السيد، وقال بعد ذهاب السيد: «**يا سبحان الله، السيد جالس جميع العلماء وبحث معهم، ووقف على أذواقهم ومسالكهم. هذا والله العجب العجاب، ونحن نعدّ أنفسنا من الفقهاء! هذا الفقيه المتبحّر**».

وقد روي في تكملة أمل الآمل عن الشيخ الجليل عبد العلي النجفي الأصفهاني أنه قال: دخل السيد صدر الدين في ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك حرم أمير المؤمنين عليه السلام وبعد أن أنهى زيارته للإمام جلس خلف الضريح المقدّس لكي يقرأ دعاء أبي حمزة وحينما قرأ الجملة الأولى: «**إلهي لا تؤدّبني بعقوبتك**» أخذه البكاء، وكرّر الجملة مراراً وهو يبكي إلى أن غشي عليه، فحملوه من الحرم الشريف إلى بيته.

وكانت للسيد رحمه اللّٰه كلمات ومقاطع خاصّة لدى مناجاته للّٰه تعالى منها قوله:

رضاك رضاك لا جنـــات عدن
وهل عدن تطيب بلا رضـــاكا

تزوج السيد صدر الدين رحمه الله بينت الشيخ الأكبر صاحب كاشف الغطاء، وولدا ابناً اسمه السيد محمد علي المعروف بـ «**أغا مجتهد**» وكان من أكابر عصره ونوادر دهره.

وقد ابتلي السيد رحمه الله في أواخر حياته في أصفهان باسترخاء في بدنه شبه الفالج، ورأى في عالم الرؤيا أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام فقال له: أنت ضيفنا في النجف الأشرف، فعرف السيد من هذه الرؤيا أنّ وفاته قد اقتربت، فهاجر إلى النجف الأشرف، وقد توفي في ليلة الجمعة أوّل شهر صفر من سنة (١٢٦٤ هـ) ودفن في الزاوية الغربيّة من الصحن الشريف قريباً من الباب السلطاني.

مؤلفات السيد صدر الدين:

١- أسر العترة، كتاب فقهي استدلالي.
٢ - القسطاس المستقيم في أصول الدين.
٣ - المستطرفات في فروع لم يتعرّض لها الفقهاء.
٤ - شرح منظومة الرضاع، وهي ما نظم بها كتاب الرضاع بأسلوب رائع، ثمّ شرحها.
٥ - التعليقة علي رجال أبي علي.
٦ - قرّة العين، كتاب في علم العربية كتبه لبعض أولاده.
وقد ذكر تلميذه في أوّل معدن الفوائد: أنّ كتاب قرّة العين على صغره يفوق المغني لابن هشام على طوله.
٧ - شرح مقبولة عمر بن حنظلة.
٨ - رسالة في حجّيّة الظنّ.
٩ - رسالة في مسائل ذي الرياستين.
١٠- قوت لا يموت، رسالة عمليّة باللغة الفارسيّة.

مشايخه:

روي السيد صدر الدين رحمه اللّه عن أكثر من أربعين عالماً، نشير إلى بعضهم:

١ - روى عن والده وأستاذه السيد صالح، عن جدّه السيد محمّد، عن أستاذه الشيخ محمّد بن الحسن الحر العاملي بجميع طرقة المذكورة في آخر الوسائل.

٢ - روى عن العلامة الطباطبائي بحر العلوم المتوفي سنة (١٢١٢ هـ)، وكان يعبّر عنه بالأستاذ الشريف.

٣ - روى عن العلامة المير علي صاحب الرياض المتوفي سنة (١٢٣١ هـ).

وكان السيد معجباً بصاحب الرياض، وكان يعتقد أنّه يفوق المحقّق القمّي صاحب القوانين في الفقه وقوّة النظر.

٤ - روى عن المحقّق السيد محسن الأعرجي صاحب (المحصول)، وكان السيد رحمه الله معجبا بزهده وتحقيقاته، توفي سنة (١٢٢٨ هـ).

٥ – روى عن شيخ الطائفة الشيخ جعفر كاشف الغطاء المتوفي سنة (١٢٢٨ هـ).

٦ - روى عن السيد الجليل المتبحّر الميرزا مهدي الشهرستاني الموسوي الحائري المتوفي سنة(١٢٧٨ هـ).

٧ - روى عن الشيخ الجليل الفقيه الشيخ سليمان معتوق العاملي المتوفي سنة (١٢٢٨ هـ).

طلابه:

قد ربي السيد إسماعيل الصدر تلاميذ وعلماء كثيرين تخرجوا على

يده في النجف الأشرف وسامراء وكربلاء والكاظمية، نكتفي بالإشارة إلى أهمهم:

١ - آية الله الحاج السيد أبو القاسم الدهكوري الأصفهاني، تتلمذ على يد السيد الصدر في سامراء، ثم هاجر إلى أصفهان، وأصبح مرجعا عاما من مراجع المسلمين.

٢ - حجة الإسلام الحاج السيد حسين الفشاركي الأصفهاني.

٣ - آية الله الشيخ عبد الحسين آل ياسين الكاظمي، وبعد وفاة أستاذه أصبح أحد المراجع الكبار في الكاظميّة.

٤ - حجة الإسلام والمسلمين الميرزا علي أغا الشيرازي، ابن المجدد الشيرازي.

٥ - حجة الإسلام والمسلمين السيد علي السيستاني، تتلمذ على يده في سامراء وكربلاء وهاجر إلى مشهد الرضا عليه السلام وأصبح أحد المراجع العظام في تلك الديار.

٦ - أستاذ الفقهاء والمجتهدين آية الله العظمى الميرزا محمد حسن النائيني.

٧ - حجة الإسلام والمسلمين الميرزا محمد حسين الطبسي.

٨ - آية الله الشيخ محمد رضا آل ياسين.

٩ - أية الله المجاهد الإمام عبد الحسين شرف الدين.

أولاده:

خلّف من بعده أولاداً أربع كانوا جميعاً آية في العلم، ومحاسن الأخلاق والورع والتقوى، وهم:

١ - آية الله السيد محمد مهدي الصدر.

٢ - آية الله السيد صدر الدين الصدر.
٣ - حجة الإسلام والمسلمين السيد محمد جواد الصدر.
٤ - آية الله السيد حيدر الصدر.

السيد إسماعيل الصدر:

أستاذ الفقهاء والمجتهدين آية الله العظمى السيد إسماعيل الصدر، ولد في أصفهان سنة (١٢٥٨ هـ) . والده المرحوم السيد صدر الدين العاملي الذي مضت ترجمته.

بعد وفاة والده عام (١٢٦٤ هـ) تربّي في كنف أخيه السيد محمّد علي المعروف بـ(آقا مجتهد) وكان معروفاً بالذكاء الخارق حتى عدّ في أوائل بلوغه سنّ التكليف من العلماء الفضلاء.

هاجر في سنة (١٢٨٠ هـ) من أصفهان إلى النجف الأشرف لغرض التتلمذ على يد الشيخ الأنصاري، ولكن حينما وصل إلى كربلاء توفي الشيخ الأنصاري، فلم ينثنِ السيد إسماعيل عن عزمه الهجرة إلى النجف الأشرف، فسافر إليها، وتَتلّمذ على يد الفقهاء والعلماء، كما اشتغل بالتدريس وتربية الطلاب أيضاً.

اكتسب السيد رحمه الله في فترة بقائه في النجف الأشرف إضافة إلى الفقه والأصول والحديث معلومات أخرى عقليّة، كعلم الكلام والفلسفة والرياضيات والهندسة والهيئة والنجوم على النسق القديم، مع الاطلاع على أراء جديدة .

ولم يعرف منْ أين أخذ هذه العلوم، وعلى يد من تتلمذ فيها، ولم يكن يعرف أنّه مطلع على هذه العلوم إلا حينما كان يتعرّض لها بالمناسبة ضمن أبحاثه الأصولية والفقهيّة.

وأخيراً أصبح من خواص تلاميذ المجدّد الشيرازي، وبعد هجرة المجدّد الشيرازي إلى سامراء بقي السيد الصدر يمارس نشاطه العلمي في النجف الأشرف.

سافر في النصف من شعبان من سنة (١٣٠٩ هـ) إلى كربلاء لزيارة الإمام الحسين عليه السلام، وهناك وصلته رسالة من أستاذه الشيرازي يطالبه فيها بالسفر إلى سامراء فلبى دعوة أستاذه، وذهب إلى سامراء، وكان عازماً على الرجوع إلى دار هجرته النجف الأشرف، لكنّه حينما وصل إلى سامراء ألزمه أستاذه بالإقامة فيها .

وكان السبب في ذلك أنّ السيد المجدّد الشيرازي كان قد ترك التدريس في سنة (١٣٠٠ هـ) تقريباً: لكثرة الأشغال والمراجعين وضعف المزاج، فأناط مسؤولية التدريس بالسيد إسماعيل الصدر، وذلك في عام (١٣٠٩ هـ) فأصبح محورا للتدريس في الحوزة في سامراء، وكان اجتماع أهل الفضل والعلم في درس السيد الصدر أكثر من غيره.

وهكذا استمرت سامراء محورا لإشعاع العلم، وكعبة لآمال العلماء، ومحط أنظار الفضلاء في التعليم والتعلم، وتربية الأخلاق، وتهذيب النفس إلى أن فجع العالم الإسلامي بوفاة المجدّد الشيرازي.

وانتقلت المرجعيّة والزعامة الشيعيّة من بعد المجدّد الشيرازي إلى السيد الصدر، وسلّم أولاد المجدّد الشيرازي ما بقي من أموال وحقوق

شرعيّة بحوزة السيد الشيرازي إلى السيد الصدر.

وكان السيد الصدر زاهداً في الزعامة والمرجعيّة، ولهذا عزم بعد وفاة المجدد الشيرازي بسنتين على ترك بلد مرجعيّته وقتئذ، وهو سامراء فتركها مهاجرا إلى النجف الأشرف، وطلب من العلماء والأكابر أن لا يتركوا سامراء.

وحينما وصل في سفره إلى كربلاء استخار الله تعالى على الإقامة في النجف الأشرف، فكانت الاستخارة تدل على النهي، فاتّخذ من كربلاء مقراً له.

وقد هاجر من سامراء عدد من العلماء والأكابر رغم طلبه منهم عدم الهجرة، والتحق بهم بعد ذلك آخرون، فأصبحت كربلاء كعبة آمال العلماء والفضلاء إلى أن مرض السيد في سنة (١٣٣٤ هـ) فسافر إلى الكاظميّة للعلاج، وتحسّن حاله في أوّل الأمر، ولكن تدهورت صحتّه بعد ذلك، وتوفي (رضوان الله عليه) في (١٢ جمادي الأولى عام ١٣٣٨ هـ) ودفن بجوار جدّه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في مقبرة عائليّة لآل الصدر.

وقد رثاه شعراء وأدباء وفضلاء بقصائد منهم المرحوم الشيخ مرتضى آل ياسين قدس الله سره.



سيرته وأخلاقه:

كان رحمه اللّه آية في العفّة، وعلوّ الهمّة، والاعتماد على النفس، والتوكّل على اللّه تعالى، وكان مروّجا للدين، ومربّياً للعلماء، وعوناً للمشتغلين والدآرسين، وكهفاً للفقراء والمساكين، يوصل الأموال إلى مستحقيها بلا منّ، وأحياناً لم يكن يعرف أنّ المال من قبله.

كان رحمه اللّه يتتلمّذ على يد السيد المجدّد الشيرازي الذي هو تلميذ لأبيه السيد صدر الدين، ولأخيه السيد محمد علي المعروف بـ(أغا مجتهد)، ولكنّه لم يعرّف نفسه للسيد المجدّد، والسيد لم يكن يعلم أنّه ابن أستاذه؛ ذلك لأنّه حينما هاجر من أصفهان إلى النجف الأشرف عزم على أن لا يعرّف نفسه لأحد، حتى لأولاد عمه وأسرته في بغداد والكاظميّة المقدسة: زهداً بالمكانة الاجتماعيّة والمقامات التي تترتّب على ذلك، وليكون أكثر قدرة على تربية روحه وتهذيب نفسه، إلى أن صادف أنّه تشرّف بحج بيت اللّه الحرام، وبعد عودته إلى النجف الأشرف أخبر السيد الشيرازي بعض تلاميذه ممّن كان يعرف السيد الصدر بأنّه قد قدم من الحج السيد إسماعيل الصدر بن السيد صدر الدين، فعزم السيد الشيرازي قدّس سرّه على زيارة ابن أستاذه وهو لا يعلم أنّه تلميذه المحبوب والمقرّب منه، فحينما زاره في بيته فوجئ بأنّ هذا هو ذاك التلميذ الذي كان موضع إعجاب أستاذه، فوقف متعجّبا قائلاً:

أنت السيد إسماعيل الصدر بن السيد صدر الدين ؟

فقال: بلى، فيزداد الأستاذ أعجاباً بهذا التلميذ وبمكارم أخلاقه.

وقدر روي أنّ السيد إسماعيل الصدر كان عازماً على أن لا يقترض

من أحد مالاً مدى العمر، وكان وفيّاً بعهده رغم معاناته في أيام دراسته في النجف الأشرف من الفقر والفاقة، إلى أن صادف ذات يوم أن أصبحت والدته البالغة حدّ الشيخوخة في حالة لا تطاق، فخاف السيد على سلامتها.

وذهب السيد إلى الصحن الشريف وهو حائر بين أمرين:

بين التكليف الشرعي الذي يطالبه بالمحافظة على حياة أمّه؛ والذي قد يكون متوقّفاً على الإقتراض، وبين عهده الذي عاهد نفسه عليه من عدم الاقتراض مدى العمر، فجلس جلسة المتحيّر المتفكر في أمره عند حجرة من حجرات الصحن الشريف، وإذا برجل غير معروف يقف أمام السيد ويسأله: هل أنت سيد موسوي النسب ؟

قال: بلى، فأعطاه خمسة توأمين، وقال هذا نذر لسيد موسوي النسب، فأخذها وبقي وفيّاً بعهده مدى العمر.

وكان السيد الصدر رحمه الله يحدث أولاده أحيانا بأمثال هذه القصص والحكايات بهدف تهذيب نفوسهم وتربيتهم على مكارم الأخلاق.

أساتذته:

١ - أخوه السيد محمد علي المعروف بـ(أغا مجتهد)، درس على يده السطح العالي وبعض كتب اللغة العربية والرياضيات.

٢ - الشيخ محمد باقر الأصفهاني، درس على يده بحث الخارج لمدة عشر سنين.

٣ - الفقيه المتبحر الشيخ راضي النجفي.

٤ - الشيخ الفقيه أستاذ العلماء والمحققين الشيخ مهدي بن الشيخ علي بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء.
٥ - الأستاذ الأكبر المجدد الشيرازي.

السيد حيدر الصدر:

وهو والد سيدنا الشهيد الصدر (رضوان الله عليهما) كان مثال العالم العابد الزاهد، ولد في سامراء في شهر جمادي الأولى عام (١٣٠٩ هـ).

قال بعض العلماء العامليين في تاريخ ولادته:

فحيدر واليمن قد جاءاً معاً   فناد بالتاريخ يمن قد ظهر

هاجر بصحبة والده إلى كربلاء في سنة (١٣١٤ هـ) ودرس المقدمات والعلوم العربية على يد عدة من العلماء الفضلاء ثم درس بحث الخارج على يد أبيه السيد إسماعيل الصدر، وعلى يد السيد الحسين الفشاركي، والمرحوم آية الله الحائري اليزدي في كربلاء، وأصبح في عنفوان شبابه من العلماء المرموقين المشار إليهم بالبنان.

قال عنه صاحب الذريعة في كتابه أعلام الشيعة: وقد رأيته مراراً سواء في أيام والده أو بعدها، فوقفت على غزارة علمه، وكثرة فضله، وكان دائم الاشتغال كثير المذاكرة، قل ما دخل مجلساً لأهل الفضل ولم يفتح بابا للمذاكرة والبحث العلمي، وكان محمود السيرة حسن الأخلاق محبوبا عند الناس.

وقال آية الله السيد عبد الحسين شرف الدين فيما نشر عنه في مجلة

«النجف» السنة الأولى العدد الثالث بتاريخ ١٥ ج٢ ١٣٧٦ هـ ١٩٥٦ ميلادي: «عرفته طفلا فكان من ذوي العقول الوافرة والأحلام الراجحة، والأذهان الصافية،كان وهو مراهق أو في أوائل بلوغه لا يسبر غوره، ولا تفتح العين على مثله في سنه، تدور على لسانه مطالب الشيخ الأنصاري ومن تأخر عنه من أئمة الفقهاء والأصوليين، وله دلو بين دلائهم، وقد ملأه إلى عقد الكبير يقبل على العلم بقلبه ولبّه وفراسته، فينمو في اليوم ما لا ينمو غيره في الأسبوع، ما رأت عيني مثله في هذه الخصيصة، وقد رأيته قبل وفاته بفترة يسيرة ـ وقد استقر من جولته ـ في غاية الفضل لا تبلغها همم العلماء ولا تدركها عزائم المجتهدين....»[١].

وكتب عنه حجة الإسلام والمسلمين الشيخ محمد تقي آل صادق العاملي: «لقد كان رحمه الله آية بليغة في الأخلاق الفاضلة، والصفات الكريمة، تلقاه ـ وهو بتلك المكانة العلمية السامية، وبذلك الرداء الدميل من الشرف والمجد ـ طلق المحيا، باسم الثغر ندي الحديث، طري الأسلوب، لين العريكة، يتواضع للصغير حتى كأنه بعض سمرائه، ويتصاغر للكبير حتى كأنه دون نظرائه....»[٢].

كان المرحوم آية الله السيد حيدر الصدر آية في الزهد والتقوى وعدم الاكتراث بالدنيا وزينتها، وكان همه منصبا على العلم والمعرفة والتحقيق، لا يترك فرصة تمرّ لا يستثمرها لطلب العلم.

فقد روي عن المرحوم حجة الإسلام والمسلمين الخلخالي أنه قال: إن السيد حيدر الصدر كان يدرس أثناء إقامته في الكاظمية الكفاية،

(١) بغية الراغبين ج ١ ص ٢٧١ - السيد عبد الحسين شرف الدين .
(٢) مجلة الغري عدد ٣٩ - النجف الأشرف .

فاتّفق أن أحد أكابر الحوزة العلميّة في النجف الأشرف ورد الكاظميّة وطلب منه السيد الصدر أن يتباحث معه في الكفاية خلال فترة بقائه في الكاظمية فلم يقبل، وهنا حاول السيد حيدر الصدر أن يستثمر الفرصة بأسلوب آخر فطلب منه أن يتتلمذ عنده بتدريسه الكفاية خلال بقائه، فوافق على ذلك .

فكان السيد حيدر الصدر يدرس جمعا كبيراً من الطلاب كتاب الكفاية، ثم كان يحضر لدى هذا العالم على أنه طالب يدرس كتاب الكفاية عنده.

قال السيد علي الخلخالي: إنّي سألت السيد حيدر الصدر: ماذا صنعت بفلان الذي لم يقبل المباحثة معك في الكفاية؟.

فأجاب: أنّي وصلت لما كنت أروم، ذلك أني أحضر لديه بعنوان التلميذ فيقرأ علي مقطعاً من الكفاية، فينفتح باب المناقشة والبحث وكان هذا هو المطلوب لنا.

وفاته:

توفي في الكاظمية ليلة الخميس ٢٧ جمادي الثانية ١٣٥٩ هـ ودفن في مقبرة لآل الصدر.

ويروي أحد الفضلاء قائلاً قد سمعت زوجته تقول: لما توفي السيد حيدر بتنا تلك الليلة من دون عشاء لقلة ما في أيدينا، واستمر حالنا في تقشف وضيق لأكثر من شهر بعد وفاته.

علما أن المترجم له كان من كبار مراجع الشيعة في ذلك العصر، وهذا يلقي ضوءا على زهده وعدم اكتراثه بالدنيا وزينتها، فطوبى له وحسن مآب.

مؤلفاته:

١ - رسالة في مباحث وضع الألفاظ.
٢ - تعليقة على الكفاية.
٣ - رسالة في المعنى الحرفي.
٤ - رسالة في تبعيض الأحكام لتبعيض الأسباب.
٥ - الشبهة الحيدرية في تلاقي أحد أطراف العلم الإجمالي.
٦ - تعليقة على العروة الوثقى.

وله رسائل أخرى، ومما يؤسف له أن هذه الكتب والرسائل كلها مفقودة، عدا أن الشبهة الحيدرية تعرض لها الشيخ أغا ضياء العراقي في مجلس درسه، فكتبت بقلم بعض طلابه في تقرير بحثه.

أولاده:

خلف السيد حيدر الصدر من بعده أبنين وبنتاً، يعتبر كل واحد منهم جوهرة لا تقدر بثمن وهم:

١ - آية الله السيد إسماعيل الصدر قدس سره.

ولد في الكاظمية في شهر رمضان المبارك سنة (١٣٤٠ هـ)، درس المقدمات والسطح العالي على يد علماء الكاظمية، ثم هاجر إلى النجف سنة (١٣٦٥ هـ) وتتلمذ على يد ثلة من العلماء الكبار منهم:

أ - آية الله الشيخ محمد رضا آل ياسين.
ب - آية الله العظمى السيد محسن الحكيم.
ج - آية الله العظمى السيد عبد الهادي الشيرازي.
د - آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي.

وقد أجازه في الاجتهاد أستاذه آية الله السيد عبد الهادي الشيرازي، ثم عاد إلى الكاظمية بطلب من المؤمنين فيها، واشتغل بالتدريس وتبليغ الأحكام وتربية الناس، وكان يؤم المصلين في صلاة المغرب والعشاء في صحن الإمام موسى بن جعفر، وكانت صلاته حاشدة وكبيرة.

ألف كتاب في الفقه والأصول والتفسير والرجال، لا زالت مخطوطة، ولم يطبع من كتبه إلا تعليقته على كتاب التشريع الجنائي الإسلامي، كما طبعت له عدة محاضرات في تفسير القرآن.

توفي في ذي القعدة سنة (١٣٨٨ هـ) ودفن في النجف الأشرف ودفن في مقبرة المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين.

٢ - آية الله العظمى مفجر الثورة الإسلامية في العراق، شهيد العصر السيد محمد باقر الصدر قدس سره.

٣- العلوية الفاضلة الشهيدة السعيدة السيدة آمنة الصدر (بنت الهدى) رضوان الله عليها.

ووالدته: الشهيد الصدر

أمّا والدته فهي العابدة التقية الصابرة بنت المرحوم آية الله الشيخ عبد الحسين آل ياسين، سليلة الدين والتقى والعلم.

فأبوها هو آية الله الشيخ عبد الحسن آل ياسين أحد أعاظم فقهاء عصره، المعروف الزهد والعبادة والتقوى.

ولد في الكاظمية، وتربى في كنف جده المرحوم آية الله الشيخ محمد حسن آل ياسين، الذي كان من مفاخر علماء الشيعة، والذي أمضى الإمام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه نيابته عنه على ما ورد في قصة المرحوم الحاج علي البغدادي المذكورة في مفاتيح الجنان في الصفحة (٤٨٤)[١].

وقال السيد حسن الصدر في «**تكملة أمل الآمل**» عن الشيخ محمد حسن أل ياسين: «**أنموذج السلف، حسن التقرير، مضطلع في الفقه والأصول، خبير بالحديث والرجال، انتهت إليه الرئاسة الدينية في العراق بعد وفاة الشيخ العلامة الأنصاري، كان المرجع العام لأهل بغداد ونواحيها، وأكثر البلاد في التقليد....**».

هاجر المرجوم الشيخ عبد الحسين آل ياسين من الكاظمية إلى سامراء، وتتلمذ على يد المجدد الشيرازي، وبعد أن توفي جده الشيخ محمد حسن انتقلت إليه زعامة الشيعة في بغداد والكاظمية.

ثم هاجر إلى كربلاء، وتتلمذ على يد المرحوم السيد إسماعيل الصدر، فوصل إلى مرتبة عالية من الاجتهاد، وعاد بعدها إلى الكاظمية، وأصبح من مراجع الشيعة في التقليد والتقوى، وأصبحت مرجعيّته عامّة.

---

(١) يروي النعماني: سمعت السيد الشهيد يقول: إنني اقطع بصحة هذه القصة .

توفي في ١٨ صفر ١٣٥١ هـ في الكاظميّة، ودفن في النجف الأشرف في مقبرة آل ياسين.

أما أخوتها فهم:

١ - آية الله العظمى، شيخ الفقهاء الشيخ محمد رضا آل ياسين، كان أستاذا ومرجعا في عصره، توفي سنة (١٣٧٠ هـ) ودفن في مقبرة آل ياسين.

٢ - المرحوم المجاهد الشيخ راضي آل ياسين، كان من أكابر علماء الإماميّة،

وهو صاحب تأليفات كثيرة منها كتاب «صلح الحسن» وكان ردحاً من الزمن عالما في مدينة النعمانيّة.

٣ - المرحوم آية الله الورع التقي الشيخ مرتضى آل ياسين، كان من أكابر علماء الإماميّة ومرجعاً من مراجعهم الكبار...

لقد اطلعت على بعض، خصوصيات المرحومة والدة السيد الشهيد من خلال معايشتي لها فوجدتها والله مثال التقوى، امتلأت روحها حبا لله تعالى ورسوله وأهل بيته، وحتى في الأيام الأخيرة من حياتها كان عشقها لأهل البيت ولأمير المؤمنين يطغى على ما كانت تعاني من ألآم وأمراض فتخرج مستعينة بابنتها البارة الشهيدة بنت الهدى (رحمها الله) لزيارة قدوتها وإمامها رغم ما كانت تعاني من صعوبة كبيرة في مشيتها.

وكانت لا تفارق القرآن، فهي رفيقته في كل وقت تتلوه آناء الليل وأطراف النهار، وكلما انتهت منه عادت إليه.

وكانت دائمة الذكر لله تعالى، تلهج بتسبيحه وتحميده، وما انقطعت عن ذلك حتى فارقت نفسها المطمئنة برحمة ربها بدنها الطاهر، ولقيت ربها راضية مرضية، وكانت في فترة الحجز نموذجاً رائعاً في الصبر والثبات والاتكال على الله عز وجل، فلم تتململ وما مما كان يصيبها بسبب الحجز من فقد الدواء الذي كان به قوام حياتها، بل كانت تتظاهر بالصحّة والسلامة لتشعر السيد الشهيد بعدم أهمية المعاناة الكبيرة التي تعيشها، رحمها الله وأسكنها الفسيح من جناته.

نسب السيد الشهيد:

لآل الصدر شجرة نسب تتصل بالإمام موسى بن جعفر عليه السلام ومنه إلى رسول الله، يتوارثها رجال الأسرة بعناية ودقة، ومن العجيب أن السيد الشهيد يتصل بجده الإمام موسى بن جعفر أما بمجتهد أو عالم فاضل، فكل رجال هذه الأسرة علماء أفاضل أو مراجع كبار. وهي ميزة فريدة قلما تتوفر لأسرة من الأسر.

أما النسب فهو:

السيد محمد باقر الصدر، بن السيد حيدر، بن السيد إسماعيل، بن السيد صدر الدين، بن السيد صالح، بن السيد محمد، بن السيد إبراهيم شرف الدين، بن السيد زين العابدين، بن السيد علي نور الدين، بن السيد حسين، بن السيد محمّد، بن السيد حسين، بن السيد علي، بن السيد محمد، بن السيد تاج الدين، بن السيد محمد، بن السيد عبد الله، بن السيد أحمد، بن السيد حمزة، بن السيد سعد الله، بن السيد محمد، بن السيد علي، بن السيد عبد الله، بن السيد محمد، بن السيد طاهر، بن السيد الحسين، بن السيد موسى، بن السيد إبراهيم المرتضى، بن السيد

الإمام موسى بن جعفر[١].

ولادة السيد الشهيد:

في كنف جده الإمام موسى بن جعفر في مدينة الكاظمية ولد الشهيد محمد باقر الصدر يوم (٢٥) ذي القعدة (١٣٥٣ هـ).

وهذا اليوم من الأيام المباركة، لما ورد من أن فيه دحت الأرض، وفي ليلته ولد إبراهيم الخليل وعيسى بن مريم، وشاء الله عز وجل أن يعد هذا الوليد المبارك إعداداً يؤهله فيه ليكون أمينا لرسله وحصنا لشريعته، ومثلا أعلى وقدوة صالحة لعباده، وليحمل من الآمال والطموحات والهموم ما هي بحجم هموم الأنبياء، ويسير على خطهم وخط خاتمهم محمد ﷺ.

تقول والدته (رحمها الله) أنا كانت في غاية السعادة وهي تحتضن وليدها المبارك، فقد كانت ظروف الحياة الصحية قاسية، فالأمراض والآفات تأخذ الكثير ولا تدع إلا القليل، فكانت ترقب وليدها وتدفع عنه النوائب التي حرمتها من أشقاء له في سالف الأيام، والخوف والقلق يشوب الأمل في نفسها، وكانت تقول: «**ما كان يعيش لي من الأولاد إلا القليل**».

فقد كانت تجربتها - كأم - قاسية جداً لكثرة من فقدت من أولاد.

ولكن شاء الله عز وجل أن يحرس ابنها العبقري بعينه ويذخره لخدمة رسالة جده المصطفى، كما شاء تعالى أن يذوق السيد الشهيد اليتم منذ

(١) اعتمدنا على سماحة آية الله السيد رضا الصدر ابن عم السيد الشهيد فيما ذكرناه من شجرة النسب مذكور في كراس ذكريات وحنين- قصص أسرة آل الصدر.

سني حياته الأولى، فلم يتمتع بعاطفة أبيه وحبه، ولم يذق من طعم حنانه إلا سنوات قليلة.

ورافق الحرمان العاطفي فقر وضنك في العيش ليزيد من عملية صقل الوليد الفريد، ويرقي بتربيته وإعداده إلى أفضل ما يمكن، ولعل تلك سنة الله تعالى فيمن يختارهم لحمل أعباء رسالته: «**ألم يجدك يتيما فآوى ـ ووجدك عائلا فأغنى**».

لقد أثرت هذه الظروف على شخصية السيد الشهيد تأثيراً إيجابياً، خلاف لما قد يتصور من أن اشتداد المحن وصعوبة الظروف تترك آثاراً سلبية في نفس الإنسان، فلا اليتم ولا الفقر حالاً بينه وبين أن يشق طريقة نحو الهدف الذي كان يسعى إليه، فتجاوز كل الصعاب التي واجهته وهو في أهم وأخطر مرحلة من مراحل البناء والتكامل.

ومما لا شك فيه أن لوالدته ولأخيه الأكبر المرحوم آية الله السيد إسماعيل الصدر دورا كبيراً في تخفيف وطأة المحنة التي تشتد قسوتها عادة على من هو في مثل هذا العمر، إلا أن من المؤكد أن المقومات الشخصية التي تمتع بها كانت أقوى من آلام اليتم ومصاعب الفقر ومشاكل الحياة الأخرى، مما جعل آل الصدر يترقبون له مستقبلا مشرقاً.

فبالإضافة إلى قدرته على تجاوز تلك الصعاب، كانت علامات الذكاء والعبقرية تثير إعجابهم رغم صغره.

ومما يروى في هذا المجال أن السيد الشهيد (رضوان الله عليه) حينما بلغ العاشرة أو الحادية عشرة من العمر وجد نفسه ـ دخل الأسرة ـ بين

نزعتين متخالفتين تتجاذبانه نحو منحيين متغايرين في التخطيط لمستقبله، فمن جانب كانت والدته تحثه على الدراسة في الحوزة واختيار حياة الطلبة، ومن جانب آخر كان المرحوم السيد محمد الصدر يرغبه في مستقبل يضمن فيه سعادة دنياه والعيش في رفاه ودعة بعيداً عن حياة الحوزة وما يكتنفها من فقر وفاقة.

أما السيد الشهيد فقد وقف موقفاً عملياً حسم به ذلك التجاذب وأشعر تلك الأطراف التي تقاطعت رغباتها بمستقبله بواقع ما يطمح إليه، فقد أضرب تقريبا عن الطعام من دون إعلان، واكتفى من الطعام بقطعة صغيرة من الخبز يسد بها رمقه طوال الليل والنهار.

بعد أيام أحس الجميع ـ بالإضراب الهادئ فسألوه عن السبب فقال: إن الذي يستطيع أن يعيش على قطعة صغيرة من الخبز أياماً عديدة لهو قادر على أن يستمر إلى آخر العمر كذلك، فأنا لا أخشى من الفقر ولا أخاف من الجوع.

واستطاع أن يقنع الجميع بصواب رأيه بالالتحاق بالحوزة العلمية والانخراط في صفوف ورثة الأنبياء رغم ما قد يواجهه من صعوبة الحياة وجدب العيش فيها، وأثبت أن إرادته في اختيار هذا الطريق إرادة لا يزعزعها شيء.

ويقول (رضوان الله عليه) عن هذه المرحلة من حياته فقال: «**إن المرحوم السيد محمد الصدر رئيس وزراء العراق آنذاك**[1] **ـ كان يصطحبني معه إلى مزرعته خارج بغداد على ظهر جواد له، فكان يمنّيني بمنصب كبير في الدولة وبحياة ناعمة مرفهة إن أنا**

(١) كان رئيساً للوزراء في العراق.

واصلت دراستي في المدارس الحكوميّة، فقلت له: إن حياة الحوزة والدراسة فيها هي خياري الوحيد، وإن قناعتي في ذلك تامة رغم حاجتي للمال».

وكانت هذه بداية الطريق إلى الحوزة العلمية والنشاط العلمي والجهادي.

ومما يجدر ذكره أن السيد الشهيد كان قبل أن يتفرغ للدراسة في الحوزة العلمية قد تعلم القراءة والكتابة، وتلقي جانبا من الدراسات الحديثة في مدارس منتدى النشر الابتدائية في الكاظمية، فكان، وهو صغير السن موضع إعجاب الأساتذة والطلاب معا.

ويروي العديد ممن عاصروه وزاملوه في تلك المرحلة الكثير من القصص والمواقف التي تحكي عن ذكائه ونبوغه المبكر وإعجاب الأساتذة بقدراته وقابلياته الفائقة.

وحقيقة الأمر أن دراسته في المدرسة كانت أمرا ثانويا بالنسبة له، فقد كان (رضوان الله عليه) في قدراته على التلقي والاستيعاب يفوق بكثير مستوى المناهج الدراسيّة لمدارس منتدى النشر، وما دخوله فيها إلا بحكم ما جرت عليه العادة بالنسبة لمن هو بمثله في العمر.

وتحدثت عن هذه الفترة أخته الشهيدة بنت الهدى (رضي الله عنه) تقول: «**كنت مع أخي في تلك الفترة نجمع ما نحصل عليه من مال قليل، فيشتري السيد به كتاباً فنطالعه ونستوعبه، ثم يبيع الكتاب ليشتري بثمنه كتابا آخر، وهكذا استمر الحال بعد هجرتنا إلى**

النجف الأشرف»[١].

الهجرة إلى النجف الأشرف:

هاجر المرحوم آية الله السيد إسماعيل الصدر وهو الأخ الأكبر للسيد الصدر إلى النجف الأشرف في عام (١٣٦٥ هـ) مع كافة أفراد العائلة، فاستأجروا دارا متواضعة ليسكنوا فيها، ومن هذا التاريخ بدأت رحلة السيد الشهيد محمد باقر الصدر العلميّة.

فكان أكبر همه استيعاب المناهج الدراسيّة والعلمية وعلى قدر من الجد ومكانة من بذل الجهد بحيث يستبق الزمن في رحلته نحو الكمال، فكان النموذج الفريد للطالب المجد في تحصيل العلم والمعرفة.

ففي تلك الفترة وهو في الحادية عشرة من عمره درس علم المنطق وكتب بحثا اعترض فيه باعتراضات على بعض الكتب المنطقية.

وفي أوائل السنة الثانية عشرة من عمره درس كتاب «**معالم الأصول**» على يد أخيه المرحوم السيد إسماعيل الصدر، فكان لفرط ذكائه يعترض على صاحب المعالم باعتراضات وردت في كتاب «**كفاية الأصول**» للخراساني.

منها: أنه ورد في بحث «**الضد**» في كتاب «**معالم الأصول**» الاستدلال على حرمة الضد بأن ترك أحدهما مقدمة للآخر.

فاعترض عليه الشهيد الصدر بقوله: «**إذا يلزم الدور**».

(١) مجلة النجف الأشرف، مقابلة مع الشهيدة بنت الهدى.

فقال له المرحوم السيد إسماعيل الصدر:(هذا ما اعترض به صاحب الكفاية على صاحب المعالم).

أساتذته:

درس الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) لدى ثلة من أعلام وأساتذة الحوزة العلميّة في النجف الأشرف نذكر منهم:

١ - آية الله الشيخ محمد رضا آل ياسين وهو خاله.

وهنا تروى حادثة طريفة تدل على فرط ما يتمتع به سيدنا الشهيد من ذكاء خارق وعبقرية خاصة فقد كان المرحوم آية الله الشيخ محمد رضا آل ياسين يظن أن يحضر السيد الشهيد لبحثه حضوراً تشريفياً لا اكتسابياً حقيقياً: ذلك لأن عمر السيد الشهيد لم يكن يتناسب مع مستوى بحث الخارج، فتلك الأبحاث لا يحضرها حضوراً استيعابياً إلا القلائل من الطلبة والعلماء الذين اتعبوا أنفسهم في التحصيل سنوات كثيرة، حتى تمكنوا من تمهيد الأرضية العلمية لاستيعاب الأبحاث الاستدلالية المعقدة التي تلقى فيها، وإذا علمنا أن بحث المرحوم آل ياسين كان يحضره أمثال آية الله الشيخ صدرا البادكوبي، وآية الله الشيخ عباس الرميثي، وآية الله الشيخ طاهر آل راضي وأمثالهم من جهابذة العلماء، ندرك أن الحق مع المرحوم آل ياسين في ظنونه بحقيقة حضور السيد الشهيد لبحثه.

ويبدو أن السيد الشهيد (رضوان الله عليه) كان في تلك الفترة يكتفي بالاستماع لبحث أستاذه متجنباً مناقشته، أو الاعتراض عليه، وإلا فإن

بإمكان الشيخ أن يكتشف من خلال ذلك عبقرية أصغر تلاميذه في وقت أبكر من تاريخ وقوع الصدفة التي غيرت اعتقاده.

والذي حدث فغير نظرة الشيخ عن السيد هو أن الشيخ كان يبحث مسألة:

أن الحيوان هل يتنجّس بعين النجس ويطهر بزوال العين التي نجسته، أو لا يتنجس بعين النجس؟

فذكر أن الشيخ الأنصاري ذكر في كتاب الطهارة أن هنا ثمرة في الفرق بين القولين تظهر بالتأمل.

وقال: إن أستاذنا المرحوم السيد إسماعيل الصدر حينما انتهى بحثه إلى هذه المسألة طلب من تلاميذه أن يكتشفوا ثمرة الفرق بين القولين، فبيّنا له ثمرة الفرق بين القولين. وأنا أطلب منكم اكتشاف الثمرة والإتيان بها في بحث اليوم الآتي.

فحضر السيد الصدر في اليوم التالي قبل الآخرين، وقال للشيخ:

إني جئت بثمرة الفرق بين القولين وذكر الثمرة التي اكتشفها، فتعجب الشيخ وقال له: أعد بيان الثمرة لدى حضور باقي الطلاب.

وحينما حضر الطلاب الآخرون طالبهم الشيخ بالثمرة فلم يتكلم منهم أحد، فقال الشيخ: إن السيد محمد باقر الصدر أتى بثمرة جديدة غير الثمرة التي ذكرناها لأستاذنا وهنا بيّن شهيدنا الصدر الثمرة بين القولين.

فأثار إعجاب الحاضرين وعرف من ذلك الوقت بالعلم والفضيلة والعبقرية.

٢ - آية الله الشيخ ملا صدرا البادكوبي، درس عنده الجزء الثاني من الكفاية والأسفار الأربعة.
٣- آية الله الشيخ عباس الرميثي العاملي.
٤- آية الله السيد أبو القاسم الخوئي.
٥ - آية الله الشيخ محمد تقي الجواهري، درس عنده الجزء الأول من الكفاية وقسما من كتاب اللمعة.

هؤلاء أساتذة السيد الشهيد محمد باقر الصدر وقد حضر عند بعض الأساتذة الآخرين بعض المواد الدراسيّة ككتاب المكاسب الذي اتفق مع أستاذه على أن يستمع الأستاذ لشرح السيد الشهيد للمادة العلميّة ويناقشه في الموارد التي تحتاج إلى نقاش الأستاذ أو توضيحه.

ومما يتذكر عن نبوغ وذكاء السيد الشهيد في تلك الفترة، والمكانة التي وصل إليها وهو في سن مبكرة أنه لمّا توفي الشيخ آل ياسين في سنة(١٣٧٠ هـ) علّق المرحوم آية الله الشيخ عباس الرميثي على رسالة آل ياسين المسمّاة بـ«**بلغة الراغبين**» ولشدة إعتقاده بذكاء ونبوغ السيد الشهيد طلب منه حضور المجلس الخاص بكتابة التعليقة ليشارك هو أيضا بعمليّة الاستنباط.
وكان الشيخ الرميثي يقوله له في ذلك التاريخ: «**أن التقليد عليك حرام**».

وهذا يدل على أن السيد الشهيد كان قد بلغ مرتبة الإجتهاد وهو في سن مبكرة جداً.

وذات يوم قال السيد الشهيد: إني لم أقلّد أحداً منذ بلوغي سن الرشد.

وكان السيد الشهيد في تلك الفترة قد كتب أيضا تعليقة على رسالة المرحوم الشيخ آل ياسين المسمّاة بـ«**بلغة الراغبين**»، وكان يأسف على ضياع تلك النسخة التي تعتبر من أغلى ذكريات عمره العلمي.

وشاء الله تعالى أن أعثر على تلك النسخة وكان لذلك قصة هي: كنت قد سمعت من السيد الشهيد ومن والدته أن سادن الروضة الحسينيّة «**الكليدار**» في زمن والد السيد الشهيد أهدى لمراجع ذلك الوقت ومنهم المرحوم السيد حيدر الصدر «**تربة**» للصلاة كان قد أحضرها من تراب قبر سيد الشهداء أي التراب القريب جدا من جسد الإمام الحسين فكانت هذه التربة المباركة[1].



(١) يروي هذه القصة العلامة المرحوم الشيخ أحمد الساعدي رضوان الله عليه.

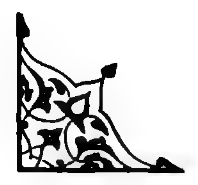


الفصل الثاني

التجديد الكلامي عند الشهيد الصدر



التجديد الكلامي



تمهيد:

في السنوات الأخيرة وبشكل غير متوقع ظهر من ينتصر لليبرالية الرأسمالية ويدّعي أنها أرقى مراحل الصراع الأيديولوجي: لقد حدث ذلك سنة ١٩٨٩ حين كتب فوكاياما فرنسيس مقالاته حول «**نهاية التاريخ نهاية العالم**»[١] وهو لا يقصد نهاية الأحداث بل يقصد أن منتهى التطور الأيديولوجي هي الليبرالية وأن البشرية بلغت أوج الأنظمة السياسية: الرأسمالية «**فعدد الخيارات التي تواجهها البلدان في تحديد كيفية تنظيمها السياسي والإقتصادي قد قلّ كثيراً مع الزمن ومن بين النماذج المختلفة التي ظهرت في تاريخ الإنسان بدءاً بالأنظمة الملكية والارستقراطية وصولا إلى الأنظمة الثيوقراطية والدكتاتورية الفاشية والشيوعية في عصرنا فان الشكل الوحيد الذي استمر صامداً حتى نهاية القرن العشرين كان الديمقراطية الليبرالية..**

---

(١) ظهر كتابه (نهاية التاريخ) فيما بعد سنة ١٩٩٢.

وبعبارة أخرى «ليست المحاولة الليبرالية هي التي تبدو منتصرة بقدر ما هي الفكرة الليبرالية أي أنه بالنسبة لقسم كبير جداً من العالم ليست هناك أيديولوجيا تدعي الشمولية حالياً تكون في موقع يمكنها من منافسة الديمقراطية الليبرالية»[1].

حتى الدين الإسلامي الحنيف الذي يقرّ بأنه نظاماً أيديولوجياً متماسكاً ولكنه لا يعترف له بالقدرة على المنافسة خارج الحدود الجغرافية والتاريخية للعالم الإسلامي يقول: «**صحيح إن الإسلام يشكل أيديولوجية متماسكة شأن الليبرالية والشيوعية وله نظامه الأخلاقي الخاص وعقيدته الخاصة في العدالة السياسية والاجتماعية فدعوة الإسلام هي ذات طابع شمولي وهي تتوجه إلى جميع الناس.. وبالرغم من القوة التي أبداها الإسلام في تجدده الحالي إلاّ أن هذا الدين لا يبدو أنه يمارس أية جاذبية خارج الأصقاع التي كانت إسلامية ثقافياً منذ بداياتها فقد ولى زمن الغزو الثقافي للإسلام كما يبدو انه يستطيع استعادة بلدان فلتت منه لفترة لكنه لا يقدم أبداً الإغراءات لشبيبة برلين وطوكيو وموسكو إذا كان هناك مليار من الناس تقريباً ينتمون للثقافة الإسلامية «أي خمس سكان العالم» فإنهم لن يتمكنوا من منافسة الديمقراطية الليبرالية في عقر دارها في مجال الأفكار**»[2].

لقد غاب عن فوكاياما.. وهو يعلن عن نهاية «**تاريخهم**» ويناقش النظرية الإسلامية من منظور وضعي أنّه غير قادر على تفهّم ما لهذه المدرسة من عمق وامتداد وتأصل في النفوس والآفاق.. غاب عنه إن

---

(١) فرنسيس فوكايا: نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مركز الإنماء القومي ١٩٩٣ ص ٧١.

(٢) فرنسيس فوكايا: نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مركز الإنماء القومي ١٩٩٣ ص ٧١.

وفي نفس اللحظة التاريخية ذاتها (مع مطلع القرن الخامس عشر للهجرة) يولد التاريخ ويبدأ من المنظور الإسلامي في دورة حضارية جديدة مع قيام الثورة الإسلامية المباركة في إيران وبلوغ الفكر الإسلامي مرحلة متقدّمة من النضج والتكامل.

لقد غاب عن فوكاياما إن «المدرسة الإسلامية» لا تنطلق كالليبرالية من معطيات ظرفية ولا تخضع في أصولها الفكرية الإعتقادية إلى التاريخ... بل هي تستوعب التاريخ لأنها تستند إلى مرجعية خارج التاريخ «الوحي الإلهي» وإن كانت في نضالها اليومي وصراعها الاجتماعي تخضع لنواميس التاريخ وقوانين الحركة... إن مضامين المدرسة الإسلامية فوق التاريخ لكنها تاريخية في حركتها ومسيرتها... لقد غاب عنه أن الارتباط بالمطلق يعطي لهذه المدرسة قدرة على التجديد والتكيف في كل لحظة زمنية وفي كل فضاء تاريخي وفي كل موقع جغرافي فلا... تأخذه الطمأنينة.. ولا يغرّنه... واقع المسلمين الراكد...

إن نهاية التاريخ التي يتنبأ بها «مسيلمة» الليبرالية الجديدة... هي نهاية التاريخ المنقطع عن الله عز وجل ولكنها بداية للتاريخ الذي يندمج فيه الإنسان من جديد في الكون مع الله وبالله جل جلاله...

بدأ التاريخ في المشرق... وأذن التاريخ بنهايته في الغرب نهاية تمخّضت في تحولات سياسية خطيرة عرفها المعسكر الاشتراكي... ولا نزال نترقّب تمثلاتها في المعسكر الرأسمالي... بدأ التاريخ في المشرق بعودة الوعي وعودة الإسلام يقود الحياة إلى آفاق مستقبلية رحبة... ويؤسس لنظم فكرية وثقافية وحضارية شاملة... تخلّص الإنسان والمجتمع... وتبشّر بحياة سعيدة عادلة.

لقد ساهم في صنع هذه اللحظة التاريخية العظيمة من فجر هذه الأمة رجالات كثر... يشمخ على رأس قائمتهم... «**السيد الشهيد محمد باقر الصدر** ﭬ» الذي استشهد ليمْنَحَ كيان الأمة الإسلامية نفخة من روحه الطاهرة.. فيشارك إلى جانب آخرين في بعث الحياة في هذا الكيان[1].

لقد مثّل السيد الشهيد باقر الصدر نموذجاً متميزاً من منظري الساحة وعلماً بارزاً في سماء نهضتها الفكرية وانبعاثها الحضاري.

وبعد ثلاثة عقود ونيفاً على من رحيله لا يزال إنتاج السيد الشهيد باقر الصدر يشكل نسيجاً متماسكاً مدرسة إسلامية متكاملة الأبعاد.. وبالرغم من التطورات الثقافية والفكرية التي عرفها العالم منذ استشهاده إلاّ أن مشروعه الفكري لا يزال يمثّل من عناصر القوة والجدية ما يبقيه حاجة مستمرة إلى قراءة جديدة... حتى نحسن تمثله وتشييد البناء التام لهذه الدراسة استناداً إلى الأسس التي أرساها...

وقع فكر باقر الصدر موضوعاً للعديد من البحوث والدراسات التي حاولت استكشاف مناحي التجديد ونقاط القوة والإبداع في هذا العطاء... إلاّ أن هذه الدراسات بقيت تعاني من نقائص عدة أهمها:

أ ــ تمركزها حول بعض القضايا والمسائل دون غيرها.

ب ــ أنشداد هذه البحوث منهجياً إلى أليات ومناهج تجاوزها السيد الشهيد باقر الصدر وطرح آليات بديلة لها فإلى متى ندرس فكر السيد الشهيد باقر الصدر تجزيئياً في الوقت الذي اكتشف هو المنهج الترابطي الموضوعي؟ وإلى متى نبقى مشدودين إلى المنطق الأرسطي في تحليل

---

(١) ومنهم السيد موسى الصدر والدكتور علي شريعتي ومالك بن نبي وغيرهم.

أفكاره.. متغافلين عن نظريته في المعرفة والمذهب الذاتي؟...

وفي دراستنا هذه نحاول تخطي هذين القصورين فاخترت موضوع التجديد الكلامي عند الشهيد محمد باقر الصدر لأنه في حدود اطلاعي القاصر لا توجد دراسة مستوفية تستوعب البحث العقائدي عند الشهيد الصدر وان تعرّضت بعض البحوث لبعض كتابات الصدر العقائدية..

لكن التجديد الكلامي بهذا العنوان لا يمكن الإحاطة به إلاّ من خلال دراسة موضوعية لجميع أصول الدين.

ولابدَّ من الإشارة إلى أن الدراسة تطغى عليها الصبغة التحليلية وهذا ما يبرّر التصاقها الشديد بكلمات باقر الصدر حتى نقترّب أكثر فأكثر من الموضوعية التي نقل أفكاره وإبداعاته.

ولم تركّز الدراسة على المقارنة بين أفكار باقر الصدر وغيره من المفكرين الطليعيين الذين يلتقي معهم في كثير من النقاط (خاصة محمد حسين الطباطبائي والشهيد مرتضى مطهري والدكتور علي شريعتي) إلاّ في مواضع قليلة لأن الهم الأول كان الكشف عن نقاط خفية في فكر الرجل ومكامن التجديد والإبداع لديه في الطرح الكلامي فلم نلتفت إلى المقارنات إلاّ قليلا.. حتى لا نشوّش على الهدف المركزي.

أما البعد النقدي فهو غائب تماماً عن الدراسة. وإن كنت أعتقد بضرورة قراءة مشروع الصدر قراءة نقدية تساهم في استكمال بناء المشروع وتدارك أوجه النقص فيه...

إلاّ أن أمرين اثنين حالا دون ذلك:

أولاً: إن القراءة النقدية العلمية السليمة هي التي تقع في مرحلة تم فيها تحليل المشروع فالنقد مرقى فكري أعلى من التحليل والتمثّل وأنا اعتقد إن هذا المرقى الأخير لم نبلغه أو لم نتجاوزه على الأقل خاصة في مستوى المجال الذي تم اختياره «**التجديد الكلامي**».

ثانياً: فان القراءة النقدية تستوجب مستوى علمياً وإحاطة تفصيلية دقيقة بكامل المشروع الفكري السيد الشهيد محمد باقر الصدر.



المراحلة الأولى: منشأ علم الكلام:

تزداد البحوث والدراسات حول المعرفة، أدواتها، مصادرها، وتطورها أهمية يوماً بعد آخر.

ولا يزال الفكر الإسلامي يتلمس طريقه في اتجاه طرح نظريات شتى في مختلف مجالات الفكر قصد أسلمة المعرفة وصياغة التصور الإسلامي الأصيل، ولا يخفى ما تمتاز به المدرسة الإسلامية من تنوع وثراء يؤهلها للعب هذا الدور ولعل منشأ هذا التنوع يعود إلى أمرين أساسين:

الأمر الأول:تعدد مصادر المعرفة في المنظور الإسلامي.

الأمر الثاني: ظهور اتجاهات معرفية متنوعة في تاريخنا الفكري.

فالرؤية الإسلامية العامة لا تلغي دور العقل كما أنها تقر بدور الحس والتجربة فهي تزاوج بين المحسوسات والمعقولات وإن كانت تختلف مع التجريبيين والحسيين في حدود الحس والتجربة كما تفترق عن الاتجاهات العقلية في مدى دور العقل وطبيعة البديهيات التي يختزنها.

ومن جهة أخرى تؤمن المعرفة الإسلامية بالوحي كمصدر إلهي فوق بشري يهدينا لمعرفة معصومة في جذورها بشرية في فهمها والتعاطي معها وهذا نبع يثري التراث الإسلامي ويمنحه دفعة تفتقدها كل الاتجاهات الوضعية.

ومن سنخ الوحي يقوم الإلهام كأداة معرفية تستند إلى تزكية النفس ومجاهدتها في الإعراض عن دواعي الطبيعة ومتطلبات الهوى لبلوغ مراتب عالية في السير والسلوك.

إن هذا التنوع في أدوات المعرفة ووسائلها ساهم بفعالية في الثراء الفكري والمذهبي للتراث الإسلامي.

ومن صميم هذا التنوع المعرفي انبثقت كل العلوم الإسلامية.

فالحديث كان تدويناً للنص النبوي الذي يمثّل التفسير والتحليل الوافي للوحي وهو الوجه الآخر للنص القرآني التي تحوم حوله كل علوم القرآن في أحضان الحديث نشأ الفقه وتكامل وتطور وكذا علم أصول الفقه الذي انبثق بدوره عن الفقه كمجال لدراسة

القواعد العامة والمشتركة في استنباط الأحكام الشرعية.. الخ..

هذا التنوع في مصادر المعرفة كان عاملا مهماً في تعدد المناهج المعرفية في فكرنا الإسلامي والتي يرجعها البعض إلى ثلاثة اتجاهات أساسية:

أ ـ المنهج الفلسفي بشقيه الإشراقي والمشائي.
ب ـ المنهج الكلامي.
ج ـ المنهج العرفاني.

ويضيف البعض منهجاً رابعاً معتبراً اياه مكمّلا للثلاثة السابقة: مدرسة الحكمة المتعالية التي توحد بين «**القرآن والعرفان والبرهان**» في الوصول للمعرفة[١].

فالمنهج الكلامي قسيم للمنهج الفلسفي المشائي والمنهج العرفاني وهذا النهج يستند إلى جملة من الضوابط التي حدّدها تراث هذا العلم فالكلام هو العلم الذي يبحث عن أصول دين الإسلام على النحو الذي يحدّد ما هو من أصول الدين وكيف وبأي دليل يتم إثباتها مع الردود على الشكوك والشبهات التي تردّ عليه[٢].

(١) مرتضى مطهري، الفلسفة، دار التيار الجديد، ص٥٧.
(٢) مرتضى مطهري، الكلام والعرفان، الدار الإسلامية، ص١٥.

تحدّيد المهمات الأساسية لعلم الكلام:

أولاً: تحديد أصول الدين.
ثانياً: إثباتها بالدليل.
ثالثاً: دفع الشبهات التي تثار حولها.

ولما كان المتكلّم لا ينطلق في بحثه مجرّداً عن أي معتقد أو خلفية مسبقه بل هو يبدأ متسلّحاً بمعتقداته ومتبنياته، اتسم النهج الكلامي بالنزعة الجدلية التي تسعى لإثبات المعتقد الديني بالدليل مقابل الاتجاه الفلسفي الذي يتحرّك عبره الفيلسوف حراً من كل التزام مسبق بأية فكرة أو مضمون «**فالمتكلم بعكس الفيلسوف يعتبر نفسه متعهّداً بالدفاع عن حريم الإسلام والبحث الفلسفي بحث حرّ أي ان هدف الفيلسوف ليس معيّناً سلفاً بأن يدافع عن عقيدة ما ولكن هدف المتكلم محدد سابقاً**»[1] ، ولكن على الرغم من ذلك تأثر علم الكلام وتفاعل مع الاتجاهات المعرفية الأخرى فاكتسب البحث العقائدي أحياناً نزعة عرفانية «**الغزالي مثلا**» وفلسفية أحياناً أخرى «**الخواجة الطوسي**».

وأوغلت بعض الاتجاهات الحرفية فحاربت علم الكلام واعتبرته بدعة كالحشوية والسلفية وبعض أئمة مذاهب الفقه.

إن موضوع علم الكلام وخطورته هما اللذان بوّآه المكانة السامية في تاريخنا الثقافي. فان كان شرف العلم كما يقول القدماء بشرف المعلوم فلا علم فوق الكلام لأنه يتعلّق بالذات الإلهية المقدّسة وصفاتها وأفعالها بالمعنى العام للفعل الذي يتضمّن النبوة والمعاد كتجليات للفعل الإلهي.

(١) مرتضى مطهري، الفلسفة (مصدر سابق)، ص٥٥.

وان كان جل العلوم الإسلامية الأخرى تقوم على النصِ القرآني والنبوي وكلمات المعصومين فان علم الكلام هو الذي يتكفّل إثبات هذا النص بإثبات أصل التوحيد وأصل النبوة.

وفي زماننا الحاضر لم يفتقد «**علم العقائد**» أهميته البتة. بل عززتها الحاجة الفطرية المتأججة لدى الإنسان لامتلاك رؤية كونية عامة تضيء له الدرب وتفتح أمامه الآفاق بالإجابة عن أهم الأسئلة الكبرى التي تقلقه من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟

لقد تعمّقت هذه الحاجة عبر التاريخ... خاصة بعد احتكاك المسلمين مع الشعوب الأخرى ودياناتها وبعدما انخرطوا في الصراع المذهبي والديني سواء داخلياً أو مع المعتقدات الأخرى.

ولكن هلم بلغ علم الكلام من النضج ما يؤهّله لمواكبة تحديات العصر ومتطلبات الزمان؟

وهل كان في تاريخه دوماً في مستوى هذه المسؤولية التي تعهد بإدائها والذب عنها؟

إن استقراء تاريخ هذا العلم يعكس مداً وجزراً، إقبالا وإدباراً... حَيْثُ لم يكن دائماً في مستوى الحاجة الماسة للمسلمين في الذبّ عن الدين والمبدأ والوحي والمعاد... لقد شهد تاريخ هذا العلم فترات ازدهار وتقدّم كما عرف انتكاسات موضعية لم تفقده على «**كل حال**»... تكامله في اتجاه عام تصاعدي...

وإن محاولة تحقيب هذا التاريخ تواجه صعوبات جمة لأن خصوصيات

المذاهب والمدارس الكلامية المختلفة تحول دون أن نرسم تاريخاً واحداً حيث اختلفت مراحل كل تيار عن بقية المدارس واكتسبت كل مدرسة طابعاً وتكاملا يميّزها عن المدارس الأخرى.

ولذلك سنحاول أن نحدّد الملامح الكبرى العامة لتاريخ هذا العلم والتي تشترك فيها تقريباً كلّ الاتجاهات الكلامية من أشاعرة ومعتزلة وإمامية... الخ.

وإذ نحن نحاول أن نُعطي منحى عاماً لكل المدارس الكلامية لابدَّ أن نشير أن ازدهار هذا العلم بتعدّد فرقه ومذاهبه كان مصاحباً لازدهار الإسلام «**وانحط علم الكلام حين جمد فكر المسلمين... وحين أغلق باب الاجتهاد**»[1].

وأهم المراحل هي:

أولاً: مرحلة الجذور التأسيسية الأولى.

إن نزول الوحي الإلهي على قلب رسول الله ﷺ كان إيذاناً ببدء الرسالة الخاتمة وكذلك إيذاناً بتحول كبير في التصور العام للإنسان والحياة والعالم.

لقد رسمت الآيات الأولى من سورة العلَق منهجاً جديداً في رؤية الكون ورسالة الإنسان إنها تؤسس لقراءة مزدوجة قراءة في عالم الطبيعة: والاستفادة مما تزخر به من قدرات وإمكانات وقراءة باسم الله بمعنى منفتحة على ما يزخر به الغيب من مواهب وعطاءات... إنه التوازن

---

(١) أحمد محمود صبحي، علم الكلام، مج١ ص٣٨.

الدقيق بين مستلزمات عالم الطبيعة وعالم الغيب[١].

إن النص القرآني هو الذي أسّس لنشوء علم الكلام لأنه بما تضمّنه من حقائق عن علم الله وقدرته وحياته عن النبوة والمعاد والإمامة وجه الأنظار إلى مثل هذه القضايا إضافة إلى إلحاحه الشديد على وجوب النظر والفكر والتأمل وإقامة البرهان والجدل بالتي هي أحسن.. لقد احتلت هذه المطالب مساحة كثيفة فاق القرآن بها ما تضمنته الكتب السماوية الأخرى.

ولكن لما كان في تاريخ كل دين يمرّ بمرحلة تتسم بالتسليم والانقياد القلبي بعيداً عن المناقشة والجدال في تفاصيل العقيدة قبل بلوغ مرحلة التدقيق والتمحيص العقليين والتخصص في المناظرة والجدل، لم تبرز هذه المسائل فجر الرسالة في نطاق علم خاص لأن العقائد زمن الرسالة ونزول القرآن كانت تواكب المسيرة والدعوة ويعيشها الناس حياة وحركة لا جدال وفرضيات.. من هنا لم تكن الحاجة ملحة لصياغة نظرية لمسائل علم قائم بذاته.

فمرحلة التأسيس تقوم على اعتبار أن القرآن هو المنطلق لنشوء هذا العلم سواء من جهة المضمون أو من جهة المنهج. والزمخشري يقرّر هذه الحقيقة حيث يذهب أن الإغماض في القرآن وتشابه بعض معانيه هو السرّ في دفع المسلمين للبحث والنظر والتفكير والاستنباط و(ولو كان كله «القرآن» محكماً لتعلق الناس بسهولة مأخذه ولأعرضوا عمّا يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصّل إلى معرفة الله وتوحيده إلاّ به.

(١) يشار إلى أن نظرية المزج بين (قراءتين) فصلها أبو القاسم حاج محمد في كتابه العالمية الإسلامية الثانية فصل (الوعي المحمدي) فليراجع.

ولما في المتشابه من الابتلاء والتميز من الثابت على الحق والتزلزل فيه ولما في تقادح العلماء وإتباعهم القرائح في استخراج معانيه وردّه إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمّة ونيل الدرجات عند الله[١].

ثمّ إن القرآن لا يخلو من آيات بديعة في مجادلة المشركين وأتباع الديانات الأخرى ونقض مزاعمهم ممّا شجّع المسلمين أكثر فأكثر على بلورة هذا العلم وتأسيسه.

إضافة إلى ما نقله الحديث من محادثات الرسول الأعظم ﷺ مع اليهود والنصارى والمشركين واحتجاجاته عليهم.. ولا يخفى على كل منصف الأثر البالغ لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام.

يقول الشهيد مطهري: «**إن البحث الاستدلالي بخصوص الأصول الإسلامية قد نشأ من القرآن الكريم كما في أحاديث الرسول ﷺ وخطب أمير المؤمنين عليه السلام تعقيباً وتفسيراً وان اختلفت صياغة وأسلوب هذه المباحث عن صياغة وأسلوب المتكلمين فيما بعد**»[٢].

المرحلة الثانية: النشوء والنمو.

تتجاهل الدراسات عادة مرحلة «**الإرهاصات**»، وتؤرخ لعلم الكلام انطلاقاً من القرن الثاني للهجرة على يد بعض الرموز كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي اللذين دافعا عن اختيار الإنسان مقابل اتجاهات ظهرت

(١) الزمخشري، الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت، ج١ ص٣٣٨.
(٢) مرتضى مطهري، الكلام والعرفان، ص١٨.

تنظر للجبر، ولكن التحقيق إن مسألة الجبر والاختيار التي شكّلت في فترة ما محور المباحث الكلامية هي ضمنا مسألة القضاء والقدر بمعنى أن القضية من جهة ارتباطها بالإنسان عنوانها الجبر والاختيار ومن جهة علاقتها بالله عز وجل تعنون بالقضاء والقدر وعن هذه المسألة تتفرع قضية العدل وذلك لوضوح العلاقة بين الجبر والظلم والعدل والاختيار وينجر عنه بحث الحسن والقبح الذاتيين فالمستقلات العقلية ومسألة تعليل أفعال المولى بالأغراض وشيئاً فشيئاً يتسلسل البحث إلى التوحيد في الأفعال ثم التوحيد في الصفات ثم تشعّبت بعد ذلك أكثر فأكثر المسائل الكلامية[١].

ولقد ساهم في هذا التطور اختلاط المسلمين نتيجة للفتوحات مع غيرهم من الأمم وأرباب الملل والنحل وتعرفهم على معتقدات هؤلاء ومناظرتهم لأحبارهم وكهنتهم وممثّلي دياناتهم.

وفي هذه المرحلة ظهرت الفرق الكلامية كالأشعرية المرجئة والمعتزلة ويعتقد العديد من الباحثين ان هذه المرحلة شهدت أيضاً انتقال علم الكلام من الشفوية إلى «الكتابية» فيذكرون كشاهد على ذلك رسالة محمد بن الحنفية (ت ١٠٠هـ) ورسالة الحسن البصري (ت ١١٠هـ) رسالة عمر بن عبد العزيز (ت سنة ١٠١هـ).

ولقد سجّل ابن النديم صاحب الفهرست بعض أصحاب أئمة أهل البيت عليهم السلام ممّن دونوا في علم الكلام فذكر في هذا المضمار علي بن إسماعيل بن ميثم التمار وله كتاب الإمامة وكتاب الاستحقاق كما صنّف هشام بن الحكم من أصحاب الإمام جعفر الصادق عليه السلام كتاب الإمامة، كتاب الدلالة على حدوث الأشياء، كتاب الردّ على الزنادقة..

---

(١) انظر المصدر السابق.

الخ[١].

وهكذا تؤكّد لنا مرحلة الإرهاصات وهذه المرحلة تأصل علم الكلام في بيئته الإسلامية وتتهاوى مزاعم بعض المستشرقين ممن حاولوا إرجاع علم الكلام إلى مرحلة ما بعد دخول الفلسفة اليونانية أثر عصر الترجمة حيث شق عليهم نسبة هذا السبق الإبداعي للمسلمين والمكسب الحضاري في تاريخهم.

يقول السيد محمد حسين الطباطبائي ﭭ: **«وليس الأمر على ما ذكره بعضهم إن التكلم ظهر وأنشعب في الإسلام إلى الاعتزال والأشعرية بعد انتقال الفلسفة إلى العرب، يدل على ذلك وجود معظم مسائلهم وآرائهم في الروايات قبل ذلك»**[٢].

ولا ينقضي العجب من الشيخ المظفر على جليل قدره وعظيم شأنه حِينَ يسقط في نفس الشبهة التي أثارها هؤلاء المستشرقين فيقول **«أما علم الكلام فلا يشبه الفلسفة لأنه إنما نشأ عند المسلمين لردّ عادية الفلسفة المهاجمة خوفاً من أن تؤثر على العقيدة الإسلامية أو ما يرونه عقيدة إسلامية»**[٣] .

ويقول في موضع آخر **«لما هاجمت الفلسفة أفكار المسلمين وأوجبت اضطرابهم وتبلبلهم وقد كان الناس في السابق يقدّسون الفلسفة ويتلقّون أفكارها كوحي منزل نشأ من ذلك حالة من الازدواجية تدعو إلى التوفيق مهما كلّف الأمر بين ما جاء به**

---

(١) انظر الفهرست لابن النديم.

(٢) محمد حسين الطباطبائي، الميزان، مؤسسة الأعلمي ١٩٩٧، ج٥، ص ٢٨٤.

(٣) محمد رضا المظفر، الفلسفة الاسلامية، ص٧٦.

الإسلام وما جاءت به الفلسفة ولو بتأويل ما جاء به الإسلام لصالح ما جاءت به الفلسفة في الحالة التي يوجب فيها تعارض وتغاير بين الاثنين فنشأت مذاهب ومدارس فكرية مختلفة متناحرة نتج عنها فتن كثيرة سالت فيها دماء كثيرة»[١].

المرحلة الثالثة: اكتمال النمو.

هي التي أعقبت عصر الترجمة الذي بدأ مع المنصور العباسي (١٣٧ ـ ١٥٨هـ) وبلغ ذروته مع المأمون العباسي (١٩٨ ـ ٢١٨هـ). لقد استفاد المتكلمون من ترجمة الفلسفة وإشكالات الفلاسفة وآرائهم فقد **«كانت العرب بعيدة عن التفكير الفلسفي حتى شاهدت نموذجاً منها في ترجمة بعض الكتب الفلسفة اليونانية المترجمة إلى العربية في أوائل القرن الثاني للهجرة وبعدها ترجمت كتب متعددة في أوائل القرن الثالث الهجري من اليونانية والسريانية وغيرها إلى العربية وآنذاك أصبحت طريقة التفكير الفلسفي في متناول أيدي العموم»**[٢].

وساهمت حركة الترجمة في انتشار الفلسفة مما دفع التفكير الديني عند المسلمين لمحاولة التوفيق بين معطيات الفلسفة والمضامين الإعتقادية كما دفعهم للذب عن العقيدة ودفع شبهات المنكرين وإشكالات المعاندين فكان عصراً ذهبياً للكلام رغم كل ما شابه من صراعات خرجت عن حدّها المعقول من الجدال الفكري والمذهبي الصرف بل اتخذت أبعاداً سياسية خطيرة أضفت على الصراع حالة من التعصّب المقيت لا تتحمّل التعدد والتنوع وترنو لإقصاء الطرف الآخر

(١) م. ن، ص٧٧.
(٢) محمد حسين الطباطبائي، الشيعة في الإسلام، دار التعارف، ص١٢٧.

ولو بقوة السلاح.

المرحلة الرابعة: الجمود النسبي.

بعد التطور والازدهار الذي شهده علم الكلام في العصر السابق حلّ دور الجمود مع حلول القرن الرابع للهجرة حيث جمد الناس على الأساليب الموروثة جموداً أخرجه عن كونه علماً. وانفصل بذلك علم الكلام عن التفكير العميق. وفي هذه الفترة مات الاعتزال ولكن ظهور أسماء لامعة في القرن السابع للهجرة أعاد لعلم الكلام تألقه وإشعاعه فكان الخواجة نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢هـ) والعلامة الحسن بن يوسف بن المطهر (ت ٧٢٦هـ) اللذان أعادا التزواج بين الفلسفة وعلم الكلام بعدما انفصلا في فترة الجمود ممّا أثر على الاتجاه الكلامي في المذاهب الأخرى أيضاً، وأضحت منهجية الطوسي في التجريد هي أساس البحوث الكلامية. حتى أن عضد الدين الإيحي وتلميذه التفتزاني في كتابيهما المواقف والمقاصد نظراً إلى التجريد.

يقول الشهيد مطهري: (وقد أبدع الخواجة نصير الدين الطوسي الحكيم والفيلسوف المتبحر بكتابه «**تجريد الاعتقاد**» النص الكلامي الأكثر إحكاماً وكل متكلم أتى بعده شيعياً كان أم سنياً قد اعتمد هذا المتن. والخواجة نصير الدين قرّب الكلام إلى حدّ كبير من أسلوب الحكمة الجدلية إلى أسلوب الحكمة البرهانية وفي فترات لاحقة فقد الكلام أسلوبه الجدلي كلياً وانضوى تحت لواء الحكمة البرهانية.

والفلاسفة الشيعة المتأخرون عن الخواجة طرحوا المسائل الكلامية الضرورية في الفلسفة وبحثوا فيها وحللوها بالأسلوب والمنهج الفلسفي فوقفوا أكثر من المتكلمين الذين اعتمدوا الأسلوب القديم فصدر

المتألهين أو الحاج السبزواري مثلا ولو أنهما لم يعدّا في زمرة المتكلمين فإن لهما أثراً حضورياً يفوق أي أثر حضوري لأي متكلم[١].

المرحلة الخامسة: الجمود والتقليد.

مع ضعف الأمة الإسلامية وتخليها عن روح البحث والإبداع إلى التقليد والاكتفاء بأتباع السلف واجترار تراثهم وإنشاء الشروح والحواشي على مؤلفات الأولين ومصنفاتهم كان لابدّ أن تتجمد الذهنية الإسلامية عموماً والكلامية خصوصاً رغم الرفض القرآني الحاسم لنزعة التقليد الأعمى والتحجّر على أمجاد الآباء.

قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[٣].

لقد امتدت هذه الحقبة قروناً طويلة استمرت إلى نهاية القرن التاسع عشر ميلادي ومطلع القرن العشرين لقد انقضت قرون عديدة قبل أن يظهر في الإسلام كتاب جديد في علم الكلام ذلك ان المؤلفات في هذا العلم ترجع إلى القرنين الثالث والرابع الهجري وما صنف بعد ذلك لم يكن إلاّ استئنافاً للتي وردت في تلك المؤلفات السابقة[٤].

---

(١) مرتضى مطهري، الكلام والعرفان، ص٥٢.

(٢) البقرة الآية ١٧٠.

(٣) الزخرف الآية ٢٣ _ ٢٤.

(٤) فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩ ص١٩٧.

المرحلة السادسة: الانبعاث وعودة الوعي.

لقد اقترنت دعوات الإصلاح في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بنداء لإحياء الفكر الديني فزعماء الإصلاح أدركوا جيداً أن الجمود العقائدي والتقليد الفكري أحد الأسباب الأساسية لتخلي الأمة عن رياديتها الحضارية للعالم وتخلفها عن ركب الأمم الأخرى.

ويمكن إعتبار الأفغاني وعبده وأمثالهما من رواد هذه المرحلة لأنهم حاولوا نقد الفكر الديني من الداخل وتحليل أبعاد الأزمة، متجاوزين الأطر التقليدية الضيقة في التعاطي مع العقيدة.

وجمال الدين الأفغاني في رسالته «**الردّ على الدهريين**» يقدم الدين في عقائده الأساسية والخصال التي كرّسها كسبيل وحيد لحياة اجتماعية تستند إلى بناء وأساس مدني محكم وأن إنكار الدين لا يقود المجتمع إلاّ إلى الانحلال والضعف ويستقرىء جملة من المجتمعات التي شهدت صعوداً في مرحلة من حياتها لكنها شهدت تقهقراً يرى الأفغاني أن سببه تأثر هذه المجتمعات بالأفكار الدهرية مما هدّ الأسس الإعتقادية التي يبثها الدين في المجتمع وهي الإيمان بان الإنسان ملك على الأرض وأن الأمة التي ينتمي إليها أشرف الأمم.

وبقول: الإيمان بالآخرة وأن هذه الدنيا ليست إلاّ لإستحصال كمالات إلهية أرفع للروح إلى عالم أرفع وأوسع[1].

وفي رسالة التوحيد أبرز الشيخ محمد عبده أبعاداً جديدة للتوحيد

(١) جمال الدين الأفغاني، الردّ على الدهرين، ترجمة الإمام محمد عبده، إسلام العالمية، ص ٣١.

سواء على مستوى تطهير العقول من الأوهام والخرافات أو ضمان حرية الإنسان وتحريره من كل سلطة قائمة.

كما أنه رأى في التوحيد حرباً على التقاليد واقتلاعاً لأصول التقليد كما قرأ فيه معاني التوحيد لصفوف الأمة ولمّ شملها مقابل الشرك الذين يختزن كل معاني التمزق والتفرقة الاجتماعية كما أنه بحث في الرسالة قضايا لها مساس بحياة الفرد والناس فأشار إلى الحاجة إلى الدين ودَفَع شبهات في المقام وتحدث عن إمكان الوحي ووقوعه ورسالة النبي محمد ﷺ وخصائصها وسرّ انتشارها السريع وأجاب عن إشكالية: النهضة الإسلامية في ضوء امتلاك كل مقومات النهوض المتمثلة في الرسالة الإسلامية[١].

من بين الأعمال التي اعتبرت رائدة في هذه المرحلة الأخيرة إحياء الفكر الديني لمحمد إقبال الذي رفع في مقدمته لواء التجديد حيث يقول **«حاولت في هذه المحاضرات.. بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناء جديداً آخر يعني الاعتبار المأخوذ في فلسفة الإسلام إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة»**[٢].

لكن يبدو انه ركز على جانب واحد وهو ما يسميه بالتجربة الدينية والأبعاد النفسية للتدين. ويكون العنوان **«أحياء الفكر الديني»** شعاراً يفتقد إلى مضمون وبرنامج حقيقي شامل للتجدد.

رغم عمق هذه المحاولات وغيرها في قراءة العقيدة الإسلامية في ضوء ثقافة العصر والمستوى الفكري للمرحلة ونتاجها العلمي والنفسي

(١) محمد عبده، رسالة التوحيد، دار أحياء التراث، بيروت.

(٢) محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ١٩٥٥ ص٢.

والفلسفي والخروج من طوق الجمود والتخلف الذي حاصر الفكر الإسلامي قروناً طويلة مكرساً فهم الآباء الذي اكتسب إطلاقاً زمانياً، إلاّ أن هذه المحاولات بقيت قاصرة عن إحداث نقلة حقيقة في منهج علم الكلام إلى أن ظهرت محاولات أخرى تعد حقاً خطوات جبارة على طريق النهضة والتجديد وبرز في هذا الاتجاه أسماء لامعة لعبت دوراً بارزاً على هذا الصعيد منها: السيد محمد حسين الطباطبائي ﰄ والشهيد مرتضى مطهري ﰄ كرائدين مهمين من رواد مرحلة الانبعاث وعودة الوعي.

وبين هؤلاء الرواد يبرز الدكتور علي شريعتي والسيد الشهيد محمد باقر الصدر الذي يلتقي معهم في هذا المضمار لكنه يمتاز بأنه أسس لنقلات منهجية خطيرة خاصة على مستوى نظرية المعرفة حيث أنّه بنى لنفسه نظرية خاصة في المعرفة «المذهب الذاتي» طبقها على العديد من المسائل في علم الكلام في بحوثه المتفرقة وهي مميزة يفتقدها غيره من المجددين.

إن باقر الصدر رغم عدم امتلاكه أثراً متكاملا لتجديد المنهج الكلامي وطرق مسائله وفق منظوره الجديد لكن ما تركه من نتاج عقائدي متناثر في مؤلفاته المختلفة ومحاضراته العديدة يشكل أرضية صلبة لنقد المنهج القديم وصياغة النهج الجديد وقراءة لأصول الدين من وجهة نظر مبتكرة بلحاظ ثقافة العصر وحاجاته وأسئلته واستفساراته.

لقد تحولت لوحة أصول الدين في منهج الصدر إلى نظريات متكاملة في الثورة والتغيير الاجتماعي والقيادة والخلافة والحياة..

هذا ما سيحاول الفصل الثاني والثالث الإجابة عنه إن شاء الله تعالى.



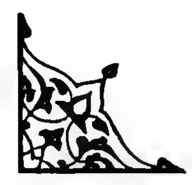
الفصل الثالث

معالم التجديد الكلامي

١_ النقلة المنهجية الأولى.
٢_ النقلة المنهجية الثانية.
٣_ النقلة المنهجية الثالثة.
٤_ النقلة المنهجية الرابعة.
٥_ النقلة المنهجية الخامسة.



معالم التجديد الكلامي



لا يكتفي المجددون الحقيقيون عادة بطرح مفاهيم جديدة وتصورات غير مسبوقة ومضامين مستحدثة وفق ما تحتاجه الساحة الفكرية أو على أساس عملية إستشرافية لمعالم المستقبل وتحديات التقدم الإنساني.

بل إن هؤلاء المجددين يحدثون نقلات منهجية تحقق قفزة نوعية وربما تحدث تحولات معرفية كبرى تمكن الأجيال من النظر إلى المسألة من منظور جديد مختلف عن كل الأساليب التي سلكها الأولون.

إن كبار المجددين من العلماء والفلاسفة في كل ميدان هم الذين استطاعوا فعلا إحداث مناهج جديدة لا الذين أتوا بمعارف مبتكرة فقط.

ففي مجال الفلك ما كان «**لكوبرنيك**» أن يعرف هذه الشهرة لولا القطعية المعرفية التي أحدثها مع النظرية الفلكية القديمة وطرحه رؤية جديدة... و«**ديكارت**» في مجال الفلسفة ما كان ليصبح علماً بارزاً وعلامة لمرحلة جديدة في تاريخ التفكير الفلسفي لو لم يكن صاحب منهج جديد.. وكذلك «**إنشتاين**» في الفيزياء لولا ثورته الكبرى على

فيزياء نيوتن وتأسيسه لنظريته النسبية التي قلبت الفيزياء رأساً على عقب...

وفي هذا السياق وفي مجال البحث العقائدي يتجلى إبداع «**محمد باقر الصدر**» في القدرة على الانتقال بعلم الكلام نقلات منهجية كبرى من شأنها أن تسهم في إرساء أسس جديدة لعلم عقائدي جديد.

لقد التفت إلى هذه القدرة الإبداعية للسيد الصدر «**د. شبلي ملاط**» **في دراسته تجديد الفقه الإسلامي حيث يقول «لقد اكتشفنا في كتابات السيد محمد باقر الصدر وأقواله نظاماً يستمد قوته كما كل النظم لا من الإجابات المحددة القادرة على توفرها وإنما من المجالات التي يفتحها**»[1].

وباستقراء الإنتاج الكلامي والعقائدي للسيد محمد باقر الصدر المبثوث هنا وهناك في أكثر كتبه يمكن أن نستكشف: خمس نقلات منهجية أساسية:

المنهجية الأولى: من المنطق الأرسطي إلى المذهب الذاتي.
المنهجية الثانية: من الاتجاه التجزيئي إلى المنهج الترابطي الموضوعي.
المنهجية الثالثة: من النزعة الثبوتية إلى المنهج التكاملي.
المنهجية الرابعة: من عقيدة الفرد إلى عقيدة المجتمع.
المنهجية الخامسة: من المذهبية الجدلية إلى الإنسانية اليقينية.

(١) شبلي ملاط، تجديد الفقه الإسلامي: محمد باقر الصدر بين النجف وشيعة العالم، ص ٢٥٠.

النقلة المنهجية الأولى:

من منطق أرسطو إلى المذهب الذاتي في كتاب فلسفتنا تبنى السيد الشهيد محمد باقر الصدر النظرية الأرسطية في المعرفة حيث سلّم بالبديهيات الست وضرورة مبدأ العلية ومسألة:

بداهة الواقع الخارجي لكنه لم يكن ليقف في حدود منطق أرسطو الذي حكم إلى حد ما تراثنا الفكري وخاصة الكلامي الذي تأثّر بالمباحث المنطقية والفلسفية إثر ترجمة التراث اليوناني.

واتخذ طابعاً جدلياً وتطرف أحياناً كثيرة في ملاحقة إشكالات الفلسفة والمنطق الأرسطي حتى سقط في التجريد المطلق والبحث عن شبهات افتراضية أكثر منها واقعية لا ثمرة عملية من ورائها.

لكن السيد الشهيد محمد باقر الصدر لم يستسلم للهيبة التاريخية للمنطق الأرسطي رغم كل التعديلات التي أدخلها عليه المفكرون الإسلاميون وقطع مع هذا التراث الطويل بأطروحته المتميزة:

الأسس المنطقية للاستقراء والذي قال عنها باقر الصدر نفسه.. أنها استطاعت أن تملأ فراغاً كبيراً في نظرية المعرفة البشرية لم يستطع الفكر الفلسفي أن يملأه خلال ألفي سنة[1].

ليس كتاب الأسس المنطقية للاستقراء، كما قد يوحي عنوانه دراسة لمشكلة الاستقراء فحسب وحل لقضية التعميم الاستقرائي وإنما هو

---

(١) محمود الهاشمي، بحوث في علم الأصول، المجمع العالمي للشهيد الصدر، مج ٤، ص ١٤٠.

أطروحة لنظرية معرفية جديدة أسماها السيد محمد باقر الصدر:

المذهب الذاتي في المعرفة: إنه مذهب ثالث مقابل المذهب التجريبي والمذهب العقلي ولمعرفة تمايز هذا المذهب لا بأس أن نقارن بين هذا الاتجاه الجديدة وبين هذين المذهبين الكبيرين. وسنحرّر هذه المقارنة في النقاط التالية:

أولاً: تحديد مصدر المعرفة: فالمذهب الذاتي يتفق مع المذهب العقلي حول وجود قضايا وإدراكات قبلية التي تمثل أساساً يقوم عليه البناء الفوقي للمعرفة.

ثانياً: يختلف مع المذهب العقلي في الأساس المنطقي للتعميم الإستقرائي. فالمذهب العقلي يستند في هذا التعميم إلى مبادىء ثلاثة:

المبدأ الأول: السببية.

المبدأ الثاني: عدم تكرّر الصدفة بإستمرار.

المبدأ الثالث: أن الحالات المتشابهة من الطبيعة تؤدي إلى نتائج متماثلة ويعتقد هؤلاء أن هذا المبدأ مستقل عن التجربة ومستقل برهانياً عن مبدأ السببية ومن نقطة الخلاف هذه حول رجوع الاستقراء إلى القياس حسب المنطق العقلي ينطلق باقر الصدر ليشيد نظريته في المعرفة.

ثالثاً: إن المذهب العقلي يؤمن أساساً بالتوالد الموضوعي في المعرفة والقياس هو العمدة في الاستدلال وحتى الاستقراء يرجع في الأخير إلى قياس صغراه الملازمة بين ظاهرتين كما تعكسها ملاحظاتنا وكبراه أن

الصدفة لا تتكرر باستمرار.

والتلازم الموضوعي يعني أنه اعتماداً على التلازم بين قضية وأخرى.

أو بين قضية ومجموعة قضايا أخرى يمكن أن تحصل معرفتنا بتلك القضية من معرفتنا بالقضية أو القضايا التي تستلزمها.

مثال ذلك من قولنا: «**سقراط إنسان**» و«**كل إنسان فان**» نستنتج أن «**سقراط فان**» فهذا توالد موضوعي لأنه ناشيء عن التلازم بين الجانب الموضوعي للمقدمات والجانب الموضوعي للنتيجة. «**فالتوالد الموضوعي هو الأساس في كل استنتاج يقوم على القياس الأرسطي لان النتيجة دائماً ملازمة للمقدمات على أساس التوالد الموضوعي والتلازم بين القضايا المستدل بعضها على البعض الآخر بصورة قياسية**».

أما التوالد الذاتي الذي يعتقد المذهب الذاتي أنها الطريقة التي تحصل بها أكثر معارفنا فهي تؤمن بأنه يمكن أن تنشأ معرفة جديدة انطلاقاً من التلازم بين الجانبين الذاتيين للمقدمات والنتائج دون تلازم في الجانبين الموضوعيين والمقصود من الجانب الذاتي الإدراك.

في حين إن المنطق الأرسطي يعتبر أن هذا التلازم الذاتي دون تلازم في الجانب الموضوعي غير كاف للانتقال إلى النتيجة وهكذا حاول المنطق الأرسطي أن يفسّر كل معارفنا بأنها إما أن تكون أولية أو أنها مستنتجة على أساس التوالد الموضوعي.

أما المذهب الذاتي فيؤمن: بوجود معارف أولية تمثل الجزء العقلي القبلي من المعرفة «**مبدأ عدم التناقض**».

وأن هناك معارف ثانوية مستنتجة على طريقة التوالد الموضوعي «**مثال ذلك نظريات الهندسة التقليدية والمستنتجة من بديهيات تلك الهندسة**» وهناك معارف ثانوية مستنتجة من معارفنا السابقة بطريقة التوالد الذاتي «**التعميمات الاستقرائية**» وهي تهم أكثر معارفنا.

ولا يتوهم أن المذهب الذاتي يتفق كلياً مع المذهب الأرسطي في المعارف القبلية.

إنهما يتفقان من حيث المبدأ والإقرار بوجود هذه المعارف القبلية ولكنهما يختلفان من جهتين:

أ ـ طبيعة المعارف الأولية.
ب ـ ضرورة كونها يقينية.

في الجهة الأولى يناقش السيد محمد باقر الصدر في أطروحته الرائدة (الأسس المنطقية للاستقراء) البديهيات التي آمن بها المنطق الأرسطي والتي أرجعها إلى ست.

يقول السيد الشهيد محمد الصدر «**إن القضايا التجريبية والحدسية والمتواترة والمحسوسة كلها قضايا استقرائية تقوم على أساس تراكم القيم الاحتمالية في محور واحد وتبعاً للمرحلتين التي حددتهما للدليل الاستقرائي**»[1].

---

(١) م. ن، ص ٤٧٠.

ولابدّ من الإشارة هنا أن السيد الصدر يفرق بين الحس الظاهر والحس الباطن ويرى أن قضايا القسم الأخير أولية وما نفى بداهته هو الحس الظاهر: «**ولا شك في أن القضايا المطلوب إثباتها بالحس الباطن أولية لأن الإنسان في هذا القسم من الإدراك الحسي يتصل بصورة مؤكدة بمدلول القضية المطلوب إثباتها بهذا الحس مباشرة وأما القضايا المطلوب إثباتها بالحس الظاهر فهي تختلف عن قضايا الحس الباطن لأننا بالحس الظاهر نريد أن نثبت الواقع الموضوعي أي أن هناك حينما أرى البرق برقاً موضوعياً موجوداً بصورة مستقلة عن إدراكي وهذا لا يكفي فيه الاتصال المباشر بالمحسوس في حالات الحس الظاهر**»[1].

أما القضايا الأولية والفطرية التي تمثّل البقية الباقية على لائحة البديهيات الأرسطية التي يدركها العقل مستقلا عن الحس والتجربة. فإن السيد محمد باقر الصدر وإن كان لا ينكر قبليتها لكنه يثبت أنه بالإمكان الاستدلال عليها بطريقة الاستقراء.

إن السيد محمد باقر الصدر لا يستثني في إمكان الاستدلال استقرائياً على «البديهيات» إلاّ مبدأ عدم التناقض وبديهيات نظرية الاحتمال «**وفيما نؤكد أن بالإمكان تنطبيق الاستدلال الاستقرائي على كل الأوليات الأرسطية إلاّ في حدود هذين الأستثنائين «ما سبق الإشارة إليهما» لا نعني بذلك أن تلك القضايا استقرائية فعلا وليست قبلية وإنما نعني إن بالإمكان نظرياً أن نفسرها على أساس الطريقة التي حدّدناها للاستدلال الاستقرائي ولا ينفي هذا إن تكون قضايا أولية قبلية**»[2].

(١) م. ن، ص٤٥٢.
(٢) م. ن، ص٤٧٢.

وتعليل هذا الاستثناء للمبدأين المشار إليهما يرجع إلى أن مبدأ عدم التناقض لابدّ أن يفترض ثابتاً وإلاّ لما أمكن للطريقة الاستقرائية أن تقوم لها قائمة لأنه لا يمكن حينئذ أن تجمع القيم الاحتمالية على محور واحد لأن هذا المجتمع على محور واحد يعني نفي نقيض كل قيمة احتمالية وهذا لا يتحقق إلاّ إذا قبلنا باستحالة اجتماع النقيضين أما إذا قبلنا باجتماع النقيضين وأنكرنا مبدأ عدم التناقض فلا يمكن تجميع القيم الاحتمالية على محور واحد.

وأما استثناء كل المصادرات التي يحتاجها الدليل الاستقرائي بما فيها بديهيات نظرية الاحتمال فواضح.

رابعاً: إن المذهب الذاتي لا يشترط أن تكون المعرفة الأولية يقينية:

فهو يُرجع بداية المعرفة إلى قسمين:

أولاً: المعرفة التي تفرضها بديهيات نظرية الاحتمال.

ثانياً: نفس الخبرة الحسية بالموضوعات فنحن حين نشاهد سحاباً في السماء تعتبر مشاهدتنا خبرة حسية والسحاب في السماء هو موضوع هذه المشاهدة ومعرفتنا بالمشاهدة نفسها معرفة ابتدائية أولية وليست مستدلة وأما معرفتنا بوجود سحاب في السماء فهي معرفة مستدلة بطريقة استقرائية ومع تمسّك المذهب الذاتي بوجود بداية للمعرفة حتى لا يلزم التراجع إلى ما لا نهاية.

لا يقر بأن تكون هذه البدايات ضرورية ويتصور المذهب الذاتي

المعرفة الأولية احتمالية في مجالين:

المجال الأول: مجال الخبرة الحسية.

المجال الثاني: مجال القضايا العقلية الأولية التي يكون ثبوت المحمول فيها للموضوع ثبوتاً مباشراً دون حدّ أوسط. هذه القضايا التي لا يمكن إثباتها باستنباط عقلي قد تكون متقدمة بدرجة عالية من التصور وكذلك بدرجات أقل «**وما دامت بعض المعارف الأولية بالإمكان أن تحصل بقيم احتمالية في البداية فمن الممكن تنمية هذه القيم الاحتمالية وفقاً لنظرية الاحتمال فكلما وجدت احتمالات تتضمن تلك المعرفة الأولية ازدادت قيمتها الاحتمالية**»[١].

هذا تمام الكلام في تحديد الفوارق بين المذهب العقلي والمذهب الذاتي أما أهم الاختلافات بين الأخير والمذهب التجريبي فهي:

أولاً: إن المذهب الذاتي كما رأينا يؤمن بمعارف عقلية قبلية في حين ينكر التجريبيون كل معرفة غير نابعة من الحس والتجربة فهم يعتقدون أن التجربة هي الأساس العام الوحيد الذي يمون الإنسان أي معارف قبلية بصورة مستقلة عن التجربة وحتى ما يبدو في أعلى درجات التأصل في النفس البشرية قضايا الرياضة والمنطق نظير «١ + ١ = ٢» **يرجع في التحليل إلى التجربة التي عاشها الإنسان على مرّ الزمن**»[٢].

وفي ضوء تلك فان بدايات المعرفة عند التجريبيين جزئية فلا مجال لنلتقي بقضية كلية تتجاوز نطاق الخبرة الحسية المباشرة.

---

(١) م. ن، ص٥٠٤.
(٢) م. ن، ص ٤٨٠.

ويناقش السيد الصدر المذهب التجريبي في قاعدته هذه مناقشة تفضح تهافتها: «**يلاحظ إلى جانب ذلك تهافتاً منطقياً في إيمان التجريبيين بمذهبهم القائل إن التجربة هي المصدر الأساسي لكل المعارف البشرية لأن هذا القول نفسه قضية يعمم فيها الحكم على كل معرفة فهل هذه القضية مستمدة من مصدر قبلي بصورة مستقلة عن التجربة أو أنها مستمدة من التجربة كأي قضية أخرى؟**

فإن افترض المذهب التجريبي أنها مستمدة من مصدر قبلي فقد اعترف على هذا الأساس بكذبها وبوجود معرفة قبلية وان افترض أنها تقوم على أساس التجربة والخبرة الحسية فيجب أن يعترف بأنها قضية محتملة فقط ولا يمكنه أن يؤكدها تأكيداً كاملا لأنه يرى أن أي تعميم لمعطيات الخبرة والتجربة لا يمكن أن يحظى إلاّ بدرجة احتمالية من التصديق وهذا يعني أن التجريبيين يحتملون أن المذهب العقلي على حق»[1].

ولذلك فإن المذهب التجريبي يتحير في ضبط الفوارق بين قضايا العلوم الطبيعية وقضايا الرياضيات ففي النوع الأول لا يستطيع المذهب التجريبي أن يبرّر التعميم الاستقرائي لأنه كما بين الصدر هذا التعميم قائم على أساس مصادرات حساب الاحتمال وهذا ما لا يعترف به المذهب التجريبي.

ومن جهة أخرى: إن أي موقف يتخذه المذهب التجريبي للتمييز بين قضايا الرياضيات والقضايا الطبيعية يكون محرجاً له: فإن أقر بأن هناك فوارق وأن قضايا الرياضة لها امتيازها الخاص وتعيينها فإن هذا لا يمكن التسليم به إلاّ على أساس أنها ليست استقرائية وأنها عقلية قبلية.

---

(١) م. ن، ص٤٩٧.

وإن أنكر التمايز بينها فإن هذا خلاف الوجدان وثبوت الاختلاف بين النوعين من القضايا إذ أن اليقين بالحقيقة الرياضية يصل منذ اللحظة الأولى من إدراكها إلى درجة كبيرة لا يمكن تجاوزها بينما نجد اعتقادنا بالقضايا الطبيعية يزداد باستمرار كلما تظافرت التجارب وأكدت صدق القضية وموضوعيتها[1].

ثانياً: هذا الفارق الأول وأما الفارق الثاني إن قضايا الرياضة والمنطق تبدو يقينية بدرجة لا يمكن أن نتصور إمكان الشك فيها بينما يمكن أن تشك في القضايا الطبيعية مهما كنا متأكدين من صدقها.

ثالثاً: ان قضايا العلوم الطبيعية لا تتجاوز حدود التجربة بمعنى إذا تصورنا عالماً آخر غير عالمنا فان هذه القضايا ليست بالضرورة صادقة هناك.

ولكن القضايا الرياضية والمنطقية تتجاوز كل عالم نتصوره فـ ١ + ١ = ٢ صحيحة في أي عالم نتصوره فالتعميم يتعدى العالم الذي نعيشه.

لما واجه المذهب التجريبي هذه المشكلة «**التفريق بين القضايا الرياضية والقضايا الطبيعية**» اضطر إلى قبول نفي الفوارق وصارت حينئذ المعارف الرياضية احتمالية وثبت بذلك فشل المذهب التجريبي في تفسير المعرفة البشرية.

من هنا حاول المنطق الوضعي تفسير الفروق بين هذين النوعين من القضايا «**الرياضية والطبيعية**» على أساس التفريق بين القضايا الإخبارية والقضايا التكرارية، فالقضية الإخبارية كل قضية تمنحنا علماً جديداً

---

(١) م. ن، ص ٤٨٥.

ويكون وصف الموضوع بوصف ما غير مستبطن في الموضوع نفسه، أما القضية التكرارية فهي القضية التي لا تضيف علماً جديداً بل يكون المحمول تكرار لعناصر الموضوع بعضها أو كلها: وهكذا فالقضايا الرياضية ترجع إلى القضايا التكرارية والقضايا الطبيعية إخبارية. وإن كان الوضعيون ميزوا بين قضايا الرياضة البحتة والقضايا الرياضية التطبيقية من قبل هندسة أقليدس فالأخيرة إخبارية أما الرياضية البحتة فهي تكرارية وكذلك يقينية لأنها خالية عن الإخبار.

وناقش السيد محمد باقر الصدر هذه المحاولة بأن افترض كون القضايا الرياضية البحتة تكرارية كلها لا يكفي لحل المشكلة ولأنه يبقى السؤال قائماً: لماذا اليقين والضرورة في القضايا التكرارية؟

ويركّز السيد الشهيد الصدر على مبدأ عدم التناقض الذي هو أساس الضرورة واليقين في القضايا التكرارية فكيف يفسّر المذهب الوضعي الضرورة واليقين في نفس هذا المبدأ من الطبيعي انه لا يمكن تفسير المبدأ إنه قضية تكرارية لأن المبدأ لا يعبّر عن نفسه بقضية إخبارية فهو يحكم بالاستحالة: «**اجتماع النقيضين مستحيل وهذه الاستحالة لا تستخرج من نفس مفهوم اجتماع النقيضين لأنها ليست من عناصر هذا المفهوم**»[1].

ولم يكتف المذهب الوضعي بالقول بأن التجربة والحس هي المصدر الوحيد للمعرفة بل ذهب إلى أن القضية التي لا تخضع للخبرة الحسية ليست فقط غير ممكنة الإثبات بل هي ليست قضية من الناحية المنطقية فلا يمكن أن توصف بالصدق أو الكذب وعلى هذا الأساس رفض المنطق الوضعي مبدأ السببية وقدم مبرراً منطقياً لذلك باعتبار أنها قضية

(١) م. ن، ص ٤٩٠.

خاوية ولا معنى لها.

ولربط معنى القضية بالخبرة الحسية: أسس المذهب الوضعي ثلاثة مواقف:

الموقف الأول: أن كل مفردة لها مدلولا في خبرتنا الحسية ليس لها معنى.

الموقف الثاني: لابدً أن تكون القضية في صدقها تعطينا خبرة حسية مختلفة عن الخبرة الحسية التي تعطيه كذب القضية.

الموقف الثالث: القضية التي لها معنى هي التي يمكن التحقق من صدقها. فالقضية التي لا يمكن أن نتحقق ونتأكد من صدقها وكذبها ليس لها معنى.

ولقد ناقش السيد الشهيد محمد باقر الصدر الموقف الثاني والثالث بينما تعود مناقشة الموقف الأول إلى نفس مناقشة النظرية التجريبية العامة[١].

هذه أهم المقارنات بين المذهب الذاتي من جهة والمذهب العقلي والتجريبي بما فيها الإتجاه الوضعي.

ومن المهم ونحن نتحدث عن نظرية المذهب الذاتي كنقلة منهجية في المبحث الكلامي أن نشرح بأكثر عمق طريقة التوالد الذاتي للمعرفة.

---

(١) م. ن، من ص ٤٩٥ إلى ص ٤٩٩.

ذكرنا سابقاً أن المذهب الذاتي يرى أن أكثر معارفنا تتوالد بطريقة ذاتية لا موضوعية وهذا التوالد يمرّ بمرحلتين مرحلة موضوعية ومرحلة ذاتية: «**إن كل معرفة ثانوية يحصل عليها العقل على أساس التوالد الذاتي تمر بمرحلتين إذ تبدأ أولا مرحلة التوالد الموضوعي وفي هذه المرحلة تبدأ المعرفة احتمالية وينمو الاحتمال باستمرار ويسير نمو الاحتمال في هذه المرحلة بطريقة التوالد الموضوعي حتى تحظى المعرفة بدرجة كبيرة جداً من الاحتمال غير ان طريقة التوالد الموضوعي تعجز عن تصعيد المعرفة إلى درجة اليقين وحينئذ تبدأ مرحلة التوالد الذاتي لكي تنجز ذلك وترتفع بالمعرفة إلى مستوى اليقين**»[١].

والتعميمات الاستقرائية كلها تمر بهاتين المرحلتين:

المرحلة الأولى: يعتمد فيها المنهج الاستنباطي.

المرحلة الثانية: يعتمد طريقة التوالد الذاتي لتصعيد المعرفة الاستقرائية إلى درجة اليقين. ففي المرحلة الأولى يقوم «**الدليل الاستقرائي**» على أساس التوالد الموضوعي للفكر وتسمى هذه المرحلة بالمرحلة الاستنباطية في الدليل الاستقرائي لأن الدليل في هذه المرحلة يمارس عملية استنباط عقلي وفقاً لقواعد التوالد الموضوعي للفكر التي يحدّدها المنطق الصوري والدليل الاستقرائي في هذه المرحلة ينمي احتمال التعميم الاستقرائي ويصل به إلى أعلى درجة من درجات التصديق الاحتمالي مستنتجاً تلك الدرجة بطريقة استنباطية من المبادىء والبديهيات[٢].

---

(١) م. ن، ص ١٤١.
(٢) م. ن، ص ٢٥١.

ولذلك اعتبر السيد الشهيد محمد باقر الصدر أن درجة احتمال المبرهن عليها في هذه المرحلة قضية مستنبطة ودرس في (الأسس) خطوات هذه المرحلة وشروطها مستدلا على ان التعميم الاستقرائي في هذه المرحلة الأولى لا يحتاج إلى مصادرات إضافية سوى مصادرات نظرية الاحتمال نفسها ويحتاج إلى افتراض عدم وجود مبرر قبلي لرفض علاقة السببية بمفهومها العقلي «استحالة الصدفة» «**وهذا لا يكلف الدليل الاستقرائي أي إثبات مسبقاً لأن الرفض هو الذي يحتاج إلى إثبات وأما عدم الرفض القبلي فيكفي له عدم وجود مبرّر للرفض**»[(١)].

ولأجل ذلك لا يصلح الدليل الاستقرائي في المرحلة الاستنباطية لمن يرفض علاقات السببية بمفهومها العقلي رفضاً كاملا ولا يمكن له أن يفسّر الدليل الاستقرائي في مرحلته الاستنباطية ولذلك يفرق صاحب النظرية بين من يبدأ هذه المرحلة وعند احتمال استحالة الصدفة المطلقة فهذا يمكنه أن يثبت بدرجة كبيرة من الإثبات من هذه الاستحالة بنفس الدليل الاستقرائي خلافاً لمن يبدأ من الاعتقاد بأن كل ما يوجد فهو صدفة ويرفض علاقات السببية بمفهومها العقلي فإنه لا يمكنه أن ينمّي احتمال القانون السببي بالدليل الاستقرائي[(٢)].

ويحلل السيد محمد باقر الصدر كل المبررات التي تقدمها بعض الاتجاهات لرفض مبدأ السببية: المبرر المنطقي للمدرسة الوضعية، والمبرر الفلسفي لدى التجريبيين والمبرر العلمي لدى الفيزيائيين الذريين... الخ.. ويناقش كل هذه المبررات وينفي أي مبرر قبلي لرفض السببية وبالتالي يحافظ على هذا المبدأ.

---

(١) م. ن، ص ٣٠١.
(٢) م. ن، ص ٣٠١.

ولابدَّ من الإشارة إن «**المرحلة الاستنباطية**» لا تنحصر فقط في تعميم ورفع درجات التصديق بشيء نعلم ثبوته من خلال تجربة بل يشمل أيضاً شيئاً مشكوكاً ومحتملا بدرجة محدّدة... إن الدليل الاستقرائي في مرحلته الاستنباطية تارة يواجه شيئاً ثابتاً نعلم بوجوده خلال التجربة فينمي قيمة احتمال سببيته وليطلق عليه اسم «الشكل الأول من الاستدلال الاستقرائي» وأخرى يواجه شيئاً مشكوكاً ومحتملا بدرجة محددة على أساس علم إجمالي قبلي فيتجه إلى تنمية احتمال وجوده على أساس علم إجمالي آخر وتطبيق قاعدة الضرب أو بديهية الحكومة ولنطلق عليه اسم الشكل الثاني من الاستدلال الاستقرائي»[1].

أما المرحلة الثانية: من الدليل الاستقرائي المرحلة الذاتية فإن القضية الأساسية التي تواجهنا كيف يتحول التصديق الإجمالي القوي الذي أدركناه في المرحلة الأولى إلى حالة يقين؟

للإجابة عن هذا التساؤل يميز السيد الصدر بين ثلاثة معان لليقين:

أ- اليقين المنطقي: العلم بقضية معينة والعلم بأنه من المستحيل ألا تكون القضية بالشكل الذي علم.

ب_ اليقين الذاتي: جزم الإنسان بقضية من القضايا بشكل لا يراوده أي شك أو احتمال للخلاف فيها.

وليس من الضروري في اليقين الذاتي أن يستبطن أي فكرة عن استحالة الوضع المخالف لما علم.

(١) م. ن، ص ٣٤٠.

ج ـ اليقين الموضوعي: التصديق بأعلى درجة ممكنة على أن تكون هذه الدرجة متطابقة مع ما تفرضه المبررات الموضوعية.

فالفرق بين اليقين الذاتي والموضوعي:

الأول: هو التصديق بأعلى درجة ممكنة سواء وجدت مبررات لذلك أم لا.

الثاني: فهو أن تصل بك المبررات الموضوعية إلى الجزم.

«فاليقين الموضوعي له طابع موضوعي مستقل عن الحالة النفسية والمحتوى السيكولوجي الذي يعيشه هذا الإنسان أو ذاك فعلا أما اليقين الذاتي فهو يمثّل الجانب السيكولوجي من المعرفة»[1]، واليقين الذي تتكفّل به المرحلة الذاتية هو اليقين الموضوعي. وهذا ما فات بعض الدارسين أن يلتفتوا إليه فالتبس عليهم الأمر فلم يدركوا قيمة المذهب الذاتي وتخيلوا ان المذهب الذاتي يرجع المعرفة إلى سيكولوجية صرفة لا علاقة لها بالمبررات الموضوعية[2] .

مع أن السيد الشهيد باقر الصدر حاول في أكثر من مورد دفع هذا التوهّم ومن بينها هذا المقام الذي أكد فيه أن المرحلة الذاتية تتكفّل إثبات اليقين الموضوعي.

وفي مقام آخر يقول شارحاً طريقة التوالد الذاتي: إنها لا تقوم على أساس التلازم الموضوعي بين القضية المستنتجة التي تمثّل مقدمات لها:

---

(١) م. ن، ص ٣٦٠.
(٢) انظر: الأسس المنطقية للاستقراء ص ١٤٦ - السيد الصدر.

«ولكن هذا لا يعني فسح المجال لاستنتاج أي قضية من أي قضية أخرى على أساس التوالد الذاتي دون تقيد بالتلازم بين القضيتين فنستنتج مثلا إن زيداً قد مات من أن الشمس طالعة وأن حجم الأرض أكبر من حجم القمر من أن الأرض تشتمل على معادن كثيرة فإن هذا يؤدي إلى جعل طريقة التوالد الذاتي مبرراً لأي استدلال خاطىء وليس هذا ما نقصده عندما نقرّر هذه الطريقة إلى جانب طريقة التوالد الموضوعي»[١].

وبذلك يضع السيد الشهيد باقر الصدر يده على سرّ الحاجة إلى المنطق الذاتي لكي نميز بين الشروط التي تجعل طريق التوالد الذاتي معقولة عن غيرها.

كما هو الحال عندما احتجنا إلى المنطق الصوري لنعرف صيغ التلازم بين القضايا التي تجعل طريقة التوالد الموضوعي صحيحة **«أشكال القياس»**.

ولأجل تحقيق اليقين الموضوعي في المرحلة الذاتية لابدّ من مصادرة مؤادها ان هناك درجات من التصديق الموضوعي غير مستنبطة بل بديهية أولية لأنه إذا لم تكن هناك درجات تتمتع بالصحة الموضوعية بصورة مباشرة لا يمكن أن توجد درجات مستنبطة ومن هنا انطلقت الحاجة والبحث نحو صياغة هذه الخطوة التي يحتاجها الدليل الاستقرائي في المرحلة الثانية لكي يبرّر حصول أعلى درجات التصديق الموضوعي وهي الجزم واليقين، هذه المصادرة التي نفسّر بها الدليل الاستقرائي ترتبط بالمعرفة ولا علاقة لها بالواقع الخارجي ولخصها السيد الصدر في قوله: **(كلما تجمع عدد كبير من القيم الاحتمالية في محور واحد**

---

(١) محمد باقر الصدر: الأسس المنطقية للاستقراء، ص ١٤٠.

فحصل هذا المحور نتيجة لذلك على قيمة احتمالية كبيرة فإن هذه القيمة الاحتمالية الكبيرة تتحول ضمن شروط معينة إلى يقين فكأن المعرفة البشرية مصممة بطريقة لا تسمح لها أن تحتفظ بالقيم الاحتمالية الصغيرة جداً فأيّ قيمة احتمالية صغيرة تفنى لحساب القيمة الاحتمالية الكبيرة المقابلة وهذا يعني تحول هذه القيمة إلى يقين، ويؤكد السيد الصدر أن هذا التحول والفناء للقيمة الصغيرة في القيمة الكبيرة وتحول الأخيرة إلى يقين يفرضه التحرك الطبيعي للمعرفة البشرية ولا يمكن تفاديه على خلاف اليقين الناشىء من عوامل نفسية صرفة فقد تتحول بعض القيم الاحتمالية الصغيرة إلى يقين بسبب عوامل نفسية من قبيل التشاؤم والتفاؤل أو غير ذلك فقد يتحول احتمال الوفاة عند شخص مقدم على عملية جراحية إلى يقين بسبب التشاؤم الذي يسيطر على نفسه ولكن هذا اليقين يمكن إزالته إذا تحرر الشخص من نزعته النفسية وحصر اتجاهه في النطاق الفكري فحسب وأما اليقين الذي تفترضه المصادرة فهو يقين لا يتاح إزالته ما دام الإنسان سوياً في تفكيره مهما حصر اتجاهه في النطاق الفكري وتحرّر من العوامل الدخيلة»[1].

هذه باختصار ملامح نظرية المذهب الذاتي في المعرفة مع تحليل لطريقة التوالد الذاتي في المعرفة ولقد بسطنا الكلام فيها حتى نمتلك رؤية واضحة لِما لَهَا من أهمية في النظريات الجديدة للسيد الصدر لا في مجال علم الكلام فحسب والبحث العقائدي بل ان هذه النظرية اعتمدها الصدر في فروع شتى من العلوم الإسلامية كعلم الأصول مثال ذلك تطبيقها في بحثه عن وسائل الإثبات الوجداني للدليل الشرعي حيث يفسّر التواتر والإجماع والشهرة استناداً إلى نظرية المذهب الذاتي وتراكم القيم الاحتمالية على محور واحد.

---

(١) م. ن، ص٣٦٩.

ومن تطبيقات هذه النظرية في علم العقائد نرصد أكثر من مثال كإثبات الصانع بالدليل الاستقرائي، إثبات النبوة، إثبات ولاية «**الإمام علي**» بحساب الاحتمالات في بحث حول الولاية، إثبات إمامة «**المهدي** ﷺ» رغم صغر سنه بتراكم الاحتمالات.. الخ.

النقلة المنهجية الثانية:

من الاتجاه التجزيئي إلى المنحى التوحيدي الموضوعي لم يفتأ السيد محمد باقر الصدر في مواطن عديدة، ينتقد المنهج التجزيئي المعتمد في تحليل القضايا وطرح المسائل حيث أن الرؤية التجزيئية كثيراً ما تجني على الفكرة وتسيء إليها، لأنها تقدمها مشوهة ومنقوصة وأحياناً تحملها ما لا تريده، والمتتبع للتراث الكلامي يلحظ بيسر ما لهذه النزعة التجزيئية في التعامل مع النص من نتائج وخيمة وعلى التفكير العقائدي بسبب النتائج الخاطئة أحياناً وغير الدقيقة أحياناً أخرى التي تؤدّي إليها.

فالنظرة التجزيئية هي التي جعلت بعض الاتجاهات تتجمد في حدود حرفية بعض الآيات لتثبت لله يداً ورجلا ووجهاً، وتنسب له الاستواء على العرض بمعانيها الحقيقية غافلين عن الآيات المحكمة الأخرى والكثيرة التي تنزّه الله عن الجسمية والتشبيه وتجزم أنه «**ليس كمثله شيء**» وأنه «**ولا يحيطون به علماً**».

لقد تغلغلت هذه النزعة وحطمت الوحدة الموضوعية للمقطع القرآني الواحد أحياناً بعزل الآيات عن سياقها فيستشهدون بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[١] لإثبات أن الله خالق أفعال العباد في حين أن الآية

(١) الصافات الآية ٩٦

أجنبية عن هذا المدلول إذ أنها تتحدّث عن الأصنام بما هو عمل من أعمال العباد وفي النهاية هو خلق الله يقول تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[1] ، إن الأمثلة على هذا الاتجاه التجزيئي عديدة جداً... وبمثل هذا الاتجاه تم التعامل مع أصول الدين كمبادىء منفصلة ومستقلة بعضها عن البعض الآخر.

فالتوحيد أصل وحده والنبوة أصل والمعاد أصل.. وغابت الرؤية الترابطية لهذه الأصول والعلاقة فيما بينها.. وغدت هذه الوحدة الموضوعية بين الأصول مسكوت عنها طوال هذا التاريخ العريق لعلم الكلام.

لقد حاول السيد الصدر **«واعتقد انه نجح في محاولته»**، أن يتجاوز هذا الطوق الذهني والقيد الفكري الذي حجب عن المؤمنين اكتشاف العلاقات بين هذه الأصول بل بين مفردات الأصل الواحد نفسه.

تعرض السيد الصدر لمشكلة المنهج التجزيئي وعالجها في معرض محاضراته القرآنية **«المدرسة القرآنية»** عندما نادى بتأسيس **«النهج الموضوعي التوحيدي في التفسير»** مقابل التفسير التجزيئي وهذه المعالجة وإن كانت متصلة مباشرة بميدان التفسير لكن يمكن أن يستفاد منها في المجال العقائدي لأن العقلية التجزيئية واحدة هنا وهناك والمنحى نفسه. وبالتالي فإن تجاوز هذا الاتجاه هناك يعني تجاوزه هنا بالتبع.

إضافة إلى ان النصوص القرآنية تتضمن جملة من أدلة المتكلمين فتنعكس طريقة تعاملهم مع الآيات وآليات تفسيرهم على نتائج بحوثهم

---

(١) الصافات الآية ٩٥ - ٩٦

ولقد ضرب الصدر بالفعل أمثلة من مجال العقيدة للتدليل على أهمية المنهج الموضوعي يقول: «**فالمنهج التجزيئي في التفسير حيث أنه كان يستهدف فهم مدلول «الله» حيث أن فهم مدلول «الله» كان في البداية متيسراً لعدد كبير من الناس ثم بدأ اللفظ يتعقد من حيث المعنى بمرور الزمن وازدياد الفاصل وتراكم القدرات والتجارب وتطور الأحداث والأوضاع من هنا توسع التفسير التجزيئي تبعاً لما اعترض النص القرآني من غموض ومن شك في تحديد مفهوم «الله» حتى تكامل في الطريقة التي نراها في موسوعات التفسير**»[١].

ولم يكن غياب المنهج التوحيدي ظاهرة تمسح كل العلوم، حيث استفادت بعض العلوم من المنهج الموضوعي، «**وأكثر ظني إن الاتجاه التوحيدي والموضوعي في الفقه بامتداده وانتشاره ساعد بدرجة كبيرة على تطوير الفكر الفقهي وإثراء الدراسات العلمية في هذا المجال بقدر ما ساعد انتشار الاتجاه التجزيئي في التفسير على إعاقة الفكر الإسلامي القرآني عن النمو المكتمل وساعد على اكتسابه حالة تشبه الحالات التكرارية حتى تكاد تقول ان قروناً من الزمن متراكمة مرت بعد تفاسير الطبري والرازي والشيخ الطوسي ولم يحقق فيها الفكر الإسلامي مكاسب حقيقية جديدة**»[٢].

إن الاتجاه الموضوعي التوحيدي يمتاز عن نظيره التجزيئي بخصلتين أساسيتين:

أولاً: إن الاتجاه التجزيئي دوره تجاه النص سلبي حيث يبدأ بتناول النص القرآني ويحاول أن يجد مدلول النص فيما يسعفه به اللفظ مع ما

---

(١) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، دار التعارف، ص١٠.
(٢) م. ن، ص١٨.

يتاح له من قرائن متصلة ومنفصلة فدور المفسّر هنا دور المصغي والمتفهم والمتلقي فالقرآن يعطي بمقدار ما يفهم هذا المفسر من مدلول خلافاً لذلك المفسّر الموضوعي التوحيدي فإنه لا يبدأ عمله من النص بل من واقع الحياة يركز نظره على موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل وما قدمه الفكر الإنساني من حلول ما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ ثم يأخذ النص القرآني لا ليتخذ من نفسه بالنسبة إلى النص دور المستمع فحسب بل ليطرح بين يدِي النص موضوعاً جاهزاً ويبدأ مع النص عملية استنطاق وهو يريد من كلّ ذلك اكتشاف موقف القرآن من القضية المطروحة وصياغة النظرية القرآنية حول الموضوع.

ثانياً: إن الاتجاه الموضوعي لا يكتفي بالمدلولات التفصيلية للنص وإنما يسعى جاداً لاكتشاف الرابط الموضوعي التي تشد النص إلى مركب نظري تحتل في حدوده كل واحد من تلك المدلولات التفصيلية موقعها المناسب وهذا ما يُسمى بالنظرية. فالاتجاه الموضوعي هو السبيل للوصول إلى نظريات الإسلام في النبوة وسنن التاريخ والتغير الاجتماعي.. الخ.

وقد يثار في المقام تساؤلٌ حول أهمية هذا المنحى بلحاظ أن رسول الله ﷺ نفسه لم يعط هذه النظريات تفصيلياً وإنما منح للمسلمين نصوصاً وأحكاماً كما هي متناثرة بين أيدينا.

ويرد السيد الصدر عن هذا السؤال بأن الصحابة الكرام وان كانوا لم يتعلموا هذه النظريات تفصيلا ولم يتلقوها كذلك ولكنهم تلقوها إجمالياً وإرتكازياً ورسخت في أفكارهم ووجدانهم كان المناخ العام الإطار الاجتماعي

والروحي والفكري الذي يعتبرونه مساعداً على تفهّم هذه النظريات ولو تفهماً إجمالياً وعلى توليد المقياس الصحيح في مقام التقسيم.

أما حين لا يوجد ذلك المناخ، أما حيث لا يوجد ذلك الإطار إذن تكون الحاجة إلى النظريات يعني الحاجة إلى دراسة نظريات القرآن والإسلام.. خصوصاً مع بروز النظريات الحديثة من خلال التفاعل بين إنسان العالم الإسلامي وإنسان العالم الغربي بكل ما يملك من رصيد عظيم ومن ثقافة متنوعة في مختلف مجالات المعرفة البشرية[١].

إن هذا التفاعل بين الإنسان المسلم والإنسان الغربي جعل المسلمين وجهاً لوجه مع نظريات كثيرة ولكي نحدد موقف الإسلام من هذه النظريات «**كان لابد أن يستنطق نصوص الإسلام ويتوغل في أعماق هذه النصوص لكي يصل إلى مواقف الإسلام الحقيقية**»[٢].

وكتطبيق لهذا المنهج الموضوعي في بحوثه العقائدية يمكن أن نتلمس موارد عديدة لكننا نكتفي بمثالين لهذا التطبيق يتضح من خلالهما الثمرات العلمية والمنهجية الهامة لهذا الطبيق.

المورد الأول: التحليل الموضوعي والقراءة التوحيدية الترابطية لمفردات اللوحة الخماسية لأصول الدين.

المورد الثاني: التحليل الموضوعي الترابطي لحياة الأئمة الإثني عشر.

المورد الأول:

عندما طبق السيد الصدر هذا المنهج الموضوعي تبين أن أصول

---

(١) م. ن، ص٣٦.

(٢) م. ن، ص٣٧.

الدين في وحدتها الترابطية تمثّل رؤية في فلسفة التاريخ وقاعدة لنظام اجتماعي مميز يعتمد صيغة رباعية في العلاقات الاجتماعية عكس كل النظريات الوضعية التي تستند إلى صيغة ثلاثية لقد كشف باقر الصدر عن اللوحة الخماسية «**التوحيد ـ العدل ـ النبوة ـ الإمامة ـ المعاد**» رؤية حضارية تقدمية تختزن داخلها كل مقدّمات الدفع والتحريك والتغيير.

١- «**فالتوحيد**»: يقدم مثلا أعلى مطلقاً هو الله عز وجل وهو اللآمتناهي من جميع الجهات وهذا ما يجعل المسيرة البشرية تصاعداً لا يهدأ ولا يفتر: «**يا أيها الإنسان انك كادح إلى ربك كَدْحاً فملاقيه**» إن عقيدة التوحيد تؤمن بمثل أعلى خارج الساحة التاريخية مما يجعل المسيرة.. في دفع متواصل مستمر وكلما قطعت شوطاً انفتحت أمامها أشواطاً جديدة وهذا هو التغيير الكمي الذي يطرأ على مسيرة البشر باعتناقها التوحيد واتخذها «الله» مثلا أعلى مطلقاً. وهناك أثر آخر هام وهو الأثر الكيفي للتوحيد والمتمثل في حل الجدل الداخلي للإنسان والصراع بين متطلبات ذاته وشهواته وغرائزه وبين ما تستوجبه القيم والتعاليم الدينية فالتوحيد يعطي الرؤية الفكرية والأيديولوجية الواضحة التي تلبّي كل الطموحات وكل الغايات في مثل أعلى.

٢- «**والعدل**»: كصفة من صفات الله.. لها ميزتها الاجتماعية حَيْثُ تساهم بفعالية في توجيه البشرية وحمايتها من السقوط في متاهة الظلم.

٣- «**النبوة**»: توفر قاعدة الاتصال والرابطة الموضوعية بين الإنسان والمثل الأعلى: هذه الصلة التي توجه فيها هذا المثل الأعلى البشرية من خلال أنبيائه ويهديهم إلى سبيل السعادة والرفاه.

٤- «والإمامة» هي الامتداد القيادي للأنبياء في حياة الناس، والحاجة إليهم تنبع من الحاجة في استمرارية رسالة الثورة التي يقوم بها الأنبياء في مجتمعاتهم ولا يستكملونها.

٥- «المعاد»: فهو الركيزة التي تمنح الإنسان الشعور بالمسؤولية والضمانات الموضوعية **«إذن أصول الدين في الحقيقة وبالتعبير التحليلي على ضوء ما ذكرناه هي كلها عناصر تساهم في تركيب هذا المثل الأعلى وفي إعطاء تلك العلاقة الاجتماعية بصيغها القرآنية الرباعية»**[1].

المورد الثاني:

في هذا المجال يطبق السيد الصدر المنهج الموضوعي على حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام فيتجاوز التقليد السائد في دراسة سيرة الأئمة ويسعى لاكتشاف الخيط الرفيع الذي يشدّ حلقات هذا الخط الإلهي الممتد والمستمر في التاريخ لأن المدارس الكلاسيكية تدرس عادة الأئمة بشكل تجزيئي وتفصل مرحلة كل إمام عن الإمام الذي يسبقه والذي يليه ولا تهتم بالأهداف التخطيطية المشتركة التي يلتقي حولها أكثر من إمام ولا تحاول أن تعطي تفسيراً مَنْطقياً لهذا الاختلاف في الأدوار بين الأئمة عليهم السلام ولذلك توحي هذه الدراسات بصورة يمزقها التناقض بين الأئمة أنفسهم فلا نفهم كيف يصالح الإمام الحسن عليه السلام بينما يثور الإمام الحسين ويلجأ الإمام زين العابدين عليه السلام إلى الدعاء بينما يتجه الإمام الباقر عليه السلام والإمام جعفر الصادق عليه السلام إلى الفقه والحديث... **«فإذا قمنا بدراسة أحوال الأئمة، على المستويين «التجزيئي والترابطي» فسوف نواجه على المستوى الأول اختلافاً وتبايناً في السلوك وتناقضاً**

(١) م. ن، ص١٩٩.

من الناحية الشخصية في الأدوار التي مارسها الأئمة عليهم السلام»[١].

وأما على المستوى الثاني وباعتماد النهج الترابطي فانه ستزول كل هذه الاختلافات لأنها تبدو حينئذ مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة تنوعت تمثلاتها وفقاً لاختلاف الظروف والملابسات التي مر بها كل إمام عليه السلام ويستدل السيد الصدر على الدور المشترك بأمرين أساسيين:

الأمر الأول: تكرر ظواهر في حياة الأئمة: يذكر السيد الصدر منها: استشهاد الإمام علي بنصوص الإمامة وتكرر الموقف نفسه من قبل الإمام الحسن والحسين، والباقر عليهم السلام الخ...

الأمر الثاني: عقيدة الإمامة يترقى الصدر أكثر في مجال الاستدلال على الدور المشترك حيث يؤكد أن هذه الفرضية مما تفرضه عقيدة الإمامة وفي عقيدتي أن وجود دور مشترك مارسه الأئمة جميعاً ليس مجرد افتراض يبحث عن مبرراته التاريخية وإنما هو مما تفرضه العقيدة نفسها وفكرة الإمامة بالذات لأن الإمامة واحدة في الجميع بمسؤولياتها وشروطها فيجب أن تنعكس انعكاساً واحداً في شروط الأئمة عليهم السلام وأدوارهم مهما اختلفت أدوارهم الطارئة بسبب الظروف والملابسات ويجب أن يشكل الأئمة بمجموعهم وحدة مترابطة الأجزاء ليواصل كل جزء من تلك الوحدة الدور للجزء الآخر ويكمله[٢].

يمثل هذا الاتجاه الذي يؤسس له السيد الصدر أيضاً ضرورة لتبين الدور الايجابي الرسالي للأئمة عليهم السلام لأن التصور الشائع والسائد أن الأئمة لعبوا دوراً سلبياً في المستوى الرسالي الحركي نتيجة إقصائهم

---

(١) محمد باقر الصدر، أهل البيت: تنوع أدوار ووحدة هدف، دار التعارف، ص١٤١.
(٢) م. ن، ص١٤٢.

عن الحكم ولقد كرست النظرة التجزيئية هذا المعنى في أذهان الناس ولكن المنهج الجديد يكشف عن دورهم الكبير في خط الجهاد والرسالة فالأئمة عليهم السلام بالرغم من إقصائهم عن مجال الحكم كانوا يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها ضد التردي إلى الهاوية هاوية الانحراف والانزلاق عن مبادئها وقيمها فكلما كان الانحراف يقوى ويشتد وينذر بخطر التردي إلى الهاوية كان الأئمة عليهم السلام يتخذون التدابير اللازمة ضد ذلك وكلما وقع في التجربة الإسلامية والعقيدية من محنة ومشكلة وعجزت الزعامات المنحرفة عن علاجها بحكم عدم كفاءتها بادر الأئمة عليهم السلام تقديم الحل ووقاية الأمة من الأخطار التي كانت تهددها[1].

وهناك دور مشترك آخر يشير إليه السيد الصدر: «**هو جانب رعاية الشيعة بوصفهم الكتلة المؤمنة بالإمام عليه السلام والإشراف عليها بوصفها المجموعة المرتبطة به والتخطيط لسلوكها وحياتها وتنمية وعيها وإسعافها بكل الأساليب التي تساعد على صمودها في خضم المحن وارتفاعها إلى مستوى الحاجة الإصلاحية إلى جيش عقائدي وطليعة واعية**»[2].

في ظل هذا الاعتقاد بالدور الايجابي للأئمة عليهم السلام ووحدة هدفهم وتنوع أدوارهم وفق ما تمليه خصوصيات المرحلة الظرفية لكل إمام يطرح السيد الصدر أَدْوَاراً ثلاثة أو مراحل ثلاث لخط الإمامة في التاريخ.

الدور الأول: مرحلة تفادي صدمة الانحراف نتيجة المسار الذي

(١) م. ن، ص١٤٤.
(٢) م. ن، ص١٤٤.

اتخذته الأحداث عقيب وفاة رسول الله محمد ﷺ هذه الصدمة التي تجرع أئمة أهل البيت عليهم السلام مرارتها والتي كادت أن تعصف بالإسلام وأهله لولا الجهود التي بذلها أئمة أهل البيت عليهم السلام خصوصاً الإمام علي عليه السلام لتحصين الأمة والإبقاء على الرسالة نفسها.

يبدأ هذا الدور بعد وفاة الرسول الأعظم ويستمر إلى حياة الإمام الرابع: زين العابدين عليه السلام.

الدور الثاني: بعد أن نجحت «**الإمامة**» في تحقيق الهدف المركزي من الدور الأول وتجاوزت الأمة الخطر الداهم على الرسالة وكل التحصينات ضد صدمة الانحراف تصل النوبة إلى هدف جديد وهو بناء الكتلة الخاصة أي الطليعة الشيعية التي تتمتع بدرجة أعلى من التحصين وتتوفر على عناصر أعمق من الوعي حتى تكون الفئة المتميزة على طريق حفظ الإسلام ومبادئه لقد أدى هذا الدور الإمام الباقر عليه السلام واستمر إلى زمان الإمام الكاظم عليه السلام.

الدور الثالث: ببناء الكتلة الطليعية الواعية والمجاهدة أصبح الأئمة بمقدورهم السعي الحثيث لاستلام السلطة ومن ذلك رهبة وخوف السلطات القائمة من أئمة أهل البيت في المرحلة التاريخية أكثر من أي فترة أخرى. لأنه بدا لهم أن قيادة الأئمة أصبحت على مستوى تسلم زمام الحكم والعودة بالمجتمع الإسلامي إلى حظيرة الإسلام النقي مما صعد من مواجهة السلطة ومحاربتها للأئمة من زمن الكاظم عليه السلام إلى أيام الإمام العسكري والإمام المهدي عجل الله فرجه الذي تواترت عن جده رسول الله ﷺ أخبار تفيد أنه سينتصر على كل الطواغيت ويملأ الأرض قسطاً وعدلا.

هذا الاعتقاد بتكامل أدوار الأئمة عليهم السلام يشكل الوجه الآخر لإيمان السيد الشهيد الصدر بإنبثاق قيادة أهل البيت عليهم السلام من رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنها الامتداد الطبيعي والاستمرار المستقبلي الضروري لولاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحفظ الرسالة والبلوغ بالمسيرة الإسلامية أسمى غاياتها متمثلة في قيام مجتمع الحق والعدل الذي لا يشوبه ظلم ولا انحراف مجتمع يحقق الوعد الإلهي الصادق: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾[١].

النقلة المنهجية الثالثة:

من النزعة الثبوتية إلى الاتجاه التكاملي

ينعت الفكر الديني بالجمود وتحجر آلياته ويتفاخر الفكر المادي بأنه فكر متطوّر يدرس الطبيعة والمجتمع من منظور متحرك يرصد التحولات الحاصلة فلا إيمان بقضية مطلقة إلى الأبد والحقيقة دائماً تتغير وتتبدل.

ولقد أسست لهذا الأمر المادية قوانيناً طبقتها على الطبيعة والتاريخ خاصة المدرسة الماركسية التي طرحت المادية الجدلية (الديالكتيك) لتفسير الطبيعة والمادية التاريخية لفهم التاريخ فالتناقض والجدل هو أساس الحركة والتطور سواء على مستوى المادة أم على مستوى التاريخ.. إن الماركسية تتبجّح أنها حولت الجدل من أسلوب في المناظرة في المنطق القديم إلى منهج في تفسير الأشياء وقراءة الواقع وقانوناً كونياً

(١) النور الآية ٥٥

شاملا قابلا للانطباق على الطبيعة والتاريخ «**فالجدل الجديد عند الديالكتيكيين قانون للفكر والواقع على سواء ولذلك فهو طريقة للتفكير ومبدأ يرتكز عليه الواقع في وجوده وتطوره**»[١].

ويزعم المنطق الجدلي بأن أصحاب المنطق القديم عموماً والالهيين خصوصاً يستندون إلى ثلاثة مبادىء لا أساس لها من الصحة هي مبدأ الهوية ومبدأ عدم التناقض ومبدأ السكون والجمود في الطبيعة الذي يرى الأشياء ساكنة جامدة لا تغير فيها لقد تجاوز المنطق الجدلي هذه الأسس والمبادىء الثلاثة وآمن بمبادىء أربعة أخرى: حركة التطور وتناقضات التطور وقفزات التطور وقانون الارتباط العام[٢].

لقد ناقش الصدر هذه المبادىء الأربعة في المصدر المشار إليه وأكد ان الالهيين لا ينفون الحركة ولا ينظرون إلى الواقع عامة والطبيعة خاصة نظرة ستاتيكية جامدة بل إنهم يؤمنون بالتطور والتكامل وفق قانون الحركة التي هي «**سير تدريجي وتطور للشيء في الدرجات التي تتسع لها امكاناته ولذلك حدد المفهوم الفلسفي للحركة بأنها خروج الشيء من القوة إلى الفعل**»[٣].

وعمقت الفلسفة الإسلامية نظرية الحركة على يد ملا صدرا ﷺ الذي أثبت أن الحركة لا تمس ظواهر الأشياء فحسب بل تمس صميم الطبيعة وجوهر الأشياء وهذه الحركة الجوهرية العميقة هي منشأ كل التغيرات والتبدلات التي تطرأ على الظواهر وهكذا يكشف السيد الصدر أن الماديين في اتهامهم للميتافيزيقيين أو الإلهيين بأنهم يعتقدون جمود

---

(١) محمد باقر الصدر: فلسفتنا، دار التعارف، ص١٩١.

(٢) انظر فلسفتنا من ص١٩٢ إلى ص٢٦٠.

(٣) م. ن، ص٢٠٠.

الطبيعة وسكونها لا مبرر له سوى سوء فهم الماديين الديالكتيكيين للحركة بمعناها الفلسفي الصحيح.

ويفرّق باقر الصدر بين مفهوم الحركة عند الماديين والحركة في الفلسفة الإسلامية ويرجع الاختلاف إلى نقطتين أساسيتين:

النقطة الأولى: إن الديالكتيك يرى أن التناقض مفهوم أساسي للحركة فالصراع بين المتناقضات هو القوة الدافعة للتطور والحركة.

أما في المفهوم الفلسفي الميتافيزقي فان الحركة سير من درجة إلى درجة أعلى مختزنة داخل الشيء نفسه لكنها في حالة كمون.

النقطة الثانية: إن التطور الداخلي للأشياء لا يتوقف «كما رأينا» في حدود الطبيعة وإنما يتعدّى إلى عالم الأفكار والمفاهيم التي يراها التحليل الماركسي انعكاساً للواقع الخارجي فقوانين الديالكتيك هي القوانين العامة للحركة سواء في العالم الخارجي أو في الفكر البشري، وهذا ما لا توافق عليه الفلسفة الميتافيزيقية التي ترفض عموم قانون الحركة للمفاهيم الذهنية لأنها لا يمكن أن تتوفر فيها جميع خصائص الواقع الموضوعي ولا يعني هذا طبعاً «**إن الميتافيزيقيين إذا كانوا مفهوماً عن الطبيعة في مرحلة ما جمدوا أفكارهم وأوقفوا بحوثهم واعتبروا ذلك المفهوم كافياً لاستكشاف أسرار الطبيعة في شتى مراحلها فلا يوجد عاقلا يكتفي مثلا بالمفهوم العلمي الذي يكونه عن البويض فلا يتابع سير الكائن الحي في المرحلة الثانية**»[1].

فالاختلاف أن الفلسفة الميتافيزيقية لا تخلط بين المفهوم الذهني

(١) م. ن، ص ٢١٠.

للشيء والشيء نفسه في الخارج فالأول ثابت والثاني متطور.. ولكن بمقدور الفكر أن يلاحق هذا التطور للوقائع الخارجية بمفاهيم ذهنية جديدة ولا يعني التكامل العلمي في مختلف الفروع تطوراً وجدلا في عالم الفكر كما حاولت أن تثبت ذلك الماركسية لأن الحقيقة أن التطور العلمي لا يعني نمو الحقيقة وتطورها وإنما معناه تكامل العلم أي زيادة حقائقه وقلة أخطائه تبعاً لتطور وسائل البحث والتعمق في التجربة.

إن المفكرين الإسلاميين رغم انتسابهم إلى فلسفة إلهية لا تلغي الحركة وتُقِرَّ بها كمفهوم أساسي للطبيعة وكذلك للفكر بالمعنى التكاملي الذي طرحه باقر الصدر، نراهم يعالجون الظواهر الاجتماعية والمفردات العقائدية خاصة، غافلين عن تكامل هذه المفاهيم فنراهم يسلكون منهجاً ثبوتياً ستاتيكياً في تحليل المسائل العقائدية دون أي نظر إلى تكامل وتطور هذا المفهوم أو المراحل التي قطعها لبلوغ هذه المرتبة كما إنهم لا يلتفتون إلى الاستعدادات التي يختزنها هذا المفهوم والذي يتحرك من خلالها إلى آفاق مستقبلية فلا يحاولون استشرافها.. باستقراء تاريخ التكامل والإحاطة بمنحى التطور..

إن التفكير العقائدي القديم حاول أن يدرس التراث العقائدي والمسائل الكلامية بمنأى عن قانون الحركة والتكامل لذلك فاتته دلالات مركزية هامة ومضامين عميقة لأصول الدين عبر تاريخ علم الكلام غير أن السيد الشهيد الصدرؒ يحدث نقلة نوعية تثور على هذا الإطار الثبوتي السكوني ويعتمد منهجاً ديناميكياً تكاملياً.

ولعل العديد من النتائج الجديدة التي وصل إليها السيد الصدر في جملة من القضايا تعود إلى هذه النقلة المنهجية الهامة:

لقد دَرَس مفكرنا جملة من القضايا العقائدية عبر هذا المنظور التكاملي وأخذ بعين الاعتبار عامل الزمن والتغير الذي يطرأ على نفس المفهوم، فتجاوز الأحكام الإطلاقية والتصورات الثبوتية.

ويمكن أن نعطي لذلك نموذجين من نتاج الشهيد في هذا المضمار:

النموذج الأول: التوحيد وتكامل الوعي التوحيدي في هذا المقام يحلل الصدر التوحيد لا كأصل ثابت وإنما يدخل في حسابه عامل الزمن وتكامل النبوات المبشرة بالتوحيد فيرى أن الوعي التوحيدي بلغ أوجه مع رسالة الإسلام لأن القرآن قد أوصل الفكر الإنساني إلى أعلى درجات التنزيه والتعظيم لله عز وجل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1] ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[2] ، ولم تبلغ الرسالة هذه المرحلة طفرة واحدة وإنما ارتقت بالوعي الديني تدريجياً بواسطة نبوات عديدة لتدرك هذه الدرجة العالية.

يقول السيد الشهيد الصدر: «**إن فكرة التوحيد ليست ذات درجة حدية وإنما هي بنفسها ذات درجات من العمق والأصالة والتركيز والترسيخ فهذه الدرجات متفاوتة كان لابدّ بمقتضى الحكمة الإلهية أن يهيأ لها الإنسان بالتدريج هذا الإنسان الذي غرق بمقتضى تركيبه العضوي والطبيعي في حسه ودنياه بالتدريج لكي ينفتح على فكرة التوحيد التي هي فكرة الغيب**»[3].

(١) الشورى الآية ١١
(٢) الأنعام الآية ٩١
(٣) محمد باقر الصدر: أهل البيت (م. س) ص٣٩.

ويستقرىء السيد الشهيد الصدر هذا التكامل للوعي التوحيدي عبر مقارنة بين أهم دينانتين سابقتين وبين الإسلام فيسجل أن التوحيد في التوراة يعطي فكرة اله لكن لا يستطيع أن ينزع عنه الطابع القومي المحدود وفي الإنجيل صعدت فكرة الله مرتبة وذلك لأنه تخلص من الطابع القومي وأصبح الإله إلهاً عالمياً ولكنه لم يجرد كلية وبقي أسير ذهنية الإنسان الحسية وبهذا يعبّر الإنجيل عن المسيح بأنه ابن الله ـ فالإله هو الأب لكل البشرية..

لكن القرآن يعطي لفكرة التوحيد مداها الأعظم من التنزيه والتجريد فيجرد الله عن أي علاقة مادية مع أي إنسان كان[١].

النموذج الثاني: تكامل النبوات:

إن إشكالية الثابت والمتغير أو الثابت والمتحول تطرح نفسها بقوة لا في المجال الفقهي والتشريعي فقط وإنما تمتد لتفرض نفسها في المجال الفكري والعقائدي حيث يثار التساؤل القديم الجديد: كيف يعالج الدين بصيغته الثابتة وتعاليمه المحدودة المحصورة في صيغ معينة ومفاهيم محدودة وأحكام مخصوصة كل قضايا الإنسان ومشاكله وهمومه وآفاقه على مدى الزمن التي لا يحدها شيء؟ لقد فحص هذه الإشكالية العديد من المفكرين الإسلاميين ولئن تعددت الإجابات إلاّ أنها تلتقي تقريباً حول نفس المبدأ[٢]، وهو أن تكامل الرسالات مهما امتد واستمر لابد أن ينتهي عند نقطة يبلغ معها نهايته ومن المستحيل أن يستمر إلى ما لا نهاية لابدّ أن نصل إلى رسالة خاتمة تختزن داخلها كل المقومات الأساسية لقيادة الإنسان وهدايته وتستوعب كل الحلول لكل

(١) انظر تفاصيل هذا التطور في كتاب: أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف ص٣٩ - ٤٠.

(٢) لاحظ بحث الشهيد مطهري: ختم النبوة.

المشاكل والهموم التي يفرضها التقدم التقني والصناعي والاجتماعي.

لقد أجاب السيد الشهيد باقر الصدر عن السؤال السابق في بحثه (التغير والتجديد في النبوة) فاستعرض عوامل هذا التجديد وهي أربعة أسباب أساسية:

أولاً: أن تكون النبوة قد استنفذت أغراضها واستكملت أهدافها بأن تكون النبوة جاءت وصفة لمرض طارىء في المجتمع الإنساني مرضاً

من الناحية الفكرية أو الروحية أو خللا في النظم الاجتماعية، فحينئذ لا يمكن أن تصلح النبوة كوصفة مؤقتة لكل زمان ومكان مثل ذلك ما يقال عن المسيحية من أنها تحث إلى التركيز على النواحي الروحية نتيجة لإفراط بني إسرائيل في الانغماس في الدنيا.

ثانياً: أن لا يبقى تراث يمكن أن يقوم على أساسه العمل والبناء ويمكن تصور ذلك في فرض موت النبي وتولد ظروف وانحرافات تعصف بالرسالة وتذهب التراث الروحي والمفاهيمي حينذاك تبقى النبوة مجرد مسألة تاريخية ولا يوجد في حياة الناس ما يجسد مفهومها ومنظارها إلى الحياة.

ثالثاً: السبب الثالث لمحدودية الرسالة بأعتبار محدودية النبي نفسه فالأنبياء كغيرهم من البشر غير متساوين في درجات تلقيهم للمعارف الإلهية عن طريق الوحي فبعضهم غير مؤهل لأن يحمل هموم البشرية على الإطلاق في كل زمان ومكان بل هو مؤهل لأن يحمل هموم عصره فقط أو هموم مدينته أو هموم قبيلته فقط.

«فإذا كانت النبوة محدودة بطبيعة هذا النبي كان لابد في خارج

هذه الحدود الزمانية والمكانية من نبوة أخرى تمارس عملها في سبيل الله سبحانه»[١].

رابعاً: تطور البشرية: فان هذا التطور يجعل الرسالة السابقة غير مهيأة لهداية الإنسان الجديد وهنا يؤكد باقر الصدر على مفهوم تكامل الرسالات مصرّحاً بأن كل رسالة تهيء الإنسان لرسالة جديدة فـ «**فالإنسان المدعو يتصاعد بالتدرج لا بالطفرة وينمو على مرّ الزمن في أحضان هذه الرسالات الإلهية فيكتسب من كل رسالة إلهية درجة من النمو تهيئه وتعده لكي يكون على مستوى الرسالة الجديدة وأعبائها الكبيرة مسؤولياتها الأوسع نطاقاً**»[٢].

ويحلّل السيد الشهيد الصدر أبعاد ومستويات التطور البشري فيرجعها إلى ثلاثة أبعاد:

البعد الأول: الوعي التوحيدي.
البعد الثاني: المسؤولية الأخلاقية في تحمل أعباء الرسالة.
البعد الثالث: خط التقدم الفني والتقني والسيطرة على الطبيعة.

وتغير النبوات قانون أو سنة ترتبط بالبعد الأول والثاني ولكنها لا تتأثر بالعنصر الثالث ولا تنفعل به وإلاّ لو كانت متوقفة عليه لكانت النبوة متغيرة ومتجددة بين الحين والآخر خاصة في عصورنا الأخيرة حيث يشهد العالم نقلات سريعة في مجال التقدم العلمي والصناعي.

ولكن لما كانت النبوة مرتبطة فقط بخط الوعي التوحيدي وخط

---

(١) محمد باقر الصدر: أهل البيت (م س)، ص٣٨.
(٢) محمد باقر الصدر: أهل البيت (م س)، ص٣٨.

المسؤولية الأخلاقية ولما بلغ هذان الخطان نهايتهما ختمت النبوة مع رسالة الإسلام التي تمثّل «**رسالة شاملة كاملة عامة للحياة جاءت على أبواب وصول الإنسان إلى رشده الكامل من ناحية استعداده لتقبّل وعي توحيدي صحيح كامل شامل ومن ناحية تحمله لمسؤولية أعباء الدعوة**»[١].

ولقد تصدّى أحد أبرز طلاب السيد الصدر[٢] لتعميق هذا المفهوم «**تكامل النبوات**» وحقب تاريخ الأنبياء وقسمه إلى مراحل عديدة مهدت لبلوغ الإنسانية أوج استعدادها لتلقّي الأطروحة الكاملة والنهائية التي ستطبق في المجتمع العالمي المنشود على يد صاحب العصر والزمان ﷺ.

وطرح أربع مراحل كنسق تكاملي يحكم تطور النبوات:
أ_ النبوات العقائدية.
ب_ النبوات التشريعية.
ج_ النبوات القبلية.
د_ النبوات العالمية[٣].

في التحليل السابق لاحظنا كيف تعامل باقر الصدر مع النبوة في تكاملها الزمني بلحاظ جذورها في التاريخ ويشهد له بحثه حول الولاية تعاملا مع نفس ظاهرة النبوة ولكن هذه المرة في تكاملها وامتدادها في المستقبل حيث اثبت بمنهجية فريدة مبتكرة قائمة على طريقة الاحتمالات ضرورة الولاية كإستمرار لخط النبوة في التاريخ.

---

(١) م. ن، ص٤٣.

(٢) هو السيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر: في موسوعة الإمام المهدي ﷺ الجزء الرابع، اليوم الموعود.

(٣) انظر تفاصيل وخصائص كل مرحلة في كتاب: اليوم الوعود للسيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر من ص٤٢٦ فما فوق.

النقلة المنهجية الرابعة: الأبعاد الاجتماعية للعقيدة:

من عقيدة الفرد إلى عقيدة المجتمع بحكم المهام التي آمن بها المتكلمون وحددوها اصطبغ هذا العلم بصبغة تجريدية تستند على الجدل والتبكيت ومحاولة تبرير التناغم والانسجام بين معطيات العقيدة وضرورات العقل بعيدة نسبياً عن الواقع وعالم الإنسان.

لقد انقلبت وتحولت العلاقة الثنائية بين الإنسان والعقيدة ففيما كانت هذه العلاقة في فجر الرسالة قائمة على اعتبار الوحي في خدمة الإنسان والدفاع عنه وعن قضاياه صار الإنسان في صراع جدلي حول الوحي بعيداً عن طموحاته وأهدافه والبحث الدؤوب عن حلول لِمَشاكل الحياة في مختلف مجالاتها.

هذه الاتجاه عمق من جانب آخر الصبغة الفردية لعلم الكلام حيث تعالج العقيدة كعقيدة فرد وتتعاطى مع قضية المسلم فيما يجب معرفته واعتقاده وتوسّعت هذه النزعة التجريدية بمنأى عن واقع الناس وهموم الجماهير بل استغرقت أكثر فأكثر في عالم خاص من المصطلحات والرموز والصياغات البرهانية.. تضخم مع مرور الأيام..

ليعلن الانفصال عن التحديات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تواجه المسلمين خاصة في عصرنا الحالي.

من هنا كان علم الكلام بحاجة إلى نقلة ثورية تعيده إلى مهمته الأساسية في نحت الإنسان وهدايته انطلاقاً من قاعدة فكرية أساسية لأن العقيدة في قاموس السيد الصدر هي القاعدة المركزية في التفكير الإسلامي التي تحدد نظرة المسلم الرئيسية إلى الكون وهذا لم يغب

عن وعي العديد من زعماء الإصلاح في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حين اتفق هؤلاء حول أعطاء العقيدة عامة والتوحيد خاصة مدلوله الاجتماعي والسياسي في حياة المسلمين حتى ينفضوا عن أنفسهم غبار التخلف ويهبوا مندفعين نحو قيام مجتمع متحضر ومتقدم يحتل مكانة على الأرض بجدارة ولا يرضى بالهوان والضعف[١].

ويلتقي مع هؤلاء بعض المفكرين المحدثين أيضاً: «**لقد أدرك بعض المفكرين المسلمين المحدثين إشكالية علم الكلام هذه فراحوا يبحثون عن علم كلام جديد إن أمكن القول علم للكلام يكون فيه للتوحيد وظائف جديدة ويكون علماً محرراً للإنسان وعلماً خالصاً صافياً من الشوائب والأكدار وان علماً تكون له هذه الخصائص بقادر حقاً على أن يدفع بأصحابه إلى الإمام**»[٢] .

وبقراءة هذه المحاولات الهامة في بناء هذه القواعد الجديدة يبدو مشروع السيد الصدر متميزاً لأنه قام على معالجة أصول الدين معالجة اجتماعية نهضوية تسعى أساساً لتقديم الدين كحل للمشكلة الاجتماعية والتوحيد كبرنامج ثوري ضد الظلم والجهل والانحراف والنبوة كصلة موضوعية بين الله والإنسان تقود زمام هذه الثورة الإلهية وتنتصر لطموحات البشر في الكمال والسعادة، لقد قرأ الصدر هذه الأصول الإعتقادية قراءة مستحدثة مستنيرة لم تفصل الله عن الإنسان والسماء عن الأرض والاعتقاد عن الحياة.. والتصور عن العمل والحركة إن هذه الازدواجية بين الغيب والشهادة بين الأرض والسماء تتهاوى عندما تتحرك عقيدة الأمة في اتجاه إلباس الأرض أطر السماء[٣] وتعميم روح

(١) انظر أمين أحمد: زعماء الإصلاح في العصر الحديث.
(٢) فهمي جدعان: أسس التقدم، (مصدر سابق)، ص١٨٩.
(٣) محمد باقر الصدر: منابع القدرة في الدولة الإسلامية (الإسلام يقود الحياة)، دار التعارف، ص٢٢٨.

المسجد على كل فضاء.

إن هذه النقلة الهامة يتحول معها الدين من شأن فردي وقضية شخصية إلى مشروع مجتمعي ويغدو حينذاك الملاذ الواقعي الصحيح لحل المشكلة الاجتماعية، ولا غرابة ان يعمد السيد الشهيد الصدر لأحداث هذه النقلة إذا التفتنا إلى أن حل المشكلة الاجتماعية كان دائماً هاجسه الكبير لذلك حاول على طول مسيرته العلمية أن يؤسس النظريات الإسلامية التي تقدم حلولا لهذه المشكلة في أبعادها المختلفة: السياسية والاقتصادية والدستورية.. الخ.

لقد كان همه الأكبر الوصول إلى صياغة دقيقة متكاملة للنظام الاجتماعي الأصلح في بحث دؤوب عن الإجابة عن سؤال محوري هام: «**ما هو النظام الذي يصلح للإنسانية وشعوبها في حياتها الاجتماعية ؟**» هذه المشكلة متجذرة في أعماق تاريخ الإنسان لأنها طغت على السطح منذ أن تشعبت النواة الأولى للمجتمع الإنساني وظهر أفراد عديدون تتجاذبهم ميولات مختلفة وطموحات متفاوته وتجمعهم من جهة أخرى هموم مشتركة ومصالح موحدة.

ولكن الإحساس المعاصر بهذه القضية أقوى وأشد لأن الإنسان المعاصر يعي جيداً إن المشكلة هو الذي صنعها ولا تُعرض عليه من فوق إضافة إلى أن التراكم التاريخي للتجارب العديدة والنظم المختلفة والتي باء أغلبها بالفشل عمق في الوعي الإنساني الحاجة إلى التمحيص والتدقيق في المسألة.

لقد أبدع المفكر الإسلامي الكبير السيد الصدر حقاً في مناقشة المدارس الكبرى التي طرحت حلا لهذه المشكلة وخاصة المدرسة

الماركسية والرأسمالية في كتابيه «**فلسفتنا واقتصادنا**» وأبرز فشل هذين المذهبين في تشخيص حقيقة المشكلة وبالتالي في وصف النظام الذي يقود إلى السعادة والكمال والرفاه، إن الخطوة الأولى للوصول إلى النظام الاجتماعي الأصلح:

هي دراسة جوهر المشكلة النابعة من طبيعة الإنسان والتي جبلت على حب الذات والأثرة أقوى الغرائز الإنسانية المؤثرة على المسار الاجتماعي ومن جهة ثانية: ان التواصل الإنساني والعلاقات الاجتماعية يقتضيان التنازل عن جملة من المصالح الفردية ولا تستقيم حياة المجموعة إلاّ من خلال نظم حاكمة تحد من مصالح كل فرد لأجل الصالح العام:

هنا يصطدم النظام الاجتماعي بهذه العقبة: كيف نوفق بين الدوافع الذاتية ومقتضيات الحياة الاجتماعية ؟

سلكت الرأسمالية طريقاً ضحت معه بالمصالح الجماعية من أجل الفرد وسلكت الاشتراكية طريقاً موازياً: قمدت فيه مصالح الجماعة على الفرد وعمقت كل هذه الاتجاهات وغيرها الأزمة الاجتماعية ولم تحلها بسبب تفسيرها المادي للحياة ورؤيتها المحدودة للكون والإنسان ورسالته في الوجود مما جعل الإنسان أسير الحاجات المادية يعيش أزمة عميقة في نفسه نتيجة هذا التمزق الشديد بين الفرد والجماعة.. والانشطار بين المادة التي أوغل في متطلباتها والآفاق الروحية التي... أقصي عنها...

أما السيد الصدر: فهو يبدأ بداية مغايرة: «**أن يطور المفهوم المادي للإنسان عن الحياة وبتطويره تتطور طبيعياً أهدافها ومقايسها**»[1].

---

(١) محمد باقر الصدر، المدرسة الإسلامية، دار الكتاب الإيراني، ص ٨٤

«فالإسلام وضع يده على نقطة الداء الحقيقية في النظام الاجتماعي للديمقراطية وما إليه من أنظمة... فإن نقطة الارتكاز الأساسية لما ضجت به الحياة البشرية من أنواع الشقاء وألوان المآسي هي النظرة المادية إلى الحياة التي يختصرها بعبارة مقتضية في.. افتراض حياة الإنسان في هذه الدنيا في كل ما في الحساب من شيء وإقامة المصلحة الشخصية مقياساً لكل فعالية ونشاط»[1].

فالبشرية بحاجة إلى معين آخر غير التصورات المادية عن الكون التي تسجن الإنسان في سجن الطبيعة وضيق التاريخ، يستقي منه نظامه الاجتماعي بلغة السيد الصدر لابدَّ من **«وعي سياسي صحيح ينبثق عن مفاهيم حقيقية للحياة ويتبنى القضية الإنسانية الكبرى ويسعى إلى تحقيقها على قاعدة تلك المفاهيم»**[2].

فالعقيدة هي القاعدة الفكرية المركزية التي ينبثق عنها هذا النظام العادل الكفيل بتحقيق السعادة المنشودة.

فالإسلام يمنح الإنسان نظرة روحية للحياة ومقياساً خلقياً جديداً يشخص من خلاله: ما يجب وما لا يجب فيخترق بذلك حجب الأنانية والانغلاق على الذات لينفتح على الآخرين وهمومهم ومشاكلهم بل ليقدم مصالحهم على مصالحه وهو بذلك يوفق بين الدوافع الذاتية المركوزة فطرياً في الإنسان وبين مقتضيات الحياة الاجتماعية القائمة على المصالح المشتركة.. إن هذا المقياس الخلقي الجديد تغذيه عقيدة

المعاد والإيمان باليوم الآخر وان الحياة الدنيا شوط عابر نحو الحياة الآخرة الخالدة حين توفى كل نفس ما عملت ولا تظلم مقدار ذرة.

---

(١) م. ن، ص٨٧

(٢) م. ن، ص٨٨

ويشرح السيد الشهيد الصدر مفصلا محاولة التوفيق التي يعتمدها الدين: إن التوفيق الوحيد يحصل بعملية يضمنها الدين للبشرية التائهة وتتخذ العملية أسلوبين:

الأسلوب الأول: هو تركيز التفسير الواقعي للحياة وإشاعة فهمها في لونها الصحيح كمقدمة تمهيدية إلى حياة أخروية يكسب الإنسان فيها من السعادة على مقدار ما يسعى في حياتها المحدودة هذه في سبيل تحصيل رضا الله.

فالمقياس الخلقي أو رضا الله تعالى يضمن المصلحة الشخصية في نفس الوقت الذي يحقق فيه أهدافه الاجتماعية الكبرى.

الأسلوب الثاني: الذي يتخذه الدين للتوفيق بين الدافع الذاتي والقيم أو لمصالح الاجتماعية فهو التعهد بتربية أخلاقية خاصة تعنى بتغذية الإنسان روحياً وتنمية العواطف الإنسانية والمشاعر الخلقية فيه[1].

في ضوء هذه الرسالة الحضارية الهامة للدين يقدم الصدر أخطر تعريف للإسلام ليكشف عن مركزية ومحورية العقيدة: «**وهذا هو الإسلام في أختصر عبارة وأروعها فهو عقيدة معنوية وخلقية ينبثق عنها نظام كامل للإنسانية يرسم لها شوطها الواضح المحدد ويضع لها أهدافاً أعلى في ذلك الشوط ويعرفها على مكاسبها منه**»[2].

هذه الأطروحة للدين في قاعدته العقائدية والمفاهيمية وكيف تمثل حلا للمشكلة الاجتماعية يرتقي بها السيد الصدر ويطورها أكثر في

(١) م. ن، ص ٩١ إلى ٩٣.
(٢) م. ن، ص ٩٧.

«المدرسة القرآنية» حيث يؤصل أكثر فأكثر هذه النظرية في بحث مقارن بين النظرية الاجتماعية الإسلامية والنظريات الوضعية الأخرى حيث تستند الثانية إلى صيغة اجتماعية ثلاثية مقابل الصيغة الاجتماعية الرباعية التي تؤمن بها النظرية الإسلامية:

إن كل المجتمعات تؤمن بوجود عصرين أساسيين:

الإنسان والطبيعة ففي كل مجتمع لابدَّ من إنسان ولابدَّ من أرض وموارد طبيعية ليمارس في ظلها الإنسان دوره الاجتماعي لكن العنصر المرن والمختلف من نظام اجتماعي إلى نظام آخر هو العلاقة الاجتماعية فلكل مجتمع خصوصيات في نسج هذه العلاقة المعنوية بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الإنسان والطبيعة.

هذا العنصر المرن له صيغتان:

ـ صيغة ثلاثية: لأنها تحدد الأطراف في ثلاثة «**الإنسان ـ الطبيعة ـ الإنسان**».
ـ صيغة رباعية: لأنها تؤمن بأربعة أطراف «**والله ـ الإنسان ـ الطبيعة ـ الإنسان**».

ولا يتوهم أن الصيغة الرباعية تمتاز بإضافة عددية لعنصر جديد فحسب بل «**إن هذه الإضافة تحدث تغييراً نوعياً في بنية العلاقة الاجتماعية وفي تركيبة الأطراف الثلاثة الأخرى نفسها من هنا ليس هذا مجرد عملية جمع ثلاثة زائد واحد بل هذا الواحد الذي يضاف إلى الثلاثة سوف يعطي للثلاثة روحاً أخرى ومفهوماً آخر سوف يحدث تغييراً أساسياً في بنية هذه العلاقة... إذ يعود الإنسان**

مع أخيه الإنسان مجرد شريك في حمل هذه الأمانة والاستخلاف وتعود الطبيعة بكل ما فيها من ثروات وبكل من عليها وما عليها مجرد أمانة لابدَّ من رعاية واجبها وأداء حقها»[١].

إن الطرف الرابع مغيّر نوعي لتركيب العلاقة: فتنقلب العلاقة مع الطبيعة من هيمنة واستئثار إلى استخلاف واستئمان وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان من تجاذب استغلالي إلى تكامل وشراكة في المسؤولية والخلافة هذه الصيغة الرباعية هي المدلول الاجتماعي العام للتوحيد والقرآن يقدّمها بما هي سنة تاريخية وقانون عام والعرض القرآني لهذه السنة يتخذ شكلين اثنين تارة يعرضها من زاوية دور الله في الكون بما هي عملية ربانية ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ فتتخذ مفهوم الخلافة وتارة أخرى يعرضها من جهة تقبل الإنسان لها ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾[٢].

«إن هذه العلاقة الاجتماعية ذات الأطراف الأربعة لم تكن لتصبح قانوناً تاريخياً إلاّ لأنها داخلة في تكوين الإنسان في تركيب مسار الإنسان الطبيعي والتاريخي»[٣].

فالله تعالى قد صاغ هذا الإنسان باستعدادات وقابليات وميول منسجمة تماماً مع العلاقة الاجتماعية الرباعية.

وبالتفاتة ذكية رائعة يطابق بين مدلول الآيتين اللتين تحدثنا عن الصيغة الرباعية (الآية: ٣٠ البقرة) و(الآية: ٧٢ الأحزاب)، وبين الآية: ﴿.. فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِينِ حَنِيفاً فِطرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ

(١) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية (م. س)، ص١٣١.
(٢) الأحزاب الآية ٧٢.
(٣) م. س، ص١٣٤.

﴿ذَلِكَ الدِينُ الْقَيِّمُ﴾[١].

فالتعبير بالدين القيم تأكيد على أن ما هو الفطرة وما داخل في تكون الإنسان وتركيبه وفي مسار تاريخه هو الدين القيم يعني أن يكون هذا الدين قيماً على الحياة أن يكون مهيمناً على الحياة هذه القيمومة في الدين هي التعبير المجمل في تلك الآية عن العلاقة الاجتماعية الرباعية التي طرحت في الآيتين في آية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إذن فالدين سنة الحياة والتاريخ والدين هو الدين القيم والدين القيم هو العلاقة الاجتماعية الرباعية الأطراف التي يدخل فيها الله بعداً رابعاً[٢].

ولكننا بحاجة ماسة في إطار النظرية الإسلامية للصيغة الرباعية أن نوضح أكثر فعالية الله في المجتمع والتاريخ حتى ندفع توهّم قد يثيره الخصوم وهو إن هذه الصيغة بإدخالها العنصر الرابع «الله» جل جلاله تلغي دور الإنسان وتفسر كل الظواهر الاجتماعية تفسيراً غيبياً لاهوتياً يعزل هذه الظواهر عن أسبابها وعن القوانين التي تحكمها لتربطها مباشرة بالإرادة الإلهية.. وتقصي نهائياً إرادة الإنسان في التاريخ.. وتسقطنا في حبائل الجبر والصرف.. إن هذا التوهم مدفوع بحزم وقوة... لأن فعالية (الله) في المجتمع والطبيعة والتاريخ لا تعني البتة تحنيط الإنسان وتجميد إرادته...

وعلى مستوى «**الدولة**» لا تخلو العقيدة من مدلولات هامة... ففي رسالة «**منابع القدرة في الدولة الإسلامية**» تحدث السيد الشهيد الصدر عن عطاءات العقيدة في هذا المضمار واعتبر الدولة الإسلامية نموذجاً

---

(١) الروم الآية ٣٠

(٢) م. ن، ص١٣٦.

فريداً لما تمتاز به من خصائص تجعل حركتها الحضارية حركة مستمرة لاستنادها إلى عقيدة توحيدية صلبة.

فالتركيب العقائدي للدولة الإسلامية الذي يقوم على أساس الإيمان بالله وصفاته وتجعل من الله هدفاً للمسيرة وغاية للتحرك الحضاري الصالح على الأرض هو التركيب العقائدي الوحيد الذي يمد الحركة الحضارية للإنسان بوقود لا ينفذ[١].

ان العقيدة الإسلامية تحول عمل المسلم وحركته في ظل المجتمع المسلم والدولة المسلمة إلى عبادة تتهاوى معها الحواجز بين السماء والأرض.. والحياة والغيب ويندمج الإنسان في مسيرة متوازنة بالله نَحوَهُ سبحانه وتعالى.



(١) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، (م. س) ص٢٠٢.

النقلة المنهجية الخامسة: من المذهبية الجدلية إلى الإنسانية اليقينية:

قدم «علم الكلام» في تاريخه الطويل خدمات جليلة للعقيدة الإسلامية في نصرة الدين ودحض الشبهات وتبكيت الخصوم إلاّ انه بقي قاصراً إلى مراحل تاريخية متقدمة ان يتجاوز طابع الجدل الذي انعكس بقوة على مطالب العلم وموضوعاته ومناهجه وآلياته.

إن السمة الجدلية لهذا العلم خاصة في المرحلة الثالثة من تاريخه أفرزت عدة عوائق ساهمت في تعطيل نمو هذا العلم بالشكل المطلوب وحبسته في دائرة ضيقة فأفتقد الحس الموضوعي في عرض آراء الخصوم ومناقشة المذاهب الأخرى وكتب الملل والنحل شاهدة على ذلك بما تعج به من افتراءات واختلاق فرق لا وجود لها إلاّ في مخيلة بعض المصنفين بغية ان تأتي تصنيفاتهم مطابقة لحديث رسول الله ﷺ: «**تنقسم أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة...**».

لقد بلغ التعصب المذهبي الذي غذاه المنحى الجدلي أن تتوسل بعض الفرق بالسلطان للتنكيل بالفرق الأخرى والشواهد التاريخية على ذلك عديدة.

النقلة الهامة والخروج عن دائرة الجدل إلى الصبغة البرهانية كانت أساساً على يد الخواجة (نصير الدين الطوسي) فاتحدت مطالب هذا العلم بالفلسفة والتفكير الفلسفي، «**ويكفي الإشارة هنا إلى أن بدء محاولة شرح موضوعات علم الكلام بالموضوعات الفلسفية كانت على يد أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي... ولكن الرائد الحقيقي لهذا التطبيق هو نصير الدين الطوسي في كتبه الفلسفية والكلامية**

خاصة في كتابه «التجريد» وليس من الإنصاف العلمي ان نجعل هذه المحاولة بدأت مع عضد الدين الإيجبي ونغفل عن الإشارة إلى الرائد الأول لها كما فعل الدكتور إبراهيم مدكور في الفلسفة الإسلامية»[1].

إن الحقبات المظلمة لتاريخ هذا العلم من التحجر والجمود هو مظهر من مظاهر تاريخ المذهبية المغلقة والتعصب المقيت في تراثنا الفكري حيث لا يرى الباحث الحق إلاّ من خلال معتقده ومذهبه ولا يشاهد في الآخر سوى معالم الكفر والزندقة والانحراف فينبري طاعناً في المذاهب الأخرى رافعاً سيف التشهير والتبري.

حتى اشتهر عن الغزالي قوله: «**اعلم ان للفرق في هذا مبالغات وتعصبات انتهى بعض الطوائف إلى تكفير كل فرقة سوى الفرقة التي يعزى إليها**» .

فكلامه ليس بعيداً عن الواقع التاريخي الذي غابت عنه الموضوعية في عرض المذاهب ودراسته الأديان والمدارس الأخرى وبتأمل متفحص في كتب الملل والنحل نلمح بجلاء هذا الجنوح إلى تزكية «**مذهب الأنا**» وإلغاء الآخر ورميه في قاع جهنم موصوفاً بكل النعوت المنفرة: فهذا «**عبد القاهر البغدادي «ت ٤٢٩هـ»** لا يكاد يعرض مذهباً من مذاهب الخصوم على وجهه الصحيح، و«**الشهرستاني نفسه «ت ٥٤٨هـ»** صاحب الملل والنحل رغم ما شرطه على نفسه في مقدمة كتابه «**وشرطت على نفسي أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته في كتبهم من غير تعصب لهم ولا كسر عليهم دون أن أبين صحيحه من فاسده واعين حقه من باطله وان كان لا يخفى على الإفهام**

---

(١) جعفر آل ياسين، الفكر الإسلامي عند العرب، دار المناهل، ١٩٩٣ ص٩٨.

الذكية في مدارج الدلائل العقلية لمحات الحق ونفحات الباطل وبالله التوفيق»[1] ، ولكنه لم يلتزم بما شرطه على نفسه وجاوز حد الموضوعية في كثير من المسائل يقوم عن ذلك أحمد أمين «**ورأيت مؤلفي العرب كالشهرستاني والقفطي وأمثالهما قد خلطوا حقاً وباطلا فكثيراً ما نسبوا القول إلى غير قائله...»**.

لقد بحث كل من ممثلي العلم المللي النحلي الإسلامي ضمن إطار انتمائه الفكري والعقائدي عن الفرقة التي كان بإمكانه أن يقول هنا الحقيقة وان كانت هذه الصياغة ظاهرة مميزة للكتابات الأولى على الأقل في مفاهيمها المباشرة فإنها تعمقت في وقت لاحق إلى الدرجة التي لم يعد الحاسم فيها مفهوم الانتماء المباشر للإسلام فقط بل ومضمون العقائد الإسلامية ذاتها «**فالنوبختي**» الذي لم يشر إلى الحديث «**حديث الفرقة الناجية**» لم يُفته ان يحقق واقع الانقسام القائم في صراع الفرق ودعوى التمثل الإنتمائي للفرق الناجية «**أو أهل السنة والجماعة**» بعبارة «**كل منهم يدعي نفسه جماعة رغم أن واقعهم أو ما ينطبق عليهم ليس معنى الاجتماع بل معنى الافتراق**»[2].

ولم يفلت كذلك «**ابن حزم «ت ٤٥٦هـ» و«الرازي «ت ٦٠٦هـ»** و(الملطي (ت٣٧٧هـ) من هذه الضوابط الصارمة الموغلة في التمذهب والإصرار على تمثيل الجماعة ونصرة اعتقاد أهل السنة والجماعة.

لقد كسرت النقلة من الجدل إلى التفلسف على يد الخواجة إلى حد كبير هذا الطوق ولكنَّ.. النقلة الهامة التي حدثت في تاريخنا المعاصر هي الانتقال من البرهان إلى اليقين هذه النقلة أبدعها باقر الصدر من

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، ص١٦.

(٢) ميثم الجنابي، علم الملل والنحل، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، ص٥٣.

خلال المذهب الذاتي في المعرفة حيث جعل التوالد الذاتي هو الأساس القائم على أساس تراكم الاحتمالات كما جعل اليقين الذاتي هو الأساس في التوالد المعرفي وقنّن هذا التوالد واليقين الذاتي كما شرحنا سابقاً.

إنه اليقين الذي يحصل بتراكم القيم الاحتمالية.. والذي يوجب الاقتناع وفناء القيم الاحتمالية الضعيفة.. هو الطريق الأوسع لأكثر معارفنا..

ولذلك ينفتح الباب واسعاً لأي كان.. للوصول إلى معرفة الله.. وبقية الأصول الإعتقادية.. لن ينغلق الباب تحت أي عنوان فئوي أو مذهبي أو طبقي أنها طريقة معهودة لدى الناس جميعاً فالنهج الاستقرائي قريب إلى أذهان الناس لأنهم عهدوه في تجاربهم الحسية اليومية وعهدته الحضارة الغربية وشادت عليه بنيانها وصرحها العلمي والحضاري ولذلك فانه قريب الروح هذه الحضارة.. التي بلغت ما بلغته من أوج التقدم التقني والقوة المادية والصناعية عبر المنهج العلمي الاستقرائي، إن هذه الحضارة كما سلمت به «المنهج الاستقرائي» في مجال العلم والتكنولوجيا عليها إن تسلم به في مجال الاعتقاد والإيمان بالله..

إن المنهج الذي قاد إلى كل هذا الزخم العلمي والتقني يقود.. بنفس الخطوات إلى الإيمان بالله عز وجل إنه التحدي الكبير الذي يُجابهُ بِهِ السيد الصدر أرباب الحضارة الغربية والاختبار الصعب للضمير الإنسَانيَ الغربي ومصداقيته.. لأنه إن كان حقاً صادقاً لا تمزقه ازدواجية مريضة لماذا لا يسلم بالنتائج على الصعيد الثاني ويلتقي بالغاية المقصودة؟

إن السيد الشهيد محمد باقر الصدر.. بنى بنظريته هذه القاعدة المنهجية المعرفية الصلبة للحوار مع الغرب.. وهذه القاعدة تمثّل حاجة ماسة

خاصة في ظل الدعوات الملحة والمتكررة لحوار الحضارات.. ليكون حواراً مرتكزاً على أسس علمية ولا يتحرك في فراغ.. إن المذهب الذاتي للمعرفة يمكن أن يشكل الإطار المعرفي لهذا الحوار وبالتالي يقرب الهوّة بين الشرق والغرب ليلتقيا على كلمة سواء **«معرفة الله»**.

وفي الوقت الذي يعلن الغرب فيه موت الإنسان يعمّق ويؤصل مفكرنا العظيم **«نظرية الإنسان»** ويقدّم بحوث العقيدة على أنها نظرية للإنسان والحياة.. وطريق الخلاص.

أي الوقت الذي ينظر فيه الغرب لموت الإنسان وضياع المعنى.. وتلاشي القيم يعلن باقر الصدر قيام الإنسان وانتصار القيم وحتمية الخلاص.. الخلاص للأرض وللبشرية جمعاء.. لان الإسلام في حله للمشكلة الاجتماعية وفي أطروحاته العقائدية والفكرية لا يفرق بين إنسان وإنسان.. إنه يحمل حلم البشرية وهمومها.. بدون انغلاق على فئة أو عرق أو مذهب: وهذا ديدن السيد الصدر في مسيرته العلمية وجهوده الجبارة في صياغة النظرية الإسلامية.

انه يحمل هموم الإنسان.. ويقترح حلا اجتماعياً للإنسان.. ويقدم منهجاً معرفياً لكل إنسان.. يمكن أن يوصله إلي الرؤية الكونية التوحيدية وهو عندما يناقش المدارس والمذاهب الأخرى، ولقد بارز أهم التيارات الفكرية المعاصرة يناقشها بكل موضوعية وتجرد.. متنزهاً عن كل تعصب أو افتراء حتى إن أصحاب هذه الاتجاهات يقرون بأن عَرْضَهُ لأطروحاتهم بلغت من النزاهة ما يفوق التصور.

لقد تجاوز السيد الصدر أطر التاريخ الغارقة في الجدل.. ليدخل في حوار إنساني مفتوح يستهدف بناء المنهج الصحيح والاقتناع بالحل

الأمثل.

ومن الغريب حقاً أن يرمي «**فهمي جدعان**» رموز الفكر الإسلامي المعاصر بأنهم لم يرصدوا التحولات العلمية والفلسفية الحديثة في معرض إثبات التوحيد يقول: «**لكن مشكلة رواد هذا التطور انهم لم يتابعوا بالجدية الكافية سير العلم الحديث والفلسفة الحديثة وتطوراتهما من أجل تأسيس المبدأ نفسه مبدأ التوحيد فهم قد ظلوا في الغالب الأعم يدورون حول حلقة الأدلة القديمة التي لم تعد تعني في الواقع شيئاً ذا بال في عالم بات يلزم أهله بإعادة النظر في أنماط المعرفة والعقل الموروث كله**»[1].

إن تغييب السيد الشهيد الصدر وأمثاله كرواد الفكر الإسلامي مثل الشهيد مطهري والسيد الطباطبائي.. هو الذي أوقع الجدعان في الوهم.. وإلا فان إطلاله على إنتاج هؤلاء الفلاسفة وعلى نتاج الصدر خاصة «**فلسفتنا واقتصادنا والأسس المنطقية**» كافية للكشف عن باع هؤلاء عامة والسيد الصدر خاصة في مقارعة الفلسفة الحديثة والنظريات العلمية الجديدة واستفادتهم من هذه الثقافة المعاصرة في تأصيل النظرية الإسلامية وتشييد أركانها.

هذه هي النزعة الموضوعية الإنسانية.. التي تستهدف اليقين والإقناع وتتعالى عن الجدل والتمذهب يكرّسها السيد الشهيد الصدر أيضاً في حواره مع الاتجاهات الأخرى داخل الفكر الإسلامي..

فرغم تعاطيه مع أكثر المسائل حساسية في تاريخنا الإسلامي «**خلافة رسول الله** ﷺ **ومسألة ولاية الإمام علي** عليه السلام **وقضية فدك.. ودور**

(١) فهمي جدعان: أسس التقدم، (م. س)، ص٥٤٤.

الأئمة في التاريخ ومسألة الإمام المهدي عليه السلام..

ورغم النفس المذهبي الطاغي في التعامل مع مثل هذه القضايا.. إلاّ أن باقر الصدر استطاع أن يبحث هذه المسائل بأسلوب علمي رصين استفاد فيه من الآليات والتحولات المنهجية التي ابتكرها.. وإدرك نتائج هامة.. لا تزال مثار بحث وتحليل العديد من الدراسات.

لقد انطبع خطابه السياسي أيضاً بهذه السمة حيث حرص أن يكون رمزاً.. لكل المسلمين في العراق[1]..

بل لكل العراقيين حتى وصفته الصحافة البريطانية في السنوات الآخرة بأنه كان مؤهلا ليجسد مانديلا العراق[2].



(١) انظر النداءات الثلاثة الأخيرة.

(٢) الفينانشال تايمس: ١٢ آذار ١٩٩٧ مقالة للصحفي الشهير أدورد مورنمر عن محمد باقر الصدر (الرجل الذي كان من الممكن أن يكون مانديلا العراق) (نقلا عن تجديد الفقه الإسلامي لشبلي ملاط ص١١).

صوت العقل والحكمة:

نحن المسلمين ما أحوجنا اليوم إلى أصوات العقل والحكمة والتدبير لا أصوات التطرف والغلو والتكفير.

في هذا الوقت العصيب والمتأزم الذي تشهده الساحة الإسلامية فيما هو أشبه بالحرب الأهلية بحسب الواقعيين، أو مقدماتها بحسب المتفائلين، حيث الإصطفافات الطائفية تتعمق يوماً بعد يوم، ويتصاعد التهجير على أساس طائفي، ويكثر القتل على أساس مذهبي، تضيع في ظل هذه الأجواء المتأزمة أصوات العقل والحكمة والتدبير، علماً الساحة الإسلامية أحوج ما يكون إلى هذه الأصوات في هذه المحنة التي تكاد تعصف بالساحة الإسلامية.

وفي هذه الأجواء المشحونة حيث الطائفية والمشاعر المذهبية تعلو فوق صوت العقل والحكم، حيث أصوات المتطرفين لدى بعض الأطراف والاتجاهات تحجب كل موقف عاقل ومعتدل.

ما أحوج الساحة الإسلامية الى صوت كصوت المفكر الإسلامي الكبير آية الله السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره، المرجع الشيعي وأحد أهم رواد الفكر والإصلاح في القرن العشرين، الذي كان رمزاً

للوحدة الوطنية، فكتاباته ومواقفه كانت تنم عن حرص شديد على الوحدة بين كل مكونات الشعب العراقي والأمة الإسلامية من دون تفريق على أساس عرقي أو مذهبي.

إذ يقول سماحة السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره: «**يا أبناء علي والحسين وأبناء أبي بكر وعمر، إن الحكم الذي مثله الخلفاء الراشدون والذي كان يقوم على أساس الإسلام والعدل حمل عليّ السيف للدفاع عنه، إذ حارب جندياً في حروب الردة تحت لواء الخليفة الأول أبي بكر**»[1].

ثم يستطرد السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره في البيان نفسه شارحاً وقوف الشيعة الى جنب إخوانهم أهل السنة ضد الاستعمار البريطاني آنذاك، والجهاد معاً ضد الظلم والجور من دون النظر إلى القيادة من حيث لونها المذهبي، واستعداد السيد الصدر نفسه لتكرار ذلك من أجل الدين الإسلامي والمبادىء والقيم، حيث يقول قدس سره: «**كلنا نحارب عن راية الإسلام وتحت راية الإسلام مهما كان لونها المذهبي، وإن الحكم السني الذي كان يحمل راية الإسلام، قد أفتى علماء الشيعة خلال الحرب العالمية الأولى بوجوب الجهاد من أجله وخرج الآلاف من الشيعة وبذلوا دمهم رخيصاً من أجل الحفاظ على راية الإسلام ومن أجل حماية الحكم السني الذي كان يقوم على أساس**

(١) نداء السيد الشهيد في الثالث من شعبان ١٣٩٩ هجرية (١٩٧٩ م) الى الشعب العراقي.

الدين الإسلامي الحنيف»[١].

والسيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره بمواقفه هذه إنما يسترشد بمواقف جده أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام ورؤيته للصحابة الأجلاء حيث يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: **«إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد...**

وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار.

فإن إجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى .

فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه.

فإن أبى قاتلوه على إتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى»[٢].

فالسيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره ينظر بإكبار إلى الصحابة، فهم بنظره أعظم جيل عرفته البشرية حيث أنشأه رسول الله محمد صلى الله عليه وآله بنفسه، إذ يقول سماحته: **«إن الصحابة بوصفهم الطليعة المؤمنة والمستنيرة كانوا أفضل وأوسع بذرة لتنشئة جيل رسالي، حتى إن تاريخ الإنسان لم يشهد جيلاً عقائدياً أروع وأطهر من الجيل الذي أنشأه**

---

(١) المصدر نفسه

(٢) نهج البلاغة خطبة ٥٤

الرسول القائد»[١].

وهنا أيضاً يسترشد السيد الشهيد الصدر قدس سره بمواقف جده أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام كما جاء عنه في نهج البلاغة: **«لقد رأيت أصحاب محمد فما أرى أحداً يشبهه منكم!**

لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم كأن بين أعينهم ركب المعزي من طول سجودهمَ! إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبلّ جيوبهم ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب ورجاءاً للثواب»[٢].

فهل يرى منصف وصفاً عظيماً للصحابة الأجلاء بهذه الدقة في علاقاتهم مع الله وتعلقهم بالآخرة وتقواهم وإخلاصهم؟

كما يتحدث أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام عن شوقه إلى من ذهب منهم قائلاً: **«أولئك أخواني الذاهبون فحق علينا أن نظمأ إليهم ونعض الأيدي على فراقهم»**[٣].

وقد ورد في نهج البلاغة في مدح أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام

(١) ندوة حول الخلافة في الإسلام - السيد الشهيد في ٢٥/ ٦/١٩٧٧

(٢) نهج البلاغة خطبة ٣٤

(٣) نهج البلاغة خطبة ٢٣

لأحد الصحابة قائلاً: **«لله بلاؤه فلقد قوم الأود وداوى العمد وأقام السنة وخلف الفتنة، ذهب نقي الثواب قليل العيب، أصاب خيرها وسبق شرها، أدى إلى الله طاعته واتقاه بحقه، رحل وتركهم في طرق متشعبة لا يهتدي بها الضال ولا يستفين المهتدي»**[1].

ويذكر السيد الشهيد محمد باقر الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ علاقة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع الأمة فيقول: **«حتى أن التاريخ سجل لنا أن شخصاً أجاب الخليفة عمر حين صعد المنبر قائلاً: لو صرفناكم عما تعرفون إلى ما تنكرون، ما كنتم صانعين؟**

فقال الشخص: إذن كنا نستتيبك، فإن تبت قبلناك.

فقال الخليفة عمر: الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من إذا أعوججنا أقام أودنا»[2].

وكان السيد الشهيد محمد باقر الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ يرى أن المسلمين جميعاً يتجهون إلى كعبة واحدة ونبي واحد هو رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويؤمنون جميعاً بالصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة، وان أكرمهم عند الله أتقاهم.

وأما الإختلافات الفقهية اليسيرة كالتكتف والإسبال لا تنسد في

---

(١) نهج البلاغة خطبة ٦٤

(٢) ندوة حول الخلافة في الإسلام - السيد الشهيد في ٢٥/ ١٩٧٧/٦- فضائل الصحابة

الود قضية فإن المذهب المالكي يسبل أيضاً وهكذا بحث أحد العلماء السابقين في ما ادعى إنفراد الإمامية بمسائل فقهية معينة ليجد موافقاً لها من أحد مذاهب المسلمين الأخرى ووجد الخلافات بين المذاهب السنية أنفسها كالشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي لا تقل عنها مع الإمامية.

لكن المؤسف والمؤلم حقاً أنه قد راجت في الحقبة الأخيرة أفكار تدّعي الإسلام تكفر الآخر المختلف فكرياً أو مذهبياً حتى ولو كان مسلماً، ونحن على رغم خطورة هذا الفكر التكفيري الذي بدأ يغزوا الساحة الإسلامية من جديد قادماً من الغرب الملحد ليطرح ثقافة غريبة عن مبادئنا وقيمنا الإسلامية السامية والذي عرفته كل البلاد العربية والإسلامية بالتعايش والتسامح والمحبة والإنصهار بين المذاهب الإسلامية إلى درجة التزاوج.

فثقافة التكفير على أساس الفكر خطيرة جداً ولها عواقب وخيمة تنال بنارها جميع الأطراف، وهي إذا تحتاج إلى صوت عال كصوت الإمام علي عليه السلام الذي صرخ بأحد الخوارج قائلاً: **«من علمكم قتل الناس على أرائهم.. ليجيبه الخارجي: إني لا أرى ما تقول ولا أصلي خلفك..**

فيقول الإمام عليه السلام: **لك كل ذلك.. ثم يزيده الإمام ويعلمه: بل ولك أكثر من ذلك..**

ثم يستأنف الإمام بحدود ذلك قائلاً: ولكن بين وبينك ظلم الناس»[١].

يعني ما لم يتجاوز على الآخرين أو يظلمهم فله الحقوق التي يؤمنها الإمام له ويعلمه أكثر مما يعلم ولكن علياً لا يسمح بظلم الناس .

هذا هو معيار عظيم يوصي به أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام أولاده سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين عليهما السلام فيقول: **«كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»**[٢].

فالغلوا والتطرف والتكفير ليست من شيم الإسلام والمسلمين، وأن ثقافة الحب والإتحاد والسلام خير من ثقافة البغض والتفرقة والعداء، وعلينا الوعي لمبادىء الرسالة المحمدية الإسلامية الحنيفة وأهدافها النبيلة، حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٣].

فلم يقل للمسلمين أو المؤمنين أو الموحدين بل العالمين جميعاً.

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُم فَاتَّقُونِ﴾[٤].

---

(١) نهج البلاغة خطبة ٦٤
(٢) نهج البلاغة خطبة ٥٥
(٣) سوؤة التوبة الآية ١٠٧
(٤) سوؤة المؤمنون الآية ٥٢

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾[1].

أليس من الحكمة إذاً، أن يتحرك الواعون الحكماء العقلاء لدفن الفتنة، ومنع عمليات القتل على أساس مذهبي أو ديني، وإيقاف حملات التهجير المذهبي؟

إذ لن يستفيد أبناء الدول الإسلامية والعربية من هذه الشناعات والتناحر بين السنة والشيعة أبداً، في ما المستفيد الوحيد هم أعداء الإسلام الذين يريدون تدميره وإضعاف وجوده عبر إفراغه من محتواه وكل ذلك في ضمن حلقات أخرى كثيرة خطيرة يفهما الواعي وهدفها الأساس أبناء الدين المحمدي الأصيل.



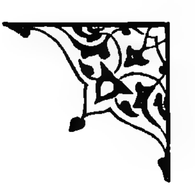
(١) سوؤة آل عمران الآية ١٠٣



الفصل الرابع

المضامين الجديدة في ضوء المنهج الجديد.

الأصل الأول: التوحيد.
الأصل الثاني: العدل.
الأصل الثالث: النبوة الخاصة.
الأصل الرابع: الإمامة.
الأصل الخامس: الميعاد.



المضامين الجديدة في ضوء المنهج الجديد

كان لابد لعلم الكلام أن يتجدد لا في آليات البحث فقط وإنما في المضامين والمفاهيم حتى انه يمكن القول أن «العقيدة» أضحت في تعريفها كنظرية للإنسان والحياة والثورة أقرب ما تكون من قاعدة للنهضة والتقدم والتغيير.

ولكن كيف أن ندرس المضامين الجدية والمفاهيم الناتجة عن المنهج المبتكر؟

خاصة وأن العقيدة في ضوء هذا المنظور الجديد تتقاطع مع الرؤية الكونية وفلسفة الدين وفلسفة التاريخ والنظام الاجتماعي.

إن دراسة هذه المضامين خارج الإطار الكلاسيكي «التقسيم الخماسي» يجعلنا نواجه صعوبات ما.. أدناها انه لن تتضح العلاقات بين المطالبِ العقائدية والمجالات الأخرى.. خاصة في ظل العقلية القديمة التي تشكلت عبر قرون عديدة ورؤيتها المسبقة لأصول الدين في تعيناتها الثابتة، في حين أن المشروع الفكري العام لباقر الصدر يستند إلى حلقات

متلاحقة ومتراصة تحتل فيها العقيدة «الرؤية الكونية» إلى جانب نظرية المعرفة الأسس الجذرية للبناء الفكري العام في شتى ميادين الحياة «اجتماع، سياسة، اقتصاد... الخ...».

لأجل ذلك حافظنا على الإطار القديم للتصنيف المعروف في أصول الدين «اللوحة الخماسية» وهذا سيساعد على تلمس معالم التجديد العميق الذي أحدثه السيد الصدر في مستوى المفاهيم والمضامين والتي لا تقل أهمية التجديد في مجالها عن التجديد في المناهج والآليات.

لأن السيد باقر الصدر يولي دائماً المفاهيم أهمية خاصة.. ويعتبرها قاعدة السلوك والخط الذي يختاره ويشقه الإنسان في الحياة.

لقد ضح هذا الأمر في معرض بحثه عن «الاقتصاد الإسلامي جزء من كل» وتحليله لعناصر الأرضية للمجتمع الإسلامي وهي:

أولاً: العقيدة: وهي القاعدة المركزية في التفكير الإسلامي التي تحدد نظرة المسلم الرئيسية إلى الكون بصورة عامة.

ثانياً: المفاهيم التي تعكس وجهة نظر الإسلام في تفسير الأشياء على ضوء النظرة العامة التي تبلورها العقيدة.

ثالثاً: العواطف والأحاسيس التي يتبنى الإسلام بثها وتنميتها إلى جانب تلك المفاهيم لأن المفهوم بصفته فكرة إسلامية عن واقع معين يفجر في نفس المسلم شعوراً خاصاً تجاه ذلك الواقع ويحدّد اتجاهه العاطفي نحوه. فالعواطف الإسلامية وليدة المفاهيم الإسلامية والمفاهيم

الإسلامية بدورها موضوعة في ضوء العقيدة الإسلامية الأساسية[١].

فَمَا هي المفاهيم والمضامين الفكرية والحضارية لأصول الدين؟

الأصل الأول: التوحيد:

أدرك القدماء أهمية التوحيد ومحوريته لكل الأصول الأخرى فسمّوه: أصل الأصول.

وأطلق على العقائد اسم «علم التوحيد» لأن الأصول الأخرى متوقفة عليه.

وعرّف بعضهم علم الكلام بأنه العلم الذي يبحث عن ذات الله وصفاته وأفعاله.

ويندرج تحت أفعاله: النبوة والإمامة والمعاد لأنها تمثّل تجليات الفعل الإلهي في الكون والحياة وما بعد الحياة.

يلتقي السيد الصدر مع رؤية القدماء حول مركزية التوحيد ويفجر في كتاباته مفاهيم عديدة وتصورات مستجدة تواكب المعركة التي يعيشها الإسلام في عصره الحالي ولحظته التاريخية كما أنه استدل على هذا الأصل بأدلة مبتكرة.. أسست أو على الأقل ساهمت في تأسيس أسلوب جديد في إثبات الصانع: ويمكن أن نختار القضايا التالية كعنوان للتجديد في مستوى هذا الأصل وكميزان للوعي التوحيدي ومداه الذي

(١) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، (م. س) ص ٣١٠.

بلغه في هذه البحوث:

أولاً: الإيمان بالله وأدلة إثبات الصانع:

يعتبر السيد الشهيد الصدر الإيمان بالله ترجمان لنزوع أصيل في الإنسان إلى التعلق بخالقه ولسان وجدان راسخ يدرك فطرته علاقة الإنسان بربه وكونه، فالتدين والاعتقاد بالخالق توصل إليه الإنسان منذ أمد قبل أن يصل إلى مرحلة التجريد الفكري «**فقد توصل الإنسان إلى الإيمان بالله منذ أبعد الأزمان وعبده وأخلص له وأحس بارتباط عميق به قبل أن يصل إلى أي مرحلة من التجريد الفكري الفلسفي أو الفهم المكتمل لأساليب الاستدلال**»[١].

إن هذا الإيمان لم يكن وليد التناقض الطبقي ونابع من مستغلين ظالمين كرّسوا الدين حفاظاً على مصالحهم ومناصبهم في المجتمع.

ولم يكن هذا الإيمان وليد خوف أو شعور بالرعب تجاه الظواهر الطبيعية أو كوارثها المدمرة لأنه لو كان الأمر كذلك لكان أكثر المتدينين هم اشد الناس خوفاً وأسرعهم هلعاً ولكن تاريخ الأديان يعكس أن الذين حملوا مشعل مسؤوليته على مر التاريخ من أقوى الناس وأصلبهم عوداً، لقد السيد الصدر في كتابه اقتصادنا النظرية الماركسية في تفسيرها لظاهر الدين وحلل جذور هذه التفسيرات المادية حيث إن الماركسية «**وقد استبعدت عن تصميمها المذهبي كل حقائق الدين الموضوعية من الوحي والنبوة والصانع فكان لابدّ أن تصطنع للدين وتطوراته تفسيراً مادياً**»[٢].

---

(١) محمد باقر الصدر: الفتاوى الواضحة، دار التعارف، الطبعة الثامنة، ص١١.
(٢) محمد باقر الصدر: اقتصادنا، (م. س) ص١١٢.

لقد بحثت الماركسية عن الظاهرة الدينية في الوضع الاقتصادي للمجتمع ولكن السيد باقر الصدر يناقش كل الفروض التي تتمسك بها الماركسية في هذا المجال(١) ويؤكد بالمقابل على سننية الدين وانه قانون في التاريخ ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾(٢).

ويصف هذا القانون أو هذه السنة في القسم الثابت من سنن التاريخ التي تقبل التحدي، السنن ذات الاتجاه العام التي تقبل التحدي يتحداها الإنسان لكنه يدافع في النهاية ثمن هذا التحدي ويتحمّل تبعات هذا التمرد حيث تنقلب عليه النتائج الوخيمة.

فالدين نداء فطري لامس وجدان الإنسان الأول فانقاد إليه بعيداً عن التعقيدات والجدال ولكن مع بلوغ الإنسان مرحلة التجريد الذهني بسبب تطور الفكر الفلسفي وظهور اتجاهات فلسفية مادية ووضعية وتجريبية تعقدت أكثر المسائل واحتجنا إلى دليل يثبت وجود الله تعالى وصار الإيمان بالله في ضوء هذا التنوع الفكري والثقافي مسألة نظرية تحتاج إلى عمق فكر وتأمل وبحث بل تصبح قضية لا معنى لها في مفهوم المدرسة الوضعية وقضية خارج نطاق البحث التجريبي في منظور المذهب التجريبي.

والعقيدة الإسلامية في تاريخها الطويل أسست لأدلة متنوعة وبراهين

عديدة، لكن المشكلة أن المصطلحات الموروثة والإثباتات القديمة لم تعد كافية لإشباع الحاجة الثقافية للناس في هذا العصر وغير كفيلة بالرد عن شبهات وإشكالات المدارس الأخرى.

---

(١) انظر اقتصادنا ص١١٢ و ص١١٦ - ١١٧.

(٢) الروم الآية ٣٠

فلم يعد برهان الحدوث والإمكان واستحالة التسلسل.. رغم قيمتها.. تقنع إنسان العصر.. وتمثّل مضموناً عقائدياً.. قادراً على المواجهة والتحدي في هذه المرحلة.

في مثل هذا الجو استفاد السيد الصدر من منجزات العصر العلمية والمعرفية ليؤسس لنوع جديد من الأدلة الصالحة لإثبات المطلوب فقدّ نوعين من الأدلة:

أ_ الدليل الاستقرائي.
ب_ الدليل الفلسفي.

وكأن بنية الأدلة عند السيد الصدر تعكس استجابة متفاعلة حية للتحولين الكبيرين تاريخ الفكر البشري «مرحلة التفلسف، ثم مرحلة بروز التجربة على صعيد البحث العلمي كأداة للمعرفة».

وكلا الدليلين مما يمكن للذهنية المعاصرة أن تتفاعل معه حتى تلك التي تتحرك في إطار منهج معرفي مختلف لأن الدليل الإستقرائي يستند إلى نظرية باقر الصدر في المذهب الذاتي للمعرفة.

الدليل الأول: فقد صاغه السيد الصدر في موجز أصول الدين «مقدمة الفتاوى الواضحة» على مراحل خمس:

المرحلة الأولى: مواجهة جملة من الظواهر الحسية.

المرحلة الثانية: إيجاد فرضية لتفسير هذه الظواهر.

المرحلة الثالثة: ملاحظة انه في حال كذب الفرضية وعدم ثبوتها في الواقع فإن احتمال وجود هذه الظواهر كلها مجتمعة ضئيل جداً.

المرحلة الرابعة: نستخلص صدق الفرضية ويكون الدليل على ذلك تواجد كل تلك الظواهر.

المرحلة الخامسة: ملاحظة أن درجة إثبات كل الظواهر للفرضية المطروحة في الخطوة الثانية تتناسب عكسياً مع نسبة احتمال وجود تلك الظواهر جميعاً إلى احتمال عدمها على افتراض كذبها فكلما كانت النسبة أقل كانت درجة الإثبات أكبر حتى تبلغ درجة اليقين الكامل لصحة الفرضية وهذا يكون وفق نظريته في تراكم الاحتمالات على محور واحد.

الخطوة الأولى: يستعرض السيد الصدر جملة من الظواهر العلمية التي رصدها العلماء ويستفيد هنا من نتائج العلم الحديث على خلاف أكثر الكتب الكلامية التي جمدت على أطر الثقافة العلمية القديمة.

فيذكر أمثلة من الفلك والأبعاد التي تفصل الأرض عن القمر وعن الشمس ويذكر أمثلة من البيئة وعلوم (الإنسان) والنبات والحيوان، هذه الظواهر تتوافق كلها مع تيسير الحياة وإستمراريتها...

الخطوة الثانية: يستنتج إن هذا التوافق العجيب بين هذه الظواهر لا تفسره إلاّ فرضية واحدة: تفترض صانعاً حكيماً لهذا الكون قد استهدف أن يوفر في هذه الأرض عناصر الحياة ويسر مهمتها فان هذه الفرضية تستبطن كل هذه التوافقات[1].

---

(١) محمد باقر الصدر: الفتاوى الواضحة، (م. س)، ص٣٥.

الخطوة الثالثة: تقودنا إلى إنْ فرضية إثبات الصانع إذا لم تكن صادقة فان احتمال وجود هذه التوافقات بين الظواهر الطبيعية تحتاج إلى مجموعة هائلة من الصدف.

الخطوة الرابعة: يرجح بلا شك ولا ريب صدق الفرضية التي طرحت في هذه الخطوة الثانية.

الخطوة الخامسة: نقارن بين هذا الترجيح وبين ضآلة الاحتمال الذي قررناه في الخطوة الثالثة: (أي احتمال وجود هذه الظواهر على فرض كذب الفرضية) فان هذا الاحتمال ضئيل جداً وتزداد ضآلته كلما ازداد عدد الصدف.

وبالمقابل فان نسبة الترجيح تكبر وتكبر... حتى يزول الاحتمال المقابل نهائياً.. ونصل إلى القطع بأن للكون صانعاً حكيماً.

هذا باختصار شديد توضيح لمراحل الدليل الاستقرائي.

الدليل الثاني فهو الدليل الفلسفي الذي يعرفه السيد الصدر بأنه الدليل الذي تكون بعض مقدماته على الأقل ليست تجريبية ولا ارتباط لها بالحس: لذلك يلزم من رفضه رفض الدليل الرياضي الذي يقبله الجميع لأنه يستند إلى مبدأ عدم التناقض الذي لا علاقة له بالحس والتجربة ويقدم باقر الصدر نموذجاً لهذا الدليل الفلسفي.

يقوم على مقدمات ثلاث:

المقدمة الأولى: لكل حادثة سبب.

المقدمة الثانية: الأدنى لا يكون سبباً لما هو أعلى منه درجة.

المقدمة الثالثة: إن الموجودات بالاستقراء تتفاوت في الدرجات وتتنوع في الإشكال.

انطلاقاً من هذه المقدمات يطرح سؤال: من أين جاءت هذه الزيادة النوعية؟

الجواب: إن هذه الزيادة جاءت من مصدر يتمتع بكل ما تحويه تلك الزيادة الجديدة من حياة وإحساس وفكر وهو الله تعالى.

ويفنّد السيد الصدر كل المحاولات الميكانيكية والمادية في تفسير تطور المادة ومحاولة إرجاع هذه الزيادات النوعية والمراتب الكمالية إلى المادة نفسها[١] ويجزم قائلا «**إن حركة المادة دون تموين وإمداد من خارج لا يمكن أن تحدث تنمية حقيقية وتطور إلى شكل أعلى ودرجة أكثر تركيزاً فلابدّ لكي تنمو المادة وترتفع إلى مستويات عليا كالحياة والتفكر من رب يشع بتلك الخصائص ليستطيع أن يمنحها للمادة وليس دور المادة في عمليات النمو هذه إلا دور الصلاحية والتهيؤ والامكان دو الصالح والمتهيء لتقبل الدرس من مربيه فتبارك الله رب العالمين**»[٢].

كصيغة ثانية لهذا الدليل الفلسفي يمكن اعتبار فصل (المادة والله) في كتاب فلسفتنا وجهاً آخر للدليل حيث اثبت السيد الصدر

---

(١) انظر فلسفتنا (الجزء الثاني) حيث يثبت أن هناك وجود جهة عليا وراء المادة تسبب هذه الزيادة النوعية.

(٢) م. ن، ص٥٢.

أن المادة صفة عرضية زائلة في ضوء البحوث العلمية ولا يستند إليها الكون في وجوده ولا تستطيع أن تفسر لنا هذا العالم ولذلك لا يمكن أن تكون هي العلة الواضحة التي هي المرد والأساس والباعث للكون والعالم لأنها لا تمتلك الأصالة بل هي عرض زائل.

ثانياً: التوحيد والمثل الأعلى المطلق.

هذه نظرة جديدة تلك التي يطرحا السيد الصدر عبر مفهوم «**المثل الأعلى المطلق**» فالمجتمع والفرد سواء بسواء يتشخص سيرهما ومعالم هذا السير من خلال اختيار المثل الأعلى «**فبقدر ما يكون المثل للجماعة البشرية صالحاً وعالياً وممتداً تكون الغايات صالحة وممتدة وبقدر ما يكون هذا المثل الأعلى محدوداً أو منخفضاً تكون الغايات المنبثقة عنه محدودة ومنخفضة أيضاً**»[١].

فالمثل الأعلى هو محور أي حركة تاريخية لأنه يحدد غاياتها وأهدافها وبدورها هذه الأهداف هي التي ترسم حدود الأنشطة والحركات ضمن مسار ذلك المثل الأعلى.

لقد صنف المثل العليا إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المثل الأعلى المنتزع من الواقع المعيش بكل ما يحويه من ظروف وملابسات.

القسم الثاني: المثل الأعلى المحدود هذا النوع ليس تعبيراً تكرارياً عن الواقع كما هو القسم الأول بل هو تطلع للمستقبل لكنه منتزع عن

(١) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، م. س، ص١٤٥.

جزء من هذا الطريق المستقبلي الطويل.

القسم الثالث: المثل الأعلى المطلق: الذي تؤمن به عقيدة التوحيد وهو الله جل جلاله.

النوع الأول يمثّل محاولة لتجميد الواقع ويكون المستقبل تكراراً للواقع و«**هذا النوع من الآلهة يعتمد على تجميد الواقع وتحويل ظروفه النسبية إلى مطلقة لكي لا تستطيع الجماعة البشرية أن تتجاوز الواقع وأن ترتفع بطموحاتها عن هذا الواقع**»[١].

إن تبني هذا النوع من المثل العليا يرجع إلى أحد سببين:

السبب الأول: سبب نفسي: وهي حالة الخمول والألفة التي تجعل المجتمع يعيش حالة ضياع فينغلق على آلهة ينتزعها من واقعه يحوّلها إلى حقيقة مطلقة وقد عبّر القرآن الكريم عن ظاهرة تقديس الواقع الموروث وتحويل رموزه النسبية إلى حقائق مطلقة في آيات عديدة[٢].

قال تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[٣].

السبب الثاني: اجتماعي ويتمثل في التسلط الفرعوني: فالفراعنة يرون في التوحيد تجاوزاً للواقع الذي يسيطرون عليه وبالتالي خطراً يهدد سلطانهم ويزلزل كيانهم فيكون من مصلحتهم أن يغمضوا عيون

---

(١) م. ن، ص١٤٩.

(٢) من نماذج هذه الآيات: (المائدة ١٠٤) (يوسف ٧٨)، (إبراهيم ١٠)، (الزخرف ٢٢)، (هود ٦٢)..).

(٣) البقرة الآية ١٧

الناس عن أي أفق وراء الواقع.. ولن يحصل ذلك إلاّ بتحويل هذا الواقع إلى مطلق إلى مثل أعلى لا يمكن تجاوزه.. ففرعون يحاول دائماً أن يعبىء الجماهير ويؤطرها في ظل وجوده ورؤيته هو: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ﴾[١].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[٢].. إنه خط الطاغوت في التاريخ الذي يسعى لتجميد حركة المجتمع البشري وتحويل الواقع إلى مطلق وسجن الجماعة البشرية في ضيق الماضي وحُدُودِ رموزه.. هكذا تتحول معركة التوحيد والكفر إلى معركة بين قوى التقدم وقوى التآمر والجمود وتكون «الفرعونية» بكل مظاهرها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.. المؤسسة الطاغوتية التي تشد المجتمع إلى الوراء.. وتحول دون نهضتها التوحيدية وتحررها الرسالي.. إن مصير الأمم التي تخضع لهذه المثل العليا المنخفضة إنها تتحول إلى ما أسماه قدس سره.. «شبح أمة» تعيش الفرقة والتمزق لأنه بغياب عقيدة التوحيد.. ينتفي الإطار الذي يوحد صفوف الأمة و«يبقى كل إنسان مشدود إلى حاجاته المحدودة إلى مصالحه الشخصية إلى تفكيره في أموره الخاصة كيف يصبح كيف يمسي كيف يأكل كيف يشرب كيف يوفر الراحة والاستقرار لأولاده ولعائلته أي راحة ؟ أي استقرار؟ الراحة بالمعنى الرخيص للراحة والاستقرار بالمعنى الرخيص من الاستقرار.. يبقى كل إنسان سجين حاجاته الخاصة سجين رغباته الخاصة..»[٣].

ويحدد السيد الصدر مصير هذه الأمة النهائي بأحد الإجراءات الثلاثة التالية:

(١) المائدة الآية ٢٩
(٢) القصص ٣٨
(٣) م. ن، ص ١٦١.

الأجراء الأول: أن تتداعى الأمة لغزو عسكري من الخارج لأن الأمة أفرغت من محتواها وصار كل فرد يفكر في ذاته.

الإجراء الثاني: الذوبان والانصهار في مثال أعلى أجنبي مستورد.

الأجراء الثالث: أن ينشأ في أعماق هذه الأمة بذور إعادة المثل الأعلى من جديد بمستوى العصر الذي تعيشه تلك الأمة.

أما النوع الثاني «**المثل الأعلى المحدود**» فقد نجد لتبني المجتمعات والأفراد لهذا النوع عذراً لأنهم لا يستطيعون أن يستوعبوا المطلق بحكم محدودية الأذهان.

الخطر هنا أيضاً في أن يضفي على هذا المستقبل القريب الإطلاق من جميع الجهات، لا شك أن هذا النوع يعطي للجميع طاقة نحو المستقبل ودفعاً ولكن في حدود آفاق هذا المثل الأعلى لأنه سرعان ما يبلغ مداه الأقصى فيتحول إذا لم نتجاوزه إلى عائق يعطل المسيرة ويشدها إلى عهود تكرارية.

بهذه الموازنة بين هذه الأنواع المختلفة للمثل العليا يبرز الصدر الأهمية الحضارية لعقيدة التوحيد وللمثل الأعلى المطلق الذي يجعل من الله غاية للمسيرة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ﴾[١].

بكل ما يعنيه ذلك من تألق المسيرة وديمومتها وتكاملها اللامحدود.

---

(١) الانشقاق الآية ٦

إن عقيدة التوحيد تصنع التوافق بين الوعي البشري والواقع الكوني الذي يفرض هذا المثل الأعلى حقيقة قائمة ثابتة.. ولذلك عبرت الآية عن الكدح بصيغة خبرية لا بصيغة إنشائية. فالبشرية تكدح نحو الله شاءت أم أبت حتى الذين يتمردون على الله هم يسيرون نحو الله ولكن من حيث لا يشعرون.. لان كونه سبحانه مثلا أعلى حقيقة كونية على الإنسان أن يعيها ويرتبط بها..

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1].

وعقيدة التوحيد عندما توحد بين الوعي والواقع بين الاعتقاد والحقيقة.. يحدث تغيراً كمياً وكيفياً على مسيرة الإنسان فالمثل الأعلى المطلق يحفز الإنسان والمجتمع نحو التقدم ويضفي على المسيرة اندفاعاً وتجدداً لا ينضب فعلى المستوى الكمي يفتح آفاقاً لا نهاية لها لأنه كلما قطعت المسيرة شوطاً نحو الله انفتحت أمامها أشواطاً جديدة..

وتسقط حينئذ وتتهاوى كل الأشكال من الألوهيات المزيفة على هذا الطريق الزاحف نحو المطلق «**من هنا كان دين التوحيد صراعاً مستمراً مع كل أشكال الآلهة والمثل المنخفضة والتكرارية التي حاولت أن تحدد من كمية الحركة من أن توصل الحركة إلى نقطة ثم تقول قف أيها الإنسان**»[2].

«**أما التغير الكيفي تتجلى في حل الجدل الداخلي للإنسان بإعطاء الشعور الداخلي بالمسؤولية الموضوعية لأن الإنسان من**

---

(١) سورة النور الآية ٣٩

(٢) م. ن، ص ١٨٥.

خلال إيمانه بهذا المثل الأعلى ووعيه على طريقه بحدوده الكونية الواقعية من هذا الوعي ينشأ بصورة موضوعية شعور معمق لديه بالمسؤولية تجاه هذا المثل الأعلى لأول مرة في تاريخ المثل البشرية التي حركت البشر على مر التاريخ»[١].

وسبب ذلك أن المثل الأعلى المطلق حقيقة وواقع عيني منفصل عن الإنسان وبذلك يتفق الشرط المنطقي للمسؤولية وجود جهة عليا يؤمن هذا الإنسان بأنه مسؤول أمامها.

وعقيدة التوحيد إضافة إلى كونها تستند أساساً إلى الاعتقاد بالمثل الأعلى المطلق فإنها توفر الأرضية الملائمة وسائر الشرائط لتبني هذا المثل الأعلى فهي:

أولاً: تتوفر على رؤية فكرية واضحة تقوم على الإيمان بالله عز وجل الذي تتوحد فيه كل الغايات وكل التطلعات البشرية.

ثانياً: إن تبني المثل الأعلى المطلق يتوقف على طاقة روحية مستمدة من هذا المثل كي تكون هذه الطاقة الروحية رصيداً ووقوداً مستمراً للإرادة البشرية على مر التاريخ وهو ما تمنحه عقيدة التوحيد عبر عقيدة المعاد.

ثالثاً: المثل الأعلى المطلق ليس جزء من الإنسان بل هو منفصل عنه وهذا ما يستوجب قيام صلة موضوعية بين «الله» و«الإنسان» وهذه الصلة تحقق بدور النبوة **«فالنبي هو ذلك الإنسان الذي يركب بين الشرط الأول والشرط الثاني بأمر الله سبحانه وتعالى بين رؤية أيديولوجية**

(١) م. ن، ص١٨٥.

واضحة للمثل الأعلى وطاقة روحية مستمدة من الإيمان بيوم القيامة يركب بين هذين العنصرين ثم يجسّد بدور النبوة الصلة بين المثل الأعلى والبشرية ليحمل هذا المركب إلى البشرية بشيراً ونذيراً..»[١].

رابعاً: ضمان استمرارية تبني الأمة للمثل الأعلى المطلق وعدم خضوعها وانهزامها أمام القوى التحريفية والقوى الطاغوتية التي تحاول جاهدة صرف الأمة عن مثلها الأعلى نحو مثل منخفضة ولذلك لابد للمجتمع أن يخوض معركة ضد الآلهة المصطنعة **«ولابد من قيادة تتبنى هذه المعركة وهذه القيادة هي الإمامة، الإمام هو القائد الذي يتولى هذه المعركة.. ودور الإمامة يندمج مع دور النبوة ولكنه يمتد حتى بعد النبي إذ ترك النبي الساحة وبعد لا تزال المعركة قائمة ولا تزال الرسالة بحاجة إلى مواصلة هذه المعركة من أجل القضاء على تلك الآلهة حينئذ يمتد دور الإمامة بعد انتهاء النبي»**[٢].

فالأصول الإعتقادية في ضوء هذا التحليل **«لشرائط تبني المثل الأعلى المطلق»** تأخذ موقعها الطبيعي وتسلسلها المنطقي ويكون التوحيد أصل الأصول ولكن من منظور اجتماعي وسياسي وتاريخي.

ثالثاً: التوحيد والمحتوى الداخلي: **«المحتوى الداخلي)** مفهوم يتكرر كثيراً في كتابات السيد الصدر ويلامس العديد من نظرياته في مجالات شتى: التربية وبناء الشخصية، الحرية، الثورة، البنية الاجتماعية، نظام العبادات.. الخ.

---

(١) م. ن، ص١٩٥.
(٢) م. ن، ص١٩٦.

فالمحتوى الداخلي يشكل في المنظور «**الصدري**» الثقل الحقيقي للإنسان ويحدد إلى مدى بعيد طبيعة دوره وخطه في الحياة، لأنه يستند أساساً إلى المثل الأعلى.

من هنا نفهم كيف أن العقيدة الإسلامية التوحيدية تستهدف بناء محتوى داخلي توحيدي إن صح التعبير.

ولكن لنبحث مع الصدر عن حقيقة هذه المقولة وجذورها النظرية:

إن المحتوى الداخلي هو المضمون الفكري والروحي للإنسان والذي يعتبر جوهر بناء الفرد ويحدد تبعاً لذلك الأنشطة والأدوار الممارسة في الحياة.

أما كيف يتشكل هذا المحتوى ؟

للإجابة عن السؤال يعود بنا التحليل الصدري إلى حركة التاريخ ومميزات حركة الإنسان: فلا جدال في المنظور الإسلامي أن الإنسان هو محور حركة التاريخ.

ولما كانت حركة التاريخ غائية لا سببية فقط لأنها مشدودة إلى غاية ترنو إليها فان المستقبل هو الغاية فهو حينئذ: المحرك لأي نشاط وقطعاً إن هذا المستقبل الذي يحفز الإنسان هو المستقبل بوجوده الذهني لأنه معدوم فعلا وهذا الوجود الذهني للمستقبل يرجعه السيد الشهيد الصدر إلى جانب فكري يضم التصورات: «**الهدف**» وجانب آخر «**الإرادة**» أي الطاقة التي تدفع الإنسان نحو الهدف «**وبالامتزاج بين الفكر والإرادة تحقق فاعلية المستقبل ومحركيته للنشاط التاريخي على**

الساحة الاجتماعية وهذان الأمران «الفكر والإرادة» هما في الحقيقة المحتوى الداخلي الشعوري للإنسان»[(١)].

هذا المحتوى هو الأساس للبنى الفوقية للمجتمع من أنظمة وعلاقات **«فالعلاقة علاقة تبعية علاقة سبب بمسبب هذه العلاقة تُمثّل سنة تاريخية»**[(٢)].

لأجل ذلك بنى الإسلام نظريَّتهُ في التغيير على التلازم بين تغيير البنية الفوقية وتغيير ما بالنفوس: المحتوى الداخلي وهذا ما تتضمنه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[(٤)].

هذا التلازم هو عين الارتباط بين الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر فعملية البناء الداخلي تسمى (الجهاد الأكبر) وعملية إرساء البنية الفوقية يطلق عليها السيد الشهيد الصدر: **«الجهاد الأصغر» أن الجهاد الأصغر إذا فصل عن الجهاد الأكبر فقد محتواه ومضمونه وفقد قدراته على التغيير الحقيقي على الساحة التاريخية والاجتماعية»**[(٥)].

ولكن ما نقطة البدء في بناء المحتوى الداخلي، ما هو المحور الذي يستقطب عملية البناء؟

---

(١) م. ن، ص١٤٠.
(٢) م. ن، ص١٤٠.
(٣) الرعد الآية ١١
(٤) الأنفال ٥٣
(٥) م. ن، ص١٤٣.

إنه المثل الأعلى.. فالإنسان هو مركز الثقل في المسيرة التاريخية، وهو كذلك لا بجسمه الفيزيائي بل بمحتواه الداخلي.. «**والأساس في بناء المحتوى الداخلي هو المثل الأعلى هو الذي ينبثق منه كل الغايات التفصيلية والغايات التفصيلية هي المحركات التاريخية للنشاطات على الساحة التاريخية**»[١].

وهذا يمكن أن نلخص نظرية السيد الشهيد الصدر في المقام بهذا التسلسل الآتي: مثل أعلى - غايات وأهداف - رؤية فكرية وطاقة روحية «محتوى داخلي».

حركة تاريخية ومسيرة إنسانية:

فالتوحيد كمنظومة فكرية: قاعدة المحتوى الداخلي التوحيدي الذي يتخذ من الله عز وجل مثلا أعلى مطلقاً ويحرر الإنسان من الداخل ويكون أساس التحرير من الخارج.

فالتوحيد أطروحة تحرير تنبع من الداخل لتشع على الخارج «**فالتوحيد هو جوهر العقيدة الإسلامية وبالتوحيد يحرر الإسلام الإنسان من عبودية غير الله «لا إله إلاّ الله» ويرفض كل أشكال الألوهية المزيفة على مر التاريخ وهذا هو تحرير الإنسان من الداخل**»[٢].

إن هذا التحرر الداخلي يعتق الإنسان خاصة من عبودية الشهوات والرغبات وليربط الذات البشرية بآفاق أرحب وأهداف أسمى.

وعلى ضوء التحرر الداخلي تنطلق عملية التحرير من الخارج: وخاض

---

(١) م. ن، ص ٢٠٠.
(٢) محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة.

القرآن بعْدَ معركة التحرير الداخلي للإنسانية معركة التحرير في النطاق الاجتماعي.

فكما حطم في المحتوى الداخلي للإنسان الأصنام التي تسلبه حرية الإنسانية كذلك حطم الأصنام الاجتماعية وقضى على عبادة الإنسان للإنسان... ومرة أخرى نجد أن هذه المعركة القرآنية من معارك التحرير قد استعين فيها بنفس الطريقة التي استعملت المعركة الأولى وتستعمل دائماً في كل ملاحم القرآن وهي التوحيد، فما دام الإنسان يقرّ بالعبودية لله وحده فهو يرفض بطبيعة الحال كل صنم وكل تأليه مزور لأي إنسان[١].

وكمدلول اجتماعي لهذا التحرر الخارجي يكون تحرير الثروة والكون من أي مالك سوى الله.. وقد ربط الإمام أمير المؤمنين بين الحقيقتين حين قال «**العباد عباد الله والمال مال الله**» وبذلك حطم الإسلام كل القيود المصطنعة والحواجز التاريخية التي كانت تعوق تقدم الإنسان وكدحه إلى ربه وسيره الحثيث نحوه سواء تمثلت هذه القيود والحواجز على مستوى آلهة ومخاوف وأساطير وتحجيم لإنسانيته بين يدي قوى أسطورية أو تمثلت على مستوى ملكيات تكرس السيادة على الأرض لطاغوت فرداً كان أو فئة أو طبقة على حساب الناس وتحول دون نموهم الطبيعي وتفرض عليهم بالتالي علاقات التبعية والاستعباد) [٢]، فالمحتوى الداخلي التوحيدي. هو محتوى داخلي تحرري:

يحرر الإنسان من الداخل ويحرّر الكون من الخارج ولا يفصل بين الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر... لأن الثاني لا يحقق غرضه وهدفه إلا

(١) محمد باقر الصدر، مقالة الحرية في القرآن: عن كتاب اخترنا لك (١) دار الزهراء، بيروت، ص٥١ ـ ٥٢.
(٢) محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، م. س، ص٤١.

في إطار الجهاد الأكبر «**التحرر من الداخل**» وهذا سرّ امتياز ثورة الأنبياء عن أي ثورة اجتماعية أخرى..

رابعاً: التوحيد والرؤية الكونية:

في كتابه «**فلسفتنا**» عرض السيد الصدر نظريته في المعرفة وفق متبنياته في تلك المرحلة الأولى من مسيرته الفكرية (منحى أرسطي) وانتصر للمذهب العقلي في المعرفة وذلك تمهيداً لخوض المبحث الثاني الأساسي للكتاب ألا وهو: (نظرية الوجود «**المفهوم الفلسفي للعالم**» حيث يؤكد في مقدمة الكتاب أن الهدف الأساسي لفلسفتنا كان صياغة المفهوم الفلسفي للعالم وما البحث في نظرية المعرفة سوى مقدمة لذلك يقول: «**هدفنا الأساس من هذا البحث أي نظرية المعرفة هو تحديد منهج الكتاب في المسألة الثانية لأن وضع مفهوم عالم للعالم يتوقف قبل كل شيء على تحديد الطريقة الرئيسية في التفكير والمقياس العام للمعرفة الصحيحة ومدى قيمتها ولهذا كانت المسألة الأولى في الحقيقة بحثاً تمهيداً للمسألة الثانية والمسألة الثانية هي المسألة الأساسية في الكتاب**»[1] ولذلك ربط تعريفه لفلسفتنا بين الطريقة في التفكير وبين الرؤية الكونية للعالم «**فلسفتنا هو مجموعة مفاهيمنا الأساسية عن العالم وطريقة التفكير فيه**»[2].

إن أهمية الرؤية الكونية كأساس للمشروع الفكري العام لم يغب عن بال السيد الشهيد الصدر من هنا خصص لها إنتاجه الأول في إطار بلورة ملامح المدرسة الإسلامية فكان «**فلسفتنا**».

---

(١) محمد باقر الصدر: فلسفتنا، م. س، ص٧.
(٢) محمد باقر الصدر: فلسفتنا، م. س، ص٧.

وهو يعتبر أن صياغة هذه النظرية الكونية وإعداد المسلم روحياً وفكرياً في ظلالها المهمة الأساسية لرسالة الإسلام.

فبعد أن صنف الرؤى الكونية إلى قسمين كبيرين:

أولاً: نظرية تقوم على أن الإنسان أصيل في هذا الكون الذي هو بدوره مستقل وغير خاضع لمراقب ومالك وراء الستار باعتبار هذه الأصالة والاستقالة تنعدم المسؤولية أمام جهة عليا وبدلا من ذلك يحدد هو مسؤوليته في ضوء أهدافه المحدودة.

وثانياً: نظرية تقوم على أساس وجود قوة تراقب الكون وأن وجود الإنسان هو وجود الأمين والخليفة لا وجود الأصيل المتحكم، وهذه الخلافة والأمانة تستبطن معنى المسؤولية أمام هذه الجهة العليا.

والإسلام جاء ليربي الإنسان على هذه النظرية: «**بحيث تصبح جزء من وجوده وتجري مع دمه وعروقه مع فكره وعواطفه وتنعكس على كل مجالات تصرفه وسلوكه مع الله سبحانه وتعالى مع نفسه ومع الآخرين**»[١].

لقد بنى المفهوم الفلسفي للعالم في فلسفتنا على أساس الانتصار للطريقة العقلية في التفكير وترجيح المذهب العقلي حيث أثبت في ضوء بديهيات هذا المذهب المعرفي علة أولى (واجب الوجود) هي مصدر الوجود مفنّداً كل الرؤى المادية والإلحادية الأخرى.

وصاغ على أساس ذلك جملة التصورات عن العالم والإنسان في

---

(١) محمد باقر الصدر، أهل البيت: تنوع ادوار ووحدة هدف، م. س؛ ص ١٢٠.

ضوء القوانين الفلسفية المستنتجة عن العالم والإنسان في ضوء القوانين الفلسفية المستنتجة من أصول المذهب المتبنى وفي ضوء نتائج مختلف العلوم الطبيعية والإنسانية.

إن بلوغ جوهر «**المفهوم الفلسفي للعالم**» في المنظور الإسلامي «**الإيمان بالله**» في نطاق المذهب الذاتي للمعرفة «**ونظرية السيد الصدر الأخيرة**» أسهل واقرب مما كان عليه البحث في كتاب «**فلسفتنا**» حيث وكما رأينا سابقاً أن «**نظرية التوالد الذاتي للمعرفة**» تثبت مسألة الصانع الحكيم بنفس الطريقة التي تثبت فيها كل القضايا الاستقرائية...

من هنا أصبحت القاعدة المعرفية للرؤية الكونية... قاعدة مبتكرة وأكثر علمية وأكثر دقة.

فالبحث في نظرية المعرفة... أساساً كان يستهدف الوصول إلى الرؤية الكونية التوحيدية... لأنه المرتكز الأساسي لقيام أي حضارة وأي مجتمع حيث انه «**لكل حضارة من الحضارات تصور كوني للعالم أي نظرة يفهم وفق لها كل شيء ويقيم والتطور السائد في حضارة ما هو الذي يحدد معالمها ويشكل اللحمة بين عناصر معارفها ويملي منهجتها ويوجه تربيتها... وتصورنا للعالم هو من الأهمية بحيث لا ندرك أن لدينا تصوراً ما إلاّ حين نواجه تصوراً بديلا إما بسفرنا إلى حضارة أخرى وإما باطلاعنا على أخبار العصور الغابرة وأما حين يكون تصور حضارتنا للعالم في طور التحول**»[١].

من دلائل عبقرية الشهيد وبعد نظره أن النتائج التي توصل إليها في

---

(١) اغروس. روبرت. العلم في منظوره الجديد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ١٣٤، ص١٥.

إثبات قصور المادة والظواهر عن تفسير الكون جاءت مطابقة للنظرية العلمية الحديثة التي أبطلت النظرية العلمية القدمية (المادية العلمية) وبات الاعتقاد بأن الأشياء جميعاً قابلة للتفسير بلغة المادة لاغِياً وباطلا... فهذا الرأي كان مقبولا ولكن في ضوء البحوث الفيزيائية الجديدة ونتائج علم الفلسفة وعلم النفس... الخ.. بات العلم أقرب إلى المفهوم الفلسفي الإلهي للعالم.

يقول اغروس. روبرت: «**وفي وسعنا ان نتوقع تحول الفلسفة المعاصرة تشجعها على ذلك النظرة الجديدة عن يأسها الفكري إلى بحث صحي ونشيط عن حكمة ترتكز على يقينيات الخبرة العامة أما فيما يتعلق بالدين فالظاهر أن مستقبل النظرة الجديدة يوحي بالعودة بثقافتنا إلى الإيمان بوجود الله الواحد وبإعادة التأكيد على الجانب الروحي من طبيعة الإنسان وعلى صعيد الفنون تزيل النظرة الجديدة من علم النفس وعلم الكونيات أسباب النفور والعبثية مستعيضة عنها بالغائية والله والجمال والعناصر الروحية وكرامة الإنسان...**»[١].

هكذا يلتقي فلاسفة العلم أواخر القرن العشرين أو على الأقل بعضهم مع ما أسسه باقر الصدر منذ خمسين سنة تقريباً...

حول المفهوم الفلسفي للعالم...

هذا المفهوم الذي يخرق حجب المادة ويتجاوز حدودها الضيقة ليمنح الإنسان كوناً أعظم.. ورسالة أكبر... وآفاقاً أرحب... إنها رؤية كونية تجمَع بين الأرض والسماء... بين المادة والروح بين الغيب

---

(١) م. ن، ص١٤٧.

والشهادة.. إن الرؤية الكونية الإنسانية.. تتجاوز الأطر الضيقة للحضارة المادية..

وتبشر بحضارة خلاص... تنعتق من لاهوت الأرض لتعانق عنان السماء.. «**فالمنهاج العلمي لحياة البشر الذي كرسته الحضارة الأوروبية أدى وسيؤدي إلى انسحاق الإنسان في عالم الأشياء وارتباطه بالجبرية المادية وتحوله إلى كائن بلا تاريخ وبلا حاضر وبلا مستقبل كائناً مستلباً ومنفعلا ولا يبقى أمامه سوى الوعد بجنة الأرض يعبر إليها في أحسن الحالات عبر بوابات الجحيم فلا يبقى منه ما يلج به الجنة يبقى الوعد المنشود كالجزرة أمام الحصان ويسقط الحصان دون أن يبلغ الجزرة... فإن أي محاولة جذرية لإيجاد بديل حضاري فلسفي لمنهاج الحياة البشرية تتطلب خروجاً واضحاً على لاهوت الأرض...**»[١].

وطبعاً لا يكون ذلك إلاّ بتجاوز الرؤى الكونية المادية للاتصال بالغيب... ورسالاته..

خامساً: الله وفعاليته في التاريخ:

كانت ولا تزال علاقة الغيب والشهادة مثار بحث وجدل... ولا تزال العديد من قضايا هذه العلاقة تثير تساؤلات عديدة: منها:

هل يصادر الإيمان بالغيب الدور الإنساني؟

ما هي طبيعة العلاقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة؟ كيف يؤثر

(١) أبو القاسم حاج حمد - العالمية الإسلامية الثانية، دار المسيرة، ص٥١.

الله في التاريخ؟ الخ..هذه الأسئلة وأصل الإشكالية حول جدلية الغيب والشهادة غائبه تقريباً عن البحث الكلامي القديم لكنها تبدو بارزة في بحوث السيد الشهيد الصدر خاصة وان الإيمان بالغيب صار لدى الكثيرين عنوان سلب الإنسان قدرته وإمكاناته وانسحاقه أمام الله **«فقد سيطر على تاريخنا الفكري مفهوم تواكلي يشرح الإيمان بالغيب وقدرة الله المطلقة كأمور مقابلة بالضرورة لسطحية بشرية في مقابل علم الله ولعجز بشري في مقابل قدرة الله فهل الإيمان الحقيقي بالغيب يعطل قدرات الإنسان ووعيه عن التفاعل الواسع بالحركة الكونية؟ إن الذي فهموا الارتباط بالغيب باعتبار تعطيلا لعالم الحس لا يدرون شيئاً لا عن الحس ولا عن عالم الغيب وبالتالي لا يفهمون العلاقة بينهما إلاّ كتناقض لا تناسبه فتصبح مهمة الإنسان أن تستقيل نفسه من عالم الحس بقتلها وقهرها»**[1].

فالتحدي الكبير أمام الفكر التوحيدي هو إيجاد الإطار المناسب والفهم الصحيح للتفاعل بين الغيب والشهادة...

إن السيد الشهيد الصدر يقر بإنشداد الإنسان الشرقي للغيب وافتتانه به وإنه يختلف عن الإنسان الأوروبي الذي ينظر بطبيعته دائماً إلى الأرض لا إلى السماء حتى إن نظرتهم الدينية تأثرت بهذا الافتتان الأرضي فأنزلوا الإله من السماء إلى الأرض... وكان المسيح عندهم ابن الله **«نعم لقد استطاع الأوربي من خلال النظر إلى الأرض أن يفجر طاقات هائلة في الدنيا ولكن أدت به أيضاً إلى التنافس المحموم على الأرض وخيراتها ونشأت أشكال من استغلال الإنسان لأخيه الإنسان لأن تعلق هذا الكائن بالأرض وثرواتها جعله يضحي بأخيه ويحوله من**

---

(١) م. ن، ص١٠٨.

شريك إلى أداة»[1].

ولكن لا يقر بأن هذا الإنشداد إلى الغيب، يحتّم الجمود أو الانسحاق و«**إنما يكن إن تؤدي نظرة إنسان العالم الإسلامي إلى السماء قبل الأرض إلى موقف من هذه المواقف السلبية إذا فصلت الأرض عن السماء أما إذا ألبست الأرض إطار السماء وأعطي العمل مع الطبيعة صفة الواجب ومفهوم العبادة فسوف تتحول تلك النظرة الغيبية لدى الإنسان إلى طاقة محركة وقوة دفع نحو المساهمة بأكثر قدر ممكن في رفع مستوى الحياة وهذا بالضبط ما تصنعه الدولة الإسلامية فإنها لا تنزع من الإنسان نظرته العميقة إلى السماء وإنما تعطي له المعنى الصحيح إلى السماء وتسبغ طابع الشريعة والواجب على العمل في الأرض بوصفه مظهراً من مظاهر خلافة الإنسان لله على الكون وبهذا نجعل من هذه النظرية طاقة بناء وفي نفس الوقت نحتفظ بها كضمان لعدم تحول هذه الطاقة من طاقة بناء إلى طاقة استغلال»**[2].

ولا يكتفي السيد الشهيد الصدر بإبراز أهميته الإيمان بالغيب في التوحد مع الطبيعة والاندماج في العمل الحضاري من أجل مجتمع تقدمي كادح نحو السماء بل يحلل أكثر هذه العلاقة في إطار الصيغة الرباعية للعلاقة الاجتماعية.

وبين إن علاقة الله بالإنسان والتاريخ: تتفاعل في الأبعاد الآتية:

---

(١) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، م. س، ص٢٢٨.
(٢) م. ن، ص٢٢٩.

أ- الله مؤثر بما هو خالق: للإنسان والطبيعة فهو واهب كل ما يملكه الإنسان وكل ما توفره الطبيعة من فيوضات والإنسان خليفة الله على الأرض ومستأمن على ما فيها ومن فيها وهذا يعني مسؤولية الإنسان في تمثل صفات الله في حركته ومسيرته .

ب ـ الله مؤثر في التاريخ بما هو العلة الغائية للمسيرة الإنسانية والمثل الأعلى لها:

وبالتالي فهو يؤثر على طبيعة الأعمال والأنشطة والأدوار التي يقوم بها الإنسان فرداً ومجتمعاً.

ويتحدث السيد الصدر على مستوى الدولة فيقول «**وهنا يأتي دور الدولة الإسلامية لتضع الله هدفاً للمسيرة الإنسانية وتطرح صفات الله وأخلاقه كمعالم لهذا الهدف الكبير فالعدل والعلم والقدرة والقوة والرحمة والجود تشكل بمجموعها هدف المسيرة للجماعة البشرية الصالحة، وكلما اقتربت خطوة نحو هذا الهدف وحققت شيئاً منه انفتحت أمامها آفاق أرحب وازدادت عزيمة وجذوة لمواصلة الطريق لأن الإنسان المحدود لا يمكن أن يصل إلى الله المطلق**»[1].

ج- الله مؤثر بمَا هو المشرّع والمقنن: ليس المقصود هنا التشريع والتقنين بالمعنى الفَقهي الضيق وإنما بالمعنى الأعم الذي يتسع لتحديد الغايات وتأطير المسار وتقنين المسيرة فالله هو الذي حدد الغاية من الخلق ﴿الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، وهو الذي قنن حركة الإنسان إلى الله، أي

(١) م. ن، ص٢٠١.
(٢) الذاريات: ٥٦.

حركته التاريخية، وجعلها خاضعة لسنن تاريخية وقوانين ونواميس إلهية لا تتغير ولا تتبدل **«ولن تجد لسنة الله تبديلا»** وقد حلل هذه السنن التاريخية وأرجعها إلى ثلاثة أشكال من السنن صوناً للحرية الإنسانية وحفاظاً على إرادة الإنسان التي دونها لا يصبح للمسؤولية الإستخلافية الإستئمانية أي معنى:

الشكل الأول: للسنن التاريخية هو شكل القضية الشرطية.
الشكل الثاني: القضية الفعلية الناجزة الوجودية المحققة.
الشكل الثالث: السنة التاريخية المصاغة على صورة اتجاه طبيعي.

هذا التنوع في سنن التاريخ وعدم كونها جميعاً من الشكل الثاني من شأنه أن يحفظ هامشاً كبيراً للإرادة الإنسانية واختيارها[1] إن الله عز وجل... هو المهيمن والمدير والمسيّر للكون... والتاريخ.. وما حركة الإنسان الإرادية إلاّ جزء من هذه الهيمنة الإلهية.. وجزء من إرادته..

فالغيب يحوط عالم الشهادة وليس للأخير أصالة أو استقلالية إلاّ بالمقدار الذي يمنحه الله .. لمفرداته.. بل حتى في عالم الإنسان حيث انفرد هذا الكائن بالاختيار وحرية الإرادة.. فان هذه الحرية مهما سيء استخدامها ومهما وظفت في التمرد على الخالق وإرادته.. فانه لن يخرج من هيمنة الغيب.. لأن الكافر لا يكفر إلاّ بتمكين من الله... والظالم بظلمه لا يخرج عن سلطانه عز وجل... وان الله ليس نهاية جغرافية... وإنما حقيقة موضوعية... والكدح نحوه... ليس طلباً تشريعياً وإنما هو حقيقة تكوينية مغروسة في كل مفردة من مفردة الكون... فقط المطلوب من الإنسان الاندماج الإرادي التشريعي في الكدح نحو الله مع الكدح

---

(١) للتفصيل أكثر يراجع: المحاضرة السابعة من محاضرات المدرسة القرآنية، للسيد باقر الصدر.

التكويني... وهذا ما ذكرناه في تفسير الصدر لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[١].

سادساً: الارتباط بالله:

من مسائل التوحيد، الأصل الديني الأول، أهملت في البحوث الكلامية القديمة ألا وهي **«الارتباط بالله والشعور النفسي بهذه العلاقة» نعم التفت بعض الباحثين المعاصرين إلى هذه المسألة وأدرك أن مشكلة المسلمين اليوم لا تكمن في إقامة الأدلة على وجود الله تعالى بقدر ما تكمن في بعث الحيوية في هذه العلاقة وتعزيزها وتنميتها ويتفق باقر الصدر مع هؤلاء على ضرورة تعزيز هذه العلاقة وتقوية الارتباط بالله لتمنح الإنسان الطاقة الكفيلة بانبعاثه في الحياة فاعلاً مؤثراً بانياً معمّراً فهو يقول في تفسير قوله تعالى** ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[٢] **«قد جعل الإيمان بالله الخصيصة الثالثة للأمة الإسلامية بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأكيداً على أن المعنى الحقيقي للإيمان ليس هو العقيدة المحنطة في القلب بل الشعلة التي تتقد وتشع بضوئها على الآخرين»**[٣].

سعى السيد الشهيد الصدر في دراسات عديدة أن يؤصل هذا الارتباط ويعمق كقيمة حضارية وإيمانية أساسية ويمكن أن نتوقف عند محاولة الصدر للتأصيل النظري في عنصر الارتباط بالله في مستويين اثنين:

---

(١) النور: ٣٩.

(٢) آل عمران الآية ١١٠.

(٣) م. ن، ص٢١٦.

المستوى الأول: نظام العبادات وتغذية هذه الارتباط.

المستوى الثاني: الارتباط بالله في نفسية العاملين.

أما المستوى الأول: فقد فصل الكلام فيه في بحثه نظام العبادات «الجزء الأخير من الفتاوى الواضحة» أين ذهب إلى أن الارتباط بالمطلق يمثل حاجة ثابتة في حياة الإنسان ولكن المشكلة الأساسية كيف يتم إشباع هذه الحاجة دون السقوط فيما سقطت الصيغ البشرية لهذا الارتباط حيث عانى الإنسان على مر تاريخه الحضاري في هذا المضمار من خطرين خطر الضياع واللاانتماء «الإلحاد» من جهة وخطر الغلو في الانتماء «الشرك» من جهة أخرى و«تلتقي المشكلتان في نقطة واحدة أساسية وهي إعاقة حركة الإنسان في تطوره عن الإستمرار الخلاق المبدع الصالح»[1].

إن الإيمان بالله يعالج الجانب السلبي من المشكلة لأنه يرفض الضياع واللاانتماء فهو يجعل الإنسان خليفة لله في الأرض ويتخطى الإيمان بالله الجانب الايجابي من المشكلة مشكلة الغلو في الانتماء لأن هذه المشكلة ناشئة من تحويل النسبي إلى مطلق خلال عملية تصعيد ذهني، وأما المطلق الذي يقدمه الإيمان بالله فهو ليس صنيعة مرحلة ذهنية ليصبح عائقاً في مرحلة لاحقة.

ولكن إشباع هذه الحاجة كأي غريزة أخرى لابدَّ أن يكون منسجماً مع المصلحة النهائية للإنسان من هنا كان لابدَّ للإيمان بالله والشعور العميق بالتطلع نحو الغيب والإنشداد إلى المطلق لابدَّ لذلك من توجيه يحدد طريقة إشباع هذا الشعور ومن سلوك يعمقه ويرسخه على نحو

---

(١) محمد باقر الصدر، الفتاوى الواضحة، م. س، ص٧٠٧.

يتناسب مع سائر المشاعر الأصيلة في الإنسان وبدون توجيه قد ينتكس هذا الشعور ويمنى بألوان الانحراف كما وقع بالنسبة إلى الشعور الديني غير الموجه في أكثر مراحل التاريخ[1] ، وهنا يأتي دور العبادات التي تلعب الدور الكبير في تعميق الشعور وتعزيز الارتباط بالله عز وجل.

الملامح العامة للعبادة:

وبِطَرْح السيد الصدر:

أ- الغيبية.
ب- الشمولية.
ج_ الجانب الحسي في العبادة.
د_ الجانب الاجتماعي للعبادة.

يكون قد أعطى لهذا الدور امتداده في تفاصيل العبادة لأنّ من شأن هذه الملامح أن تعمق مدلولات العبادة في نفس المسلم وتجذّر آثارها في حياة الفرد والمجتمع.

أما المستوى الثاني: الارتباط بالله في الأرضية النفسية للعاملين:

من تحاليله المتميزة حديثه عن المحنة وجذورها النفسية حيث لا يلقي باللائمة على «الغير» ولا يفسر المحنة تفسيراً غيبياً يقترب من الجبرية... «**إن المحنة هي في الواقع تجسيد بشكل مرير للأعمال المسبقة التي قامت بها الجماعة الممتحنة** ﴿أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا

(١) م. ن، ص٧١٣.

كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[١].

هي تجسيد للأعمال التي قدّمها الناس أنفسهم هي في نفس الوقت موعظة ونذير من الله[٢]، وهو يرجع المحنة أساساً إلى الأرضية النفسية لأساليب العمل «فان منطلق المصيبة المحنة هو تلك الأرضية النفسية لم تكن صالحة لكي تنشأ ضمنها أساليب العمل الصالحة ولكي تؤتي هذه الأساليب ثمارها»[٣].

هذه الأرضية النفسية تعود إلى عاملين نفسيين أساسيين:

العامل الأول: عدم الشعور التفصيلي بالله.

العامل الثاني: أن الأخلاقية التي كان الناس يعيشونها لم تكن أخلاقية الإنسان العامل بل أخلاقية إنسان لا يصلح للعمل الحقيقي، وما يهمنا في المقام: هو العامل الأول.

على الرغم من أن حديث السيد الصدر كان يحوم حول الطالب الحوزوي وينطلق من أجواء المحنة التي عاشتها الحوزة العلمية في النجف الأشرف لما قررت السلطات طرد الطلاب الأجانب إلاّ أن هذه الرؤية صالحة للتعميم لكل العاملين، إن أحد أسباب المحنة عدم الشعور التفصيلي بالله تعالى.

---

(١) الشورى الآية ٣٠.

(٢) محمد باقر الصدر: المحاضرة الثانية من محاضرات (المحنة).

(٣) محمد باقر الصدر: المحاضرة الثانية من محاضرات (المحنة).

رغم أن الطالب عندما ينتمي للحوزة ويقرّر ترك الأهل والوطن ويحمل آلام الغربة وآلام الوحشة يعيش أحلى لحظات شعور يجذبه إلى الله عز وجل.

لكن سرعان ما يخبو هذا الشعور عوضاً أن ينمو **«وذلك لأنه حينما يأتي إلى الحوزة لا يعيش تطبيقياً حياً لهذا الاتصال بالله تعالى وإنما يعيش على أفضل تقدير دروساً معينة ومناهج معينة هي في حدود كونها مفاهيم وأفكار لا تغذي هذا الشعور فيبقى فراغ كبير في قلبه في وجدانه»**، وهكذا يتميّع الشعور بالارتباط بالله... **«ويتحول هذا الشعور في بداية الأمر إلى شعور مبهم غامض ثم في مرحلة ثانية يختفي في الأعماق وتتراكم عليه مشاعر أخرى لا ترتبط بالله فتعود تلك التصورات الروحية الضخمة في البداية تعود خواء تعود كلها فراغاً لأنها بعد أن جمدت وأصبحت شعوراً إجمالياً بعد هذا فقدت أي غذاء وإمداد متصل حتى تمزقت وهذا هو معنى نسيان الله تعالى وأنتم كلكم تعرفون أن من ينسى الله ينساه الله ومن ينقطع عن الله ينقطع عَنْهُ الله سبحانه وتعالى...»**.

إن تنمية الشعور التفصيلي بالله وتجسيد حالة الاتصال الدائم بالله... هي أحد العوامل الأساسية لنجاح العامل واستمرارية عمله وصحواه أيام المحن وتجاوزه الصعوبات التي تعترض طريقه مما يمنح لهذا المفهوم التوحيدي الارتباط بالله بعداً نفسياً حركياً...

يلتقي مع العبادة في تأصيلها لهذا الحس العميق والانفتاح الروحي على الله عز وجل ويتكامل مع توفر الشرائط اللازمة الأخلاقية للإنسان العامل **«في امتلاك وعي تغييري تجديدي والتخلص من النزعة الإستصحابية المحافظة وامتلاك عقلية اجتماعية مرنة»**... لنجاح أي

مشروع في الحياة... وتخطى العقبات مهما عظمت.

الأصل الثاني: العدل:

بحث الصفات لا ينفك في الحقيقة عن الذات **«إلاّ لضرورة منهجية»** حتى ان الدليل الاستقرائي في مقام إثبات الصانع بالنتيجة لا يسعه إلاّ أن يتجه للترجيح فاليقين بفرضيته وجود ذات حكيمة[1] وهذا الاتحاد بين الذات والصفات ليس غريباً على العدلية عموماً والإمامية خاصة الذين آمنوا إن صفاته عين ذاته.

اتجه البحث الكلامي القديم إلى تقسيم الصفات **«صفات ذات، صفات أفعال»** **«صفات ثبوتية- صفات سلبية»**... **«صفات إضافية- صفات نفسية»**... الخ... وإلى تعداد هذه الصفات وكيفية أجرائها على المولى بطريقة لا يلزم منها نسبة النقص إليه... وفي ضوء هذه المطالب الأساسية للبحوث القديمة... انقلب الأمر رأساً على عقب... وصار التوحيد مثار جدل وفرقة وتَمذهُبْ وصفات الله طريق للتكفير... والتفريق... عوضاً أن تكون قاعدة للتقريب والتوحيد النفسي والاجتماعي... لقد غفل البحث القديم عن مسألة مركزية وهي قيمة البحث عن الصفات ولماذا نريد معرفتها؟ وهل علاقتنا بصفات الله كعلاقة اليونان بأسماء آلهتهم ؟

يؤكد السيد الشهيد الصدر: «**إن عقيدة التوحيد تعلمنا أن نتعامل مع صفات الله وأخلاق الله لا بوصفها حقائق غيبية منفصلة عنا كما يتعامل فلاسفة الإغريق وإنما نتعامل مع هذه الصفات بوصفها رائداً عملياً بوصفها هدفاً لمسيرتنا العملية بوصفها مؤشرات على**

(١) انظر الأسس المنطقية للاستقراء، ص٤٤١ _ ٤٥١.

الطريق الطويل للإنسان نحو الله سبحانه وتعالى»[١].

لقد حول الجدل الكلامي البحث في الصفات إلى تجريد ذهني صرف... وتكريس لاهوتي للإله... بعيداً عن الإنسان وهمومه ومشاكله.

إن السيد الشهيد الصدر في مجال نظريته حول المثل الأعلى المطلق والارتباط بالله شرح العلاقة بالصفات بأنها تكريس وجهاد من أجل الإنسان لمّا كانت الصفات تمثّل هدفاً للمسيرة وغاية يتحرك نحوها الإنسان لا على المستوى الفردي بل على مستوى الأمة أيضاً: **«وهنا يأتي دور الدولة الإسلامية لتضع الله هدف للمسيرة الإنسانية وتطرح صفات الله وخلاقه كمعالم لهذا الهدف الكبير فالعدل والعلم والقدرة والقوة والرحمة والجود تشكل بمجموعها هدف المسيرة للجماعة البشرية الصالحة وكلما اقتربت خطوة نحو هذا الهدف وحققت شيئاً منه انفتحت أمامها آفاق أرحب وازدادت عزيمة وجذوة لمواصلة الطريق»**[٢].

إن التخلق بأخلاق الله وتكريس صفاته في الحياة ومسيرة الفرد والمجتمع تعني إرساء نظم اجتماعية وعلاقات بعيدة عن الظلم والعجز والجهل **«فالسير نحو مطلق كله علم، كله قدرة، كله عدل، وكله غنى يعني إن تكون المسيرة الإنسانية كفاحاً متواصلا باستمرار ضد كل جهل وعجز وظلم وفقر»**[٣].

---

(١) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، م. س، ص١٩٣.

(٢) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، م. س، ص٢٠٠.

(٣) محمد باقر الصدر، الفتاوى الواضحة، م. س، ص٧١٠.

ولكن كيف يكون السير والكدح نحو الله لمصلحة الإنسان وفي خدمته ؟ السرّ في ذلك أن الله هو المطلق وهو المثل الأعلى للبشرية لذلك كان سبيله وطريقه هو الطريق لخدمة الإنسان «**وسبيل الله هو التعبير التجريدي عن السبيل لخدمة الإنسان لأن كل عمل من أجل الله فإنه من أجل عباد الله لأن الله هو الغني عن عباده ولما كان الإله الحق المطلق فوق أي حد وتخصيص لا قرابة له لفئة ولا تحيز له إلى جهة كان سبيله دائماً يعادل من الوجهة العملية سبيل الإنسانية جمعاء فالعمل في سبيل الله ومن أجل الله هو العمل من أجل الناس ولخير الناس جميعاً وتدريب نفسي وروحي مستمر على ذلك**»[١].

بعد أن بينا طبيعة علاقة الإنسان بصفات الله في المنظور الصدري يطرح سؤال هام:

لماذا خص «**العدل**» بالذات من بين الصفات الإلهية الأخرى ليكون أصلا من أصول الدين ؟

وما هي ميزته في ذلك ؟

الجواب: «**لا يوجد ميزة عقائدية في العدل في مقابل العلم في مقابل القدرة ولكن الميزة هنا اجتماعية ميزة القدوة لأن العدل هو الصفة التي توحي للمسيرة الاجتماعية التي تكون المسيرة الاجتماعية بحاجة إليها أكثر من أي صفة أخرى.. إذن من هنا كان العدل له مدلوله الأكبر بالنسبة إلى توجيه المسيرة البشرية ولأجل**

(١) م. ن، ص٧١٦.

ذلك أفرز»[١].

فالكَوْنُ قائم على أساس العدل والإسلام أراد للعلاقات الاجتماعية أن تؤسس على موازين العدل وحينما يحصل هذا التوافق والانسجام التكويني مع النظم التشريعية يسود الرفاه وتنزل البركات، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾[٢].

عندما أحاط السيد الشهيد الصدر بالعمق الدلالي للعدل في بعده الاجتماعي والسياسي لمْ يصرف جهوداً كبيرة في بحوثه في إثبات أصل العدل بقدر ما تحدث عن أبعاده وآثاره، فهو اكتفى بالإشارة إلى دليلين عابرين على صفة العدل في بحثه: «**موجز أصول الدين**»:

الأول: ان حسن العدل وقبح الظلم من أحكام العقل النظري وهذا العقل النظري هو من الله وبالتالي فهو محيط بهذه الأحكام والقيم.

الثاني: أنه من بحكم قدرته الهائلة وسيطرته الشاملة على الكون ليس بحاجة إلى أي مساومة ولف ودوران ومن هنا نؤمن بأن الله عادل لا يظلم أحداً[٣].

ولما كان السيد الصدر يولي العدل أهمية بالغة على مستوى العلاقات الاجتماعية أرجع جملة من الظواهر إلى العدل وفسر عدة قضايا في منظور العدل وأسس جملة من الرؤى استناداً إلى هذا الأصل ونكتفي هنا بثلاث نماذج نقتبسها من فكر السيد الصدر:

(١) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، م. س، ص١٩٧ـ ١٩٨.
(٢) سورة الجن: الآية ١٦.
(٣) محمد باقر الصدر، الفتاوى الواضحة، م. س، ص٥٤.

ـ النموذج الأول: إيمانه بأن العدل الاجتماعي هو الركن الثالث للهيكل العام للاقتصاد الإسلامي هذه العدالة التي جسّدها الإسلام فيما زود به نظام توزيع الثروة في المجتمع الإسلامي من عناصر وضمانات تكفل للتوزيع قدرته على تحقيق التوازن المنشود فهذا العدل الاجتماعي هو الوجه الآخر للعدل للإلهي.

يقول السيد الصدر: «إن العدل الاجتماعي الذي تقوم على أساسه مسؤوليات الجماعة في خلافتها العامة هو الوجه الاجتماعي للعدل الإلهي الذي نادى به الأنبياء وأكدت عليه السماء كأصل من أصول الدين يتلو التوحيد مباشرة»[١].

ـ النموذج الثاني: تصنيفه لطبقات المجتمع الفرعوني على أساس قيمة العدل حيث قسم هذا المجتمع إلى فئات مختلفة يحدّدها موقفها من الظلم والفئات الستة هي:

أ ـ ظالمون مستضعفون «أعوان الظلمة».
ب ـ الحاشية المتملقون.
ج - الهمج الرعاع.
د ـ المهادنون.
هـ ـ الرهبانيون.
و ـ المستضعفون[٢].

ـ النموذج الثالث: اكتشافه لقانون وسنة تاريخية تقوم على التناسب بين العدل وبين ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة وبالمقابل يتناسب

(١) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، م. س، ص٤٧.
(٢) تفصيلات هذا القسم، انظر المدرسة القرآنية، من ص ٢٣٠ إلى ص٢٣٦.

مدى الظلم في المجتمع تناسباً عكسياً مع علاقات الإنسان بالطبيعة «**فمجتمع الفرعونية المجزأ المشتت مهدور القابليات والطاقات والإمكانيات ومن هنا تحبس السماء قطرها وتمنع الأرض بركاتها وأما مجتمع العدل فهو على العكس تماماً هو مجتمع تتوحد فيه كل القابليات وتتساوى فيه كل الفرص والإمكانيات هذا المجتمع الذي تحدّثنا الروايات عنه تحدثنا عنه من خلال ظهور الإمام المهدي عليه السلام تحدثنا بما تحفل به الأرض والسماء في ظل الإمام المهدي عليه السلام من بركات وخيرات وليس ذلك إلا لأن العدالة دائماً وأبداً تتناسب طرداً مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة...**»[1].

العدل الإلهي والفعل الإنساني:

من المطالب الأساسية التي طرقت في هذا الباب قضية الجبر والاختيار ولقد عكس لنا تاريخ الجدل الكلامي اتجاهين ضحى احدهما بحرية الإنسان لمصلحة التوحيد الإفعالي «**الأشاعرة**» وضحى الآخر بالتوحيد الإفعالي لمصلحة إرادة الإنسان (المعتزلة) ووقفت مدرسة الإمامية موقفاً وسطاً «**لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين**».

ومسألة الجبر والاختيار تنحل إلى مسألتين مسألة كلامية: كما بينا في أصل النزاع بين الأشاعرة والمعتزلة.

ومسألة فلسفية وروح البحث فيها يرجع إلى أن فاعل هذه الأفعال سواء فرضناه في المسألة الأولى الإنسان أو الله أو هما معاً هل تصدر منه اختياراً أو بلا اختيار ومن هنا يعرف أن المسألة الكلامية لا تكفي

(١) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، م. س، ص٢٣٨.

وحدها لحسم النزاع في بحث الجبر والاختيار.

وَفي بحث الطلب والإرادة في علم الأصول استعرض السيد الشهيد الصدر في المستوى الكلامي من البحث خمسة احتمالات:

الاحتمال الأول: أن يكون الفاعل محضاً هو الإنسان ولا نصيب لرب العباد في الفاعلية وهذا مذهب التفويض وهو مذهب المعتزلة الذين اعتقدوا إمكانية استقلال المعلول بقاء عن علته وانه بحاجة إلى هذه العلة أو إلى سببه حدوثاً لا بقاء.

الاحتمال الثاني: أن يكون الفاعل محضاً هو الله وأن الإنسان له القابلية فقط كقابلية الخشب أن يكون مقعداً وهذا الاحتمال قريب من نظرية الكسب الأشعري ولكنه باطل بالوجدان.

الاحتمال الثالث: أن يكون لكل من الله والإنسان نصيب في الفاعلية فالإنسان هو الفاعل المباشر بما أوتي من قدرة وسلطان وعضلات والله هو الفاعل غير المباشر من باب أن هذه القوى مخلوقة حدوثاً وبقاء له ومفاضلة آنا فآنا ومعطاة من قبل الله.

الاحتمال الرابع: أن يكون الله هو الفاعل المباشر لكن الإرادة ومبادئها مقدمات إعدادية.

الاحتمال الخامس: فاعلية واحدة تنسب إلى الله بنظر وإلى العبد بنظر آخر بناء على قوله إن نسبة العبد إلى الله نسبة الربط والفناء ونسبة المعنى الحرفي إلى المعنى الاسمي ويرى السيد الصدر أن هذا الاحتمال الأخير مبني على تصور صوفي لا يفهمه وبالتالي لا يبقى سوى احتمالين

الثالث والرابع ويكون كلاهما صورة معقولة لمبدأ **«الأمر بين الأمرين»** ولكنه في الأخير يبطل الرابع (لكن مجرد اختيار المذهب الشيعي في المسألة الأولى **«المستوى الكلامي من البحث»** القائل بأن للإنسان دخلا في الفاعلية كما أن لله دخلاً فيها أو اختيار المذهب المعتزلي القائل بأن الإنسان هو الفاعل محضاً لا يحتم كون الإنسان مختاراً غير مجبور في فعله فلعل صدور الفعل من الإنسان كصدور الإحراق من النار بناء على فاعلية النار للإحراق).

ولذلك فالمشكلة لا تنحل إلاّ ببحث **«المسألة الثانية الفلسفية»**: وهي ناشئة من شبهة فلسفية تنفي الاختيار حتى بعد الاعتراف بأن الفعل فعل الإنسان وهذه الشبهة مركبة من مقدمتين:

المقدمة الأولى: إن الاختيار ينافي الضرورة فان الضرورة تساوق الاضطرار المقابل للاختيار من قبيل حركة يد المرتعش التي هي ضرورية.

المقدمة الثانية: أن صدور الفعل من الإنسان يكون بالضرورة لأن الفعل صادر منه ممكن من الممكنات فتحكمه القوانين السائدة في كل عالم الإمكان القائلة **«بأن الممكن ما لم يجب بالغير لم يوجد» فالجمع بين هاتين المقدمتين تثبت ان الإنسان غير مختار في أفعاله إذ لا يصدر منه فعل إلاّ بالضرورة والضرورة تنافي الاختيار»**.

بلغة أخرى أن الشبهة ناشئة من التلازم بين الضرورة التي تفرضها عموم قانون العلية لعالم الممكنات وبين الحرية التي تتنافى مع الضرورة... فكيف نوفق بين العلية والحرية؟ هذه هي المعضلة التي أرهقت عقول الفلاسفة والأصوليين!...

لقد طرحت عدة مسالك لحل المعضلة استعرضها الشهيد الصدر في بحثه الأصولي[1] وناقشها... هذه المسالك تتراوح بين إنكار المقدمة الأولى... «الضرورة تنافي الاختيار» وبين إنكار المقدمة الثانية: «قوانين العلية» أو إنكار عموم قوانين العلية وأنها لا تشمل الأفعال الإنسانية الاختيارية «محاولة المحقق النائيني» وبين مسلك آخر يرى أن الطبيعة جهزت الإنسان بقابليات يصعب معها التنبؤ بتصرفه والاختيار ينتزع مِنْ هذه الفرصة.. إن كل هذه المحاولات قاصرة عن إثبات الاختيار.. وإنما حلت المشكلة صورياً.. وهنا يظهر إبداع السيد الصدر لنظريته المشهورة التي تعتبر الحل الجذري الوحيد لهذه المعضلة ألا وهي «نظرية السلطنة»: فالسلطنة مفهوم قبالة مفهومي الوجوب والإمكان، وخروج الممكن من حد الاستواء يتحقق بأحد أمرين:

إما الوجوب بالغير وإما السلطنة.

يقول السيد الصدر: «فلو وجدت ذات في العالم تمتلك السلطنة رأى العقل بفطرته السليمة إن هذه السلطنة تكفي للوجود».

والسلطنة تشترك مع الإمكان من حيث تساوي نسبتها إلى الوجود والعدم ولكنها تختلف عنه في كون الإمكان لا يكفي لتحقيق أحد الطرفين بل يحتاج تحقيقه إلى مؤونة زائدة وأما السلطنة فيستحيل فرض الحاجة معها إلى ضم شيء آخر إليها لتحقيق أحد الطرفين إذ بذلك تخرج عن كونها سلطنة وهي كالوجوب لأنها كافية لتحقيق الشيء وتمتاز عنه أن صدور الفعل من الوجوب ضروري ومن السلطنة ليس ضرورياً فالبون شاسع بين «له أن يفعل» و«عليه أن يفعل».

---

(١) انظر مباحث الدليل اللفظي، ج٢، للسيد محمود الهاشمي، ص٣٠ إلى ٣٥.

ويرى السيد الشهيد الصدر إن السلطنة موجودة في الإنسان والدليل على ذلك منحصر في الشرع والوجدان.

الأصل الثالث: النبوة.

ترتبط ظاهرة النبوة بقانون الهداية العامة الذي ينص أن «**كل شيء في هذا الكون الواسع يحمل معه قانونه الرباني الصارم الذي يوجهه ويرتفع به مدى ما يتاح له من ارتفاع وتطور فالبذرة يتحكم فيها قانونها الذي يحولها ضمن شروط معينة إلى شجرة والنطفة يتحكم فيها قانونها الذي يطورها إلى إنسان وكل شيء من الشمس إلى البروتون ومن الكواكب السيارة في مدار الشمس إلى الالكترونات السيارة في مدار البروتون يسير وفق خطة ويتطور وفق إمكاناته الخاصة**»[١] ، والإنسان ليس استثناء من هذا القانون فهو كغيره من مفردات الكون خاضع لقانون الهداية العامة: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[٢].

ولكن خصوصية الاختيار وحرية الإرادة الذي يتمتع بها تجعل لتطبيق هذا القانون ظروفه الخاصة فبينما تَعْملُ الكائنات الطبيعية البحتة من أجل أهداف مرسومة من قبل واضع الخطة لا من أجل أهداف تعيشها هي وتتوخى تحقيقها فإن الإنسان كائن هادف يعمل من أجل هدف يريد هو تحقيقه.

من الطبيعي أن تكون هذه الأهداف التي يحددها الإنسان وفقاً لمصلحته وحاجاته، ولكن من جهة أخرى إن خلق الإطار الموضوعي

---

(١) محمد باقر الصدر، الفتاوى الواضحة، م. س، ص٥٩.
(٢) الأعلى الآية ٣

لضمان عمل الإنسان وسعيه لمصالح الجماعة شرط لابدَّ منه لاستقرار الحياة الاجتماعية وديمومتها فينشأ التعارض بين ما تفرضه طبيعة الحياة المدنية من مصالح جماعية وما تدعو إليه توازع الفرد إلى مصالح شخصية وكان لابدّ من صيغة تحل هذا التناقض: والنبوة بوصفها ظاهرة ربانية في حياة الإنسان هي القانون الذي وضع صيغة الحل هذه بتحويل مصالح الجماعة وكل المصالح الكبرى التي تتجاوز الخط القصير لحياة الإنسان إلى مصالح للفرد على خطه الطويل وذلك عن طريق أشعاره بالامتداد بعد الموت والانتقال إلى ساحة العدل والجزاء التي يحشر الناس فيها ليروا أعمالهم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾.

وبذلك تعود مصالح الجماعة مصالح للفرد نفسه على هذا الخط الطويل وتتألف هذه الصيغة من جانب نظري وجانب تطبيقي:

الجانب الأول: يتمثل في النظرية:

التي تستند إليها الصيغة وهي عقيدة المعاد.

الجانب الثاني: الجهة التطبيقية:

فهي الممارسة التربوية للإنسان على هذه النظرية وهي عملية قيادية ربانية تعتمد على الغيب ولذلك لا توجد إلا بوحي من السماء «النبوة».

النبوة الخاصة والدليل الاستقرائي:

كما طبق السيد الصدر الدليل الاستقرائي لإثبات الصانع يجريه هنا لإثبات نبوة النبي محمد ﷺ وأهمية هذا الاستدلال انه يتجاوز الطريقة القديمة والمتعارفة لإثبات النبوة والتي تعتمد أساساً المعجزة كمظهر خارق للعادة يكشف كشفاً أنياً عن اتصال صاحب المعجزة ـ بالغيب ـ ويقوم هذا الدليل على أربع خطوات.

الخطوة الأولى: إن هذا الشخص الذي أعلى رسالته إلى العالم ينتسب إلى شبه الجزيرة العربية وهي بيئة متخلفة فكرياً وحضارياً وينتمي إلى مجتمع الحجاز بالذات الذي يعيش تخلفاً اجتماعياً تطغى عليه العقلية القبلية ولم ينل حظاً من ثقافة عصره رغم انخفاضها وكان رسول الله ﷺ يمثل شخصية اعتيادية فهو لم يكن يقرأ ولا يكتب ولم يتلقَّ أي تعليم منظم أو غير منظم ولم يساهم النبي قبل البعثة في النشاط الثقافي الذي كان شائعاً في قومه ولم يؤثر عنه أي تميز عن أبناء قومه إلا في التزاماته الخلقية وأمانته ونزاهته وصدقه وعفته.

الخطوة الثانية: يستقرىء في هذه الخطوة خصائص الرسالة التي جاء بها النبي، وهي رسالة القرآن الكريم والشريعة الإسلامية التي تميزت بخصائص عديدة منها:

أ ـ تتضمن ثقافة دينية واسعة وفريدة وهي أكبر من كل الثقافات الدينية التي عرفها العالم.

ب ـ جاءت بقيم ومفاهيم عن الكون والإنسان والحياة من أروع من عرفه الإنسان من قيم وتشريعات.

ج_ تحدثت الرسالة عن تاريخ الإنسان والأمم السابقة بما لم يكن معروفاً بين العرب.

د_ بلغ القرآن قمة الروعة والجمالية في أساليب البيان.

الخطوة الثالثة: يؤكد في هذه الخطوة وفي ضوء الاستقراء العلمي أن هذه الرسالة بتلك الخصائص السابقة وغيرها مما لم نذكر (اختصاراً) هي أكبر بدرجة عظيمة من الظروف والعوامل التي حددناها في الخطوة الأولى.

الخطوة الرابعة: يطرح التفسير الوحيد المعقول للموقف: كيف نشأت هذه الرسالة بتلك الخصائص الرفيعة في تلك الظروف الموضوعية المتخلفة ؟

إن الجواب الوحيد: هو افتراض عامل إضافي وراء الظروف والعوامل المحسوسة وهو عامل الوحي عامل النبوة الذي يمثل تدخل السماء في توجيه الأرض[1].

❋❋❋❋❋❋

ضرورة النبوة:

لقد غاب عن البحث الكلامي القديم الحاجة الاجتماعية للنبوة لأنها استغرقت في قضايا «**العصمة**» وعلاقة النبوة باللطف والمعجزة... الخ.

---

(١) محمد باقر الصدر، أهل البيت: تنوع ادوار وحدة هدف، م. س، ص٥١.

لكن التحديات الفكرية المعاصرة جعلت باقر الصدر ينظر إلى النبوة كما نظر إلى بقية أصول الدين نظرة مغايرة تُبْرِزُ الأبعاد الاجتماعية لهذه الأصول الإعتقادية ودورها في البناء الحضاريَ ولذلك كشف في بحوثه المتفرقة عن الحاجة الماسة إلى النبوة... والرابط بين كل ما كتب في هذا الموضوع هو تأكيد الحاجة الملحة والضرورة الحضارية للنبوة:

أ- النبوة حاجة معرفية: الإنسان بحكم جهازه الإدراكي حسي أكثر منه عقلي فهو ينفعل بالمحسوس أكثر من أي شيء آخر.

ولذلك كانت الحضارات في التاريخ متأثرة بهذا الميل نحو الحس.

والحضارة الغربية اليوم في ثقافتها وإنتاجها العلمي والتقني تكشف عن نزوع للحس والتجربة أكثر من أي شيء آخر، ولكن هناك معارف أخرى:

المعقولات والقيم الأخلاقية التي لا يمكن أن يدركها الإنسان بالحس والتجربة بل يتفاعل معها عادة بالعقل والوجدان.

ولكن إدراك هذه القيم الروحية والمعنوية لا يرقى إلى الحس ولذلك نرى عبر التاريخ أن التفاعل معها يبقى باهتاً فاتراً... لا يبلغ حرارة الإدراك الحسي وقوته... من هنا نشأت الحاجة إلى الأنبياء في تعميق الإدراك لهذه القيم ولقد تمكن الإنسان عبر هؤلاء الأنبياء من الانفتاح الحسي على القيم العقلية والروحية.

ولولا الوحي لما كان للبشرية من إدراك حسي للمعنويات فالأنبياء هم الطليعة البشرية التي عايشت حسياً هذه الأحكام العقلية والمفاهيم الروحية والمعنوية وهم بدورهم يعسكون هذه التربية الحسية على الناس

ولولا الوحي لا نحصر الحس بالمادة ولتضخم الوعي بها على حساب المعنويات «**فالوحي حسب الحقيقة إذن هو المربي الأول للبشرية الذي لم يكن بالإمكان للبشرية أن تربى بدونه لأن البشرية بدون الوحي ليس لها إلاّ حس بالمادة والإدراك عقلي غائم قد يصل إلى مستوى الإيمان بالقيم والمثل وبالله إلاّ أنه إيمان عقلي على أي حال لا يهز قلب هذا الإنسان ولا يدخل ضميره ولا يسع كل وجوده ولا يتفاعل مع كل مشاعره وعواطفه**»[١].

ب ـ النبوة وتحرير الإنسان: إن النبوة في المنظور الصدري تحرر الإنسان على المستوى الذاتي وعلى المستوى الموضوعي: إما على «**المستوى الذاتي**» فهو ما بيناه في هذا الأصل ومعرض الاستدلال على النبوة العامة وارتباطها بقانون الهداية العامة من حل الجدل الداخلي والتمزق الداخلي بين مصالح الذات والنظام المدني ومقتضياته.

أما «**المستوى الموضوعي**»: فهي ما تتحرك فيه النبوة على قاعدة «**لا اله إلاّ الله**» لتحطيم كل القيود الإجتماعية والسياسية المتمثلة في جميع أنواع الظلم والاستغلال فدور الأنبياء في مكافحة الاستبداد ومقاومة الطغيان من أكثر الأدوار أهمية.

ج ـ النبوة والثورة: يرى السيد الشهيد الصدر أن النبوة ثورة تحررية «**وان الإسلام الذي كان من أجله الأنبياء ثورة اجتماعية على الظلم والطغيان وعلى ألوان الإستغلال والإستعباد**»[٢].

هذه الثورة فريدة في نسيجها لأنها حررت الإنسان من الداخل وحررت

---

(١) محمد باقر الصدر، أهل البيت: تنوع ادوار وحدة هدف، م. س، ص ٥١.
(٢) محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، م. س، ص ١٧١.

الكون من الخارج في وقت واحد ويفسر السيد الصدر في أطروحته خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء كيف أن هذه الثورة تعد ضرورة لمقاومة الإنحراف الطارىء على خط خلافة الإنسان لله في الكون وحتمية تدخل الأنبياء ليعيدوا المسيرة إلى مسارها الصحيح.

وهذه الثورة تمتاز عن غيرها لأنّها لا تحاول كما هو الحال في كل الثورات استبدال مواقع الاستغلال وإنما تسعى جاهدة لاستئصال الإستغلال كقيمة سلبية ومدمرة للمجتمع وإقتلاع جذورها من نفوس الظالمين أنفسهم.

فالثائر الذي يتحرك في إطار النبوة ورسالتها لا ينطلق في حركته وحربه على الاستغلال من أجل استرداد حق شخصي ضائع ولا بدافع ذاتي كالانتقام بل يندفع الثائر النبوي في ثورته للقضاء على العلاقات الاجتماعية القائمة على أساس الجور والاستغلال وليقتلع الظلم بوصفه قيمة سلبية يعطل حركة المجتمع ويصادر مصالح المستضعفين بل مصالح المستغلين أنفسهم على المدى البعيد **«وعلى هذا الأساس نؤمن بأن الثورة الحقيقة لا يمكن أن تنفصل بحال عن الوحي والنبوة ومالها من امتدادات في حياة الناس كما أن النبوة والرسالة الربانية لا تنفصل بحال عن الثورة الاجتماعية على الاستغلال والترف والطغيان»**.

د_ النبوة وقيادة المجتمعات: إن النبوة بما هي الصلة الموضوعية بين الناس والمثل الأعلى المطلق للمسيرة الإنسانية هي الأقدر على قيادة الجماهير وتنظيم قواها ودفعها إلى الأمام نحو الغايات السامية الواقعية والسعادة الحقة لذلك فإن القيادة من لوازم النبوة التي لا تنفك عنها والتي تفرضها المهمة الأساسية لها المتمثلة في **«الشهادة»** على خط

خلافة الإنسان ويتمثل هذا الدور في الأبعاد التالية:

أولاً: استيعاب الرسالة السماوية.
ثانياً: الأشراف على ممارسة الإنسان لدوره في الخلافة.
ثالثاً: التدخل لمقاومة الانحراف واتخاذ كل التدابير الممكنة من أجل سلامة المسيرة.

وكمدلول واقعي لهذه القيادة وانسجاماً مع هذه الأدوار للنبوة يعتقد الصدر أن الدولة ظاهرة نبوية يقول فمن ناحية تكون الدولة ونشوئها تاريخياً نرفض إسلامياً نظرية القوة والتغلب ونظرية التفويض الإلهي الإجباري ونظرية العقد الاجتماعي ونظرية تطور الدولة عن العائلة ونؤمن بأن الدولة ظاهرة نبوية وهي تصعيد للعمل النبوي بدأت في مرحلة معينة من حياة البشرية).

هـ ـ النبوة والعدالة الاجتماعية: لم يستطع القانون الوضعي... على طول التاريخ أن يحقق العدالة الحقة... فالعقل البشري رغم عظمته يبقى قاصراً عن إرساء المعالم التفصيلية للتشريع الذي يستجيب لحاجات الفرد والجماعة الواقعية والذي يحقق التوازن بين الفرد المجموعة ولا يخضع للهوى وإيحاءات المصلحة الضيقة ولا يسقط في حبائل الميولات الفئوية والعرقية والعشائرية إن النبوة برفضها أي سيادة وأي سلطة إلاّ لله وانه وحده مصدر السلطات تكون أنجزت ما يعتبرها السيد الشهيد الصدر أعظم ثورة شنها الأنبياء مارسوها في معركتهم من أجل تحرير الإنسان وتعني هذه الحقيقة أن الإنسان حرّ ولا سيادة لإنسان آخر أو لطبقة أو لأي مجموعة بشرية عليه وإنما السيادة لله وحده وبهذا يوضع حد نهائي لكل ألوان التحكم وأشكال الاستغلال وسيطرة الإنسان على الإنسان.

لقد أعطى الأنبياء لهذه الحقيقة (تحرير الإنسان من أي سيادة أخرى وسلطة أخرى) مدلولها الموضوعي المتمثل في الشريعة النازلة بالوحي من السماء فلم يعد بالإمكان أن تستغل لتكريس سلطة فرد أو عائلة أو طبقة بوصفها سلطة إلهية.

الأصل الرابع: الإمامة:

تُعَدُّ الإمامة السبب الرئيسي في النزاعات والخلافات والحروب التي مزقت المسلمين حتى قال الشهرستاني: «**وأعظم خلاف في الأمة خلاف الإمامة وما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان**»[1]، من هنا نفهم الشروخ العميقة التي تفصل بين الذهنيات المذهبية المختلفة حول حقيقة الإمامة هل هي أصل أم فرع ؟ ما هي صفات الإمام ؟ ما الطرق لنصبه ومعرفته؟... الخ...

ولكن ما يهمنا في المقام كيفية دراسة السيد الصدر للمسألة انطلاقاً من منهجيته المتميزة ففي منظوره أن الإمامة كالنبوة حاجة حضارية متأصلة في حركة المجتمع والتاريخ. لقد شرح باقر الصدر هذا التوافق والانسجام بين النبوة والإمامة وإنهما يعبران عن حقيقة واحدة في أطروحته «**خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء**» حيث أبرز كيف أن البشرية في مسيرتها تمثّل خط الخلافة لله عز وجل.

وهذه المسيرة تحتاج إلى إشراف وتوجيه وتسديد: وهو الخط الثاني الذي تولى هذه المهمة «**خط الشهادة**» «**وضع الله سبحانه وتعالى إلى جانب خط الخلافة خلافة الإنسان الخليفة من الإنحراف وتوجيهه**

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، م. س، ج١ ص٢٤.

نحو أهداف الخلافة الرشيدة»[١].

لقد حدد السيد الشهيد الصدر أهداف هذا الخط: خط الشهادة «**ذكرناها في أصل النبوة**»، ولقد اعتمد في تحديد هذا المهام على الآية ٤٤ من سورة المائدة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾، كما استخلص من هذه الآية في تفسير فريد مبتكر حلقات هذا الخط ـ خط الشهادة ـ وهم:

الأنبياء ـ الأئمة ـ فالفقهاء العدول، ويقدم بذلك إستدلالاً متميزاً غير مسبوق ولقد التفت «**شبي ملاط**» في دراسته «**تجديد الفقه الإسلامي محمد باقر الصدر بين النجف وشيعة العالم**» لهذا الابتكار فقارن بين تفسير السيد الصدر للآية وبين غيره من المفسرين من علماء الشيعة والسنة ليستنتج: «**أن قراءة الصدر لهذه الآية قراءة دستورية تختلف مع القراءة القديمة التي تحصر الآية في أسباب النزول**»[٢].

إن هذه الأهداف: أضحت في فترة تاريخية معنية من مسار خلافة الإنسان تمثل حاجة ماسة فالمجتمع البشري مر بمرحلة الفطرة «**التوحيد**» ولم تكن هناك انقسامات أو خلافات تمزق وحدة المجتمع ولكن في مسار تطور المجتمع.. بدأ الانشقاق يدب وبدأت الخلافات تظهر بحكم تفاوت القابليات والإمكانات ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[٣].

---

(١) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، م. س، ص١٦١.

(٢) شبلي ملاط، م. س، ص٨٦

(٣) سورة يونس: الآية ١٩

وأتاح ذلك ظهور طبقات وفئات مستغلة وأخرى مستضعفة محرومة...

وكان لابدَّ من «ثورة» على هذه الأوضاع تعيد الأمور إلى نصابها وترجع للمجتمع وحدته وانسجامه هذه الثورة: قادها الأنبياء: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[1].

«ومن هنا دعا الأنبياء إلى جهادين:

أولاً: «الجهاد الأكبر» من أجل أن يكون المستضعفون أئمة وينتصروا على شهواتهم وبينوا أنفسهم بناء ثورياً صالحاً.

ثانياً: الجهاد الأصغر من أجل إزالة المستغلين والظالمين عن مواقعهم»[2].

ولكن لما كانت هذه الثورة الإلهية على يد الأنبياء ثورة شاملة. على الجاهلية والانحراف بكل محتواه الفكري والنفسي وبكل جذوره العفنة ومظاهره المتخلفة من استبداد واستغلال «**كان شوط الثورة أطول عادة من العمر الاعتيادي للرسول القائد وكان لابد للرسول أن يترك الثورة في وسط الطريق ليلتحق بالرفيق الأعلى وهي في خضم أمواج المعركة بين الحق والباطل**».

فالإمام كالنبي شهيد وخليفة لله في الأرض من أجل أن يواصل

---

(١) البقرة الآية ٢١٣.

(٢) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، م. س، ص١٧٨.

الحفاظ على الثورة وتحقيق أهدافها غير أن جزء من دور الرسول يكون قد اكتمل وهو إعطاء الرسالة والتبشير بها والبدء بالثورة الاجتماعية على أساسها فالوصي ليس صاحب رسالة ولا يأتي بدين جديد بل هو المؤتمن على الرسالة والثورة التي جاء بها الرسول.

هكذا وفي ضوء هذه النظرية للنبوة كثورة إلهية والإمامة كامتداد لها في الزمن تصبح الأصول العقائدية الخمسة البرنامج الثوري لهذه القيادة الإلهية: «**وإذا عرفنا أن النبي هو حامل الثورة ورسولها من السماء وأن الإمامة بمعنى الوصاية هي مرحلة الانتقال التي تواصل السماء من خلال قيمومتها على الثورة إلى أن ترتفع الأمة إلى مستوى النضج الثوري المطلوب إذا عرفنا ذلك يتبين بكل وضوح أن أصول الدين الخمسة التي تمثل على الصعيد العقائدي جوهر الإسلام والمحتوى الأساسي لرسالة السماء هي في نفس الوقت تمثل بأوجهها الاجتماعية على صعيد الثورة الاجتماعية التي قادها الأنبياء الصورة المتكاملة لأسس هذه الثورة وترسم للمسيرة البشرية معالم خلافتها العامة على الأرض**».

الدليل الاستقرائي في بحوث الإمامة:

إلى حد الآن كنا نتحدث عن الإمامة العامة في فكر السيد الصدر أما الإمامة الخاصة فنحن نلتقي معه على منهج جديد لإثبات ولاية الإمام علي عليه السلام حيث يستند إلى دليل يقترب في جوهره من نظرية الاحتمالات كما بلورها في المذهب الذاتي للمعرفة[١].

(١) صاغ هذا الدليل في بحثه حول نشأة التشيع. نُشر تحت عنوان بحث حول الولاية وكذلك تحت عنوان نشأة الشيعة والتشيع. وهو في الحقيقة مقدمة لكتاب عبد الله فياض

حيث يحصر الطرق التي كان بإمكان رسول الله ﷺ اتخذاها لتدبير مستقبل الدعوة في ثلاثة احتمالات ثم يبطل كل من الاحتمال الأول والثاني ليثبت الاحتمال الأخير بعد أن يعزّزه بشواهد يستقرئها من تاريخ الدعوة الإسلامية ومن أحاديث رسول الله ﷺ أما الاحتمالات الثلاثة فهي:

الاحتمال الأول: الطريق السلبي وإهمال أمر الخلافة وهذا لا يمكن قبوله في حق رسول الله ﷺ لأنه ناشىء من أحد أمرين:

الأمر الأول: أن يعتقد الرسول ان ذلك غير مؤثر في مستقبل الرسالة.

الأمر الثاني: نظرته للدعوة نظرة مصلحية ولا يهمه إلاّ أن يحافظ على الرسالة ما دام حياً ولا يعنيه مستقبلها وحمايتها من بعده.

الاحتمال الثاني: الموقف الايجابي المتمثل في نظام الشورى ولكن الصدر بحكم طبيعة الأشياء واستقراء جملة من الشواهد من تاريخ الرعيل الأول ومواقفه يبطل هذه الفرضية.

الاحتمال الثالث: الإيجابية متمثلة في إعداد من يقود الأمة وهذا هو الطريق الوحيد الذي بقي منسجماً مع طبيعة الأشياء ومعقولا في ضوء ظروف الدعوة والدعاة وسلوك النبي ﷺ وهو أن يقف النبي من مستقبل الدعوة بعد وفاته موقفاً ايجابياً فيختار بأمر الله سبحانه وتعالى شخصاً يرشحه عمق وجوده في كيان الدعوة فيعده إعداداً رسالياً وقيادياً خاصاً لتمثل فيه المرجعية الفكرية والزعامة السياسية للتجربة ويستدل على هذا الإعداد الخاص بشواهد من التاريخ ونصوص من أحاديث

(تاريخ الإمامة وأسلافهم من الشيعة، صدر سنة ١٩٧٠).

رسول الله ﷺ كحديث «**الدار**» وحديث «**الثقلين**» و«**المنزلة**» وحديث (الغدير) وغيرها...

أمّا التطبيق الثاني للدليل الاستقرائي في بحوث الإمامة: فيتمثل في الاستدلال على إمامة المهدي ﷺ رغم صغر سنه ودفع الشبهة الواردة في المقام: لقد مثلت الإمامة المبكرة ظاهرة في الفترة الأخيرة من تاريخ الأئمة الأطهار فالإمام الجواد تولى الإمامة وهو في الثامنة والإمام الهادي تولاها وعمره تسع سنين والإمام العسكري والد المهدي تولى الإمامة وهو في الثانية والعشرين من عمره.. إن هذه ظاهرة حسية عاينها الناس ولمسوها عن قرب (ولا يمكن أن نطالب بإثبات لظاهرة من الظواهر أوضح وأقوى من تجربة أمة).

ولكن يمكن أن نستل من كلمات السيد استدلالا استقرائياً قائماً على رصد جملة من الظواهر ينحصر تفسيرها في واقعية هذه (القضية) وهي الإمامة المبكرة.

فلابدَّ أن نسجل هذه الحقائق وهي:

أولاً: إن الإمامة لم تكن مركزاً من مراكز السلطان وإنما كانت تكتسب ولاء قواعدها الشيعة من الاقتناع الفكري والروحي للجماهير بهذه الزعامة.

ثانياً: أن القاعدة الشعبية الشيعية تشكلت في عصر الباقر والصادق عليهما السلام وأصبحت مدرسة تتسع للعديد من الفقهاء والمتكلمين والعلماء وتياراً فكرياً واسعاً.

ثالثاً: إن الشروط التي تؤمن بها هذه المدرسة في الإمام شروط شديدة.

رابعاً: إن المدرسة وقواعدها كانت دوماً تقدم تضحيات جسام في سبيل الصمود على عقيدة الإمامية.

خامساً: إن الأئمة عليهم السلام لم يكونوا معزولين عن قواعدهم ولم يكونوا يحتجبون عن الناس إلاّ أن تفعل ذلك السلطات القائمة: فالأئمة لهم أصحاب ينشرون علومهم في الآفاق ولهم وكلائهم في البلدان حتى في الظروف المستعصية لهم قنوات خاصة للاتصال بشيعتهم.

سادساً: إن الخلافة المعاصرة للأئمة عليهم السلام كانت تنظر إليهم على أنهم مصدر على كيانها ووجودها. لذلك تبعث للتنكيل بالأئمة وبشيعتهم.

وبلحاظ هذه النقاط السابقة: لا يمكن أن نُفسر انقياد الشيعة بكل رموزها وعلمائها، وصمود الشيعة وتضحياتهم الجسام في سبيل اعتقادهم بإمامة الحجة وعدم لعب السلطات بهذه الورقات لتشويه الشيعة والطعن في الإمامة لا يمكن أن نفسر كل هذه الظواهر إلاّ بالإقرار إن ظاهر الإمامة المبكرة ظاهرة واقعية وأن إمامة المهدي عجل الله فرجه مثلها كمثل نبوة يحيى عليه السلام في تاريخ الرسالات ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾.

❋❋❋❋❋❋

العصمة ومدلولها الاجتماعي:

من النكات الدقيقة التي أشار إليها السيد الصدر في بحوثه حول

الإمامة رؤيته المتميزة للعصمة وإلحاحه على القراءة الاجتماعية لهذه المفردة العقائدية التي تبدو لأول وهلة موغلة في الغيبية بعيدة كل البعد عن الجانب الرسالي والحركي للمعصوم.

لكن الصدر له تقريبان أساسيان لمسألة العصمة يدفع من خلالهما هذا الوهم المسيطر:

التقريب الأول: نقرأه في محاضراته: «**أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف**» فانه يؤكد أن العصمة ليست بدعة شيعية وإنما هو شرط يشترطه أي اتجاه عقائدي فان «**أي اتجاه عقائدي في العالم أن يبني الإنسان من جديد في إطاره ويريد أن ينشىء للإنسانية معالم جديدة فكرية وروحية واجتماعية يشترط لأن ينجح وأن ينجز وأن يأخذ مجراه في خط التاريخ يشترط أن يكون القائد الذي يمارس تطبيق هذا الاتجاه معصوماً**»[١]، ولكن كل ما في الأمر أن العصمة في الإسلام ذات صيغة أوسع نطاقاً من العصمة في الاتجاهات العقائدية الأخرى لأن رسالة الإسلام رسالة شمولية تمس كل جوانب الحياة وتدخل في كل أبعاد الإنسان.

ولما كان الإسلام يؤسس لعاطفة وفكر وسلوك معين اقتضت العصمة الاندماج الكامل في هذه الأبعاد الثلاثة وتكون «**عصمة الإمام عبارة عن نزاهة في كل فكرة وفي كل عاطفة وكل شأن والنزاهة في كل هذا عبارة عن انصهار كامل مع مفاهيم وأحكام الرسالة الإسلامية في كل مجالات هذه الأفكار والعواطف والشؤون**».

التقريب الثاني: نعثر على هذا التقريب في أطروحته «**خلافة الإنسان**

(١) محمد باقر الصدر، أهل البيت، م. س، ص٧٣.

وشهادة الأنبياء» فهو يرى أن العصمة لابدَّ أن تتوفر في الشاهد الرباني لأنه يكون في نفس الوقت خليفة بما هو إنسان وممثل لخط الخلافة وهو أيضاً شهيد وممثل لخط الشهادة وهذا الاندماج بين الخطين في ذات النبي ﷺ أو الإمام عليه السلام يوجب كونهما معصومين لان هذا الاندماج يوجب درجة عالية من النزاهة والموضوعية وإلاّ بدونها كيف يكون رقيباً ومراقباً في نفس الوقت؟

يقول باقر الصدر (في كل حالة يقدر للخطين أن يجتمعا في شخص واحد بحكم ضرورات التغيير الرشيد نجد ان العصمة شرط أساسي في المحور الذي يقدر له أن يمارس الخطين معاً لأنه سوف يكون هو الشهيد وهو المشهود عليه في وقت واحد» ويتحدث عن عصمة الإمام خاصة فيقول: «وهذا القائد الرباني هو الإمام ويجب أن يكون معصوماً لأنه يستقطب الخطين معاً ويمارس وفقاً لظروف الثورة خط الخلافة إلى جانب خط الشهادة معاً وعمصة الإمام تعني أن يكون قد استوعب الرسالة التي جاء بها الرسول القائد استيعاباً كاملا بكل وجوده وفكره ومشاعره وسلوكه ولم يعش لحظة شيئاً من رواسب الجاهلية وقيمها «لم تدنسه الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسه من مدلهمات ثيابها» لكي يكون قادراً على الجمع بين الخطين في دور واحد».

يقول السيد الشهيد الصدر في محاضراته القرآنية «المدرسة القرآنية» يعطي سراً آخر من أسرار العصمة والاستقامة على خط الجهاد والتغيير.

قد يسأل: لماذا كان الأنبياء على مر التاريخ أصلب الثوار على الساحة التاريخية؟

لماذا كانوا على الساحة التاريخية فوق كل مساومة وفوق كل مهادنة وفوق كل تملل يمنة أو يسرة ؟ لماذا كانوا هكذا ؟

لماذا انهار كثير من الثوار على مر التاريخ ولم يسمع أن نبياً من أنبياء التوحيد انهار أو تململ أو انحرف يمنة أو يسرة عن الرسالة التي بيده وعن الكتاب الذي يحمله من السماء؟

ثم يجيب لأن المثل الأعلى المنفصل عنه الذي هو فوقه الذي أعطاه نفحة موضوعية من الشعور بالمسؤولية وهذا الشعور بالمسؤولية تجسد في كل كيانه في كل مشاعره وأفكاره وعواطفه.

ومن هنا كان النبي معصوماً على مر التاريخ، إن هذا التحليل وإن كان يهم مباشرة النبي لكن بنفس الملاك يجري على الإمام وهو يعتبر أن الشعور الموضوعي بالمسؤولية الذي يمثّل حاجة ماسة للإنسان تساهم العبادات في إشباعها كما بين الصدر في نظرة عامة في العبادات «خاتمة الفتاوى الواضحة».

ولكن هذه الحاجة تشهد لدى المعصوم أقوى استجابة وأعمقها فهو يعيش أرقى الاتصال بالله والإنشداد له ومن هنا يستشعر أعلى درجة ممكنة من المسؤولية تجاه الله تعالى.

والعصمة في المنظور الصدري لا تلغي الجانب الموضوعي من تكامل المعصوم وخضوع دوره التاريخي وتفاعله الاجتماعي للقوانين العامة والنواميس الكونية لأن العصمة لا تخرج المعصوم عن الإطار التاريخي لحركة الإنسان لأنها لا تخرجه عن كونه إنساناً متعالياً ولا تجعل منه ما فوق الإنسان، إن حال المعصوم في هذه الجهة حال الرسالة

نفسها التي رغم كونها في مضمونها الرسالي ربانية ولا ترتبط بالظروف الموضوعية ولكنها في جانبها التنفيذي تعتمد الظروف الموضوعية ويرتبط نجاحها وتوقيتها بتلك الظروف كنموذج **لخضوع «العصمة» للقوانين الموضوعية وسنن التغيير:**

نذكر مثالين أشار إليها في موضعين مختلفين:

المثال الأول: تفسيره لظاهرة أن الأوصياء يكونون دائماً من سلالة النبي. حيث يؤكد أن هذا ليس من أجل القرابة بوصفها علاقة مادية تشكل أساساً للتوارث بل من أجل القرابة بوصفها تشكل عادة الإطار السليم لتربية الوصي وإعداده للقيام بدوره الرباني وأما إذا لم تحقق القرابة هذا الإطار فلا أثر لها في حساب السماء.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

المثال الثاني: تفسيره ﷺ لسر غيبة الإمام المهدي ﷺ وإرجاع ذلك في بعض الأبعاد لما يمكن أن يسمى **«بتكامل ما بعد العصمة»**: أي **«ذلك الكمال الذي يؤهله إلى مرتبة أعلى وأعمق وأسهل في نفس الوقت من أساليب القيادة العالمية العادلة»**[2]، فالشهيد محمد باقر الصدر يعتقد إن غيبة الإمام وطول عمره من عوامل نجاح ثورته العالمية **«لأن التغيير العالمي الذي سيمارسه المهدي يتطلب وصفاً نفسياً في القائد الممارس مشحوناً بالشعور بالتفوق والإحساس بضالة الكائنات الشامخة التي اعد للقضاء عليها بتحويلها حضارياً إلى**

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) محمد الصدر، تاريخ الغيبة الكبرى، منشورات ذو الفقار قم، ص٢٧٧.

عالم جديد»[١] ، فالإمام المهدي بمعاصرته لحضارات عديدة ودول كثيرة قامت ثم زالت تجعل الباطل متصاغراً في نفسه ولن يخشى أي قوة حضارية مهما كانت قوتها إضافة إلى أن مواكبته لهذه الحضارات من شأنه أن يعمق الخبرة القيادية للمهدي ﷺ.

الأصل الخامس: المعاد:

الدليل الذي يقدمه الصدر على المعاد على (**التلازم بين العدل والجزاء**» فالعقل الفطري يدرك إن الظالم الخائن جدير بالمؤاخذة وان العادل الأمين الذي يضحي في سبيل العدل والأمانة جدير بالمثوبة وكل واحد منا يجد في نفسه دافعاً إلى مؤاخذة الظالم المنحرف وتقدير العادل المستقيم ولا يحول دون تنفيذ هذا الدافع عند احد العجزه عن اتخاذ الموقف المناسب أو تحيزه الشخصي وما دمنا نؤمن بان الله سبحانه وتعالى عادل مستقيم في سلوكه وقادر على الجزاء المناسب ثواباً وعقاباً فلا يوجد ما يحول دون تنفيذه ذلك...

ولكننا نلاحظ أن هذا الجزاء كثيراً ما لا يتحقق في هذه الحياة التي نحياها على هذه الأرض على الرغم من أنه مقدور لله سبحانه وتعالى وهذا يبرهن على وجود يوم مقبل للجزاء يجد فيه العامل المجهول الذي ضحى من أجل هدف كبير ولم يقطف ثمار تضحيته والظالم الذي افلت من العقاب العاجل وعاش على دماء المظلومين وحطامهم يجد هذا وذاك فيه جزاءهما العادل وهذا هو القيامة الذي يجسد كل تلك القيم المطلقة للسلوك (العدل والاستقامة والأمانة والصدق الوفاء ونحوها... وبدونه لا يكون لتلك القيم معنى.

---

(١) محمد باقر الصدر، بحث حول المهدي، ص٤٢.

دور المعاد النفسي والاجتماعي:

لم نعد بحاجة للقول أن المعاد والإيمان بيوم القيامة يدخل في المركب الحضاري الإسلامي لحل الجدل الإنساني إلى جانب التوحيد والنبوة بل قد سبقت الإشارة إن النبوة تعتمد على عقيدة المعاد في حل هذا التناقض بين المصالح الاجتماعية ومقتضيات الحياة المدنية من جهة وبين مصالح الفرد من جهة أخرى وتستند إلى التوحيد لتعميق الشعور بالمسؤولية الموضوعية تجاه المثل الأعلى المطلق.

وهكذا يحل الدين استناداً إلى «**التوحيد والنبوة والمعاد**» المشكلة الاجتماعية ويضمن التوازن بين حاجات الفرد ومتطلبات الجماعة بين تكامل الفرد وتقدم المجتمع.

ولكن لندقق في أبعاد المعاد داخل هذا المركب الحضاري العام: حيث إن المصالح الاجتماعية لا يمكن أن نضمن تحقيقها إلاّ عن طريق الدين: أما كيف ذلك؟ فانه بالنظر إلى أن مصالح الإنسان في حياته المعيشية تنقسم إلى قسمين مصالح طبيعية ومصالح اجتماعية.

المصالح الطبيعية يمتلك الإنسان دافعاً ذاتياً يضمن تحقيقها (فالإنسان ركب تركيباً نفسياً وفكرياً خاصة يجعله قادراً على توفير المصالح الطبيعية وتكميل هذه الناحية من حياته عبر تجربته للحياة والطبيعة)، كما إن الإنسانية تمتلك القدرة على معرفة هذه المصالح.

أما المصالح الاجتماعية فهي بدورها أيضاً تتوقف على إدراك النظام الاجتماعي الأصلح وعلى الدافع النفسي نحو إيجاد ذلك النظام.

الشرط الأول: فانه لا يمكن للبشرية ان تضع بنفسها النظام الاجتماعي الأصلح لأن (الإنسان لا يستطيع أن يدرك التنظيم الاجتماعي الذي يكفل له كل مصالحه الاجتماعية وينسجم مع طبيعته وتركيبه العام لأنه أعجز ما يكون عن استيعاب الموقف الاجتماعي بكل خصائصه والطبيعة الإنسانية بكل محتواها).

من هنا يستدلون على ضرورة الدين في حياة الناس والحاجة إلى الوحي والنبوة لطرح المصالح الحقيقية والنظام الذي يؤدي إلى السعادة الحقة ولكن أيضاً الدافع نحو هذه المصالح حتى وإن أدركت لا يمكن تحققه بسهولة لأن حب الذات تدفع الإنسان إلى تقديم مصالحه الفردية على مصالح الآخرين فالدوافع الذاتية تحول دون استثمار الوعي العملي عند الإنسان استثماراً مخلصاً في سبيل توفير المصالح الاجتماعية وإيجاد التنظيم الاجتماعي الذي يكفل تلك المصالح وتنفيذ هذا التنظيم.

هنا يأتي دور المعاد بل هو طاقة روحية ليعوض الإنسان عن لذائذه الموقوتة التي يتركها في الحياة الدنيا أملا في نعيم أبدي يوم القيامة وتستطيع أن تدفعه إلى التضحية بوجوده عن إيمان بان هذا الوجود المحدود الذي يضحي به ليس إلاّ تمهيداً لوجود خالد وحياة دائمة وتستطيع أن تخلق في تفكيره نظرة جديدة تجاه مصالحه ومفهومها عن الربح والخسارة ارفع من مفاهيمها التجارية المادية فالعناء طريق اللذة والخسارة لحساب المجتمع سبيل الربح وحماية مصالح الآخرين تعني ضمناً حماية مصالح الفرد في حياة أسمى وارفع وهكذا ترتبط المصالح العامة بالدوافع الذاتية بوصفها مصالح للفرد في حسابه الديني.

إن عقيدة المعاد تحدث تغييراً جوهرياً في مجال الأهداف التي يتحرك لأجلها الفرد والمجتمع.

فعدة المجتمعات اللآدينية والنظم العلمانية لا تنظر إلى الحياة إلاّ من خلال شوطها القصير ولا ترى للسعادة في سبيل سوى إشباع غرائز الإنسان وشهواته وتلبية رغباته... بينما في أطار عقيدة التوحيد يكون الله ومرضاته وعبادته هي عناوين للأهداف الكبرى لمسيرة الإنسان ولا يعود المال والجاه والقوة والشهوة وغيرها من «القيم» المحدودة منتهى الآمال وغاية السير.

فالإسلام أعطى للساحة التاريخية حجمها الحقيقي وربطها بعالم آخر غير منظور حسياً... وإن هذا العالم هو دار الخلود... وإن الإنسان يخلد بعمله وكدحه لا: بغيرها من الموازين وهذا يمنحه قدرة على الثبات والاستمرار والسعي الدؤوب، «فعقيدة يوم القيامة تعلم الإنسان إن هذه الساحة التاريخية الصغيرة التي يتحرك عليها الإنسان مرتبطة ارتباطاً مصيرياً بساحات برزخية وبساحات حشرية في عالم البرزخ والحشر وان مصير الإنسان على تلك الساحات العظيمة الهائلة مرتبط بدوره على هذه الساحة التاريخية هذه العقيدة تعطي تلك الطاقة الروحية ذلك الوقود الرباني الذي ينعش إرادة الإنسان ويحفظ له دائماً قدرته على التجديد والاستمرار»[١].

«فالمعاد يلعب على صعيد الثورة الاجتماعية للأنبياء دوراً أساسياً بوصفه الأساس الواقعي لما يتبناه إنسان الأنبياء الصالح من أهداف وقيم في الحياة»[٢].

---

(١) م. ن، ص٣٢٥

(٢) محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، م. س، ص١٩٤ ٢- محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، م. س، ص٥٢.

على طريق التجديد الكلامي:

هذه هي معالم التجديد منهجياً ومفاهيمياً في البحث العقائدي، كما حاولت الدراسة الكشف عنها في منحى تحليلي، وباستقراء النتاج العلمي في مجال البحث العقائدي بعد السيد الشهيد باقر الصدر وعلى امتداد الساحة الإسلامية بمختلف مذاهبها نلمس بوضوح أن هذا الإنتاج العقائدي لم يستفد جيداً من هذه النقلات المنهجية الهامة التي أسسها السيد الشهيد الصدر ولم يعمّق كثيراً هذه التحولات.

إن هذا القصور للأسف يواجهنا أيضاً في كل المجالات الفكرية الأخرى: في نظرية المعرفة والمذهب الاقتصادي والنظرية السياسية، والنظرية الاجتماعية.. الخ.

إن الساحة الفكرية لم تشهد من بعده نقلة نوعية حقيقة ولا يزال الفكر الإسلامي يتحرك في حدود الآفاق التي رسمها السيد الشهيد باقر الصدر بريشة عبقريته وإبداعه، بل بدونه أحياناً حيث نرصد تراخياً وركوداً فكرياً.

إن أطروحة السيد الشهيد الصدر الكلامية لا تزال تختزن داخلها مشاريع عدة تستوجب جهوداً كبيرة لتفجيرها والرقي بالطرح العقائدي إلى مستويات أعلى قادرة على مقارعة كل التيارات المستحدثة واقتحام كل الساحات الفكرية والفضاءات الثقافية وتحدي كل المشاريع المضادة وهذا الجهد مر حتماً عبر تمثل واستيعاب تفاصيل هذه الأطروحة الصدرية ثم قراءتها نقدياً قراءة تتخطى النزعة الإستصحابية التي تحاول تجميد الفكر في مرحلة ما.. وتحول أبداع السيد الشهيد باقر الصدر إلى عائق معرفي يحول دون نهضة جديدة.. ودرجات أعلى من

تكامل الفكر ونضوجه.

إن السيد الشهيد باقر الصدرقدس سره نفسه يعلمنا ان نتخلص من هذه النزعة المدمرة التي تجعل من الماضي حالة تكرارية نقف عندها.. دون تخطيها إلى أفق أعلى: وهذه النزعة الإستصحابية إلى ما كان والحفاظ على ما كان تجعلنا غير صالحين لمواصلة مسؤولياتنا وذلك لأن أساليب العمل ترتبط بالعلم وترتبط بمنطقة العمل... هذه الأمة التي تريد ان تزرع فيها الخير التقوى الورع الإيمان هذه الأمة ليست لها حالة واحدة... الأمة تتغير..

نعم إسلامك لا يتغير لكن الأمة تتغير.. الأمة اليوم غير الأمة بالأمس في مستواها الفكري في مستواها الأخلاقي.. لابد لنا أن نتحرر من النزعة الإستصحابية من نزعة التمسك بما كان حرفياً بالنسبة إلى كل أساليب العمل..

هذه النزعة الإستصحابية التي تجعلنا دائماً نعيش مع أمة قد مضى وقتها مع أمة قد ماتت وانتهت ظروفها وملابساتها لأننا نعيش بأساليب منسجمة مع أمة تلك الأمة لم يبق منها أحد.. تلك انتهت وحدثت أمة أخرى ذات أفكار أخرى ذات اتجاهات أخرى وملابسات أخرى[1].

فالسيد الشهيد محمد باقر الصدر كما نستشف من خلال هذه الكلمات لا يريد أن يكون نموذجاً معاصراً لتجربة الطوسي في التاريخ حيث جمدت حركة الاجتهاد بعده وطيلة مائة سنة تقريباً.. إلى أن جاء ابن أدريس وناقش أفكار الشيخ الطوسي قدس سره.. وتخطى.. المستوى العملي

---

(١) فقرات: من المحاضرة الثانية من محاضرات المحنة.

الذي بقي مفروضاً على العقول طيلة هذه السنين[1].

نعم: انه من الطبيعي أن المجددين الكبار يرحلون قبل أن يتموا مشاريعهم الكبرى لأن مشاريعهم الفكرية والحضارية هي دوماً أكبر من أعمارهم وتحتاج إلى أجيال عديدة تستوفي أغراضها على أيديهم.. ولكن مع ذلك.. لابد من توجه صادق وقوي نحو هذه المهمة حتى نحقق بعد سنين نتائج مثمرة على هذا الطريق.

وفي انتظار جهد علمي مدروس، وعمل مؤسساتي مركز لقراءة نقدية لفكر السيد الشهيد باقر الصدر في شتى فروعه في انتظار ان يتحرك

المشروع الفكري الذي أسسه باقر الصدر خطوات إلى الإمام ويحلق بالمسيرة إلى أفق أعلى وأسمى نقول من أعمق الأعماق:

سلام عليك سيدي باقر الصدر يوم ولدت وسلام عليك يوم استشهدت وسلام عليك يوم تبعث حياً في وعي الأمة ووجدانها وثوراتها الآتية سلام عليك يوم تحشر مع أجدادك الأطهار. .

---

(١) لاحظ تحليل هذه الظاهرة بقلم الشهيد الصدر في كتابه المعالم الجديدة للأصول: من ص٦٨ إلى ص٨٠ (دار التعارف للمطبوعات).



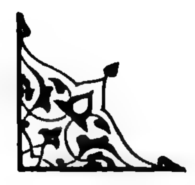
الفصل الخامس

عوامل النبوغ الفكري.

١ـ الربانية في شخصية الصدر.
٢ـ معالم مدرسة الصدر.
٣ـ نماذج من ابداع الصدر.



عوامل النبوغ الفكري



أبصر السيد الشهيد محمد باقر الصدر النور في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام ١٣٥٣ هـ الموافق ١٩٣٣م في مدينة الكاظمية ببغداد لأسرة علمية عريقة إشتهروا في الحوزات العلمية بالعطاء العلمي الوفير، وصفه الشيخ الطهراني بأنه: كان غزير العلم كثير الفضل «**وكان دائم الإشتغال كثير المذاكرة، قلما دخل مجلساً لأهل الفضل ولم يفتح باباً للمذاكرة والبحث العلمي، وكان محمود السيرة حسن الأخلاق محبوباً عند عارفيه**»(١).

كما وصفه السيد عبد الحسين شرف الدين بانه «**كان من ذوي العقول الوافرة والأحلام الراجحة والأذهان الصافية، وكان وهو مراهق أو في أوائل بلوغه لا يسبر غوره ولا تفتح العين على مثله في سنه،.. يقبل على العلم بقلبه ولبه وفراسته، في نمو في اليوم ما لا ينمو غيره في الأسبوع، ما رأت عيني مثله في هذه الخصيصة**»(٢).

---

(١) الطهراني، آغا بزرك، نقباء البشر في القرن الرابع عشر، مشهد، دار المرتضى، ١٤٠٤هـ ص ٦٨٣.

(٢) مجلة النجف، س ١، ع ٣، ١٥ جمادي الثانية ١٣٧٦هـ - ٢٠ كانون الأول عريقة بالعلم وانجاب العلماء، وام الشهيد الصدر سليلة هذه الاسرة العلمية، غرست في هذه التربة وترعرعت في أفياء التقوى والفقاهة.

اما المحيط الاجتماعي الذي نشأ به الشهيد الصدر فبدأ في مدينة الكاظمية التي مكث فيها الى سنة ١٣٦٥هـ ثم هاجر الى الحوزة العلمية في النجف الاشرف، وفي الفترة التي أمضاها في الكاظمية درس في مدرسة «منتدى النشر الابتدائية»، وباشر دراسة العلوم الحوزوية هناك وقرأ أغلب الكتب المعروفة في مناهج الحوزة بالسطوح من دون استاذ، فيما درس بعضها على أخيه السيد اسماعيل، ففي غرة السنة الثانية عشرة من عمره درس كتاب «معالم الاصول» على اخيه، وكان لفرط ذكائه يعترض على صاحب المعالم باشكالات دقيقة، كان اوردها الشيخ الخراساني في كتابه الكفاية على المعالم[١].

وبعد وصوله الى النجف تتلمذ على علمين من ابرز فقهائها آنذاك وهما: خاله الشيخ محمد رضا آل ياسين والسيد ابو القاسم الخوئي.

وكانت النجف وقتئذ في ذروة تألقها وتوهجها العلمي، فقد كانت تعيش عصر ازدهار حركة الدرس الاصولي والفقهي، بتظافر جهود الاصوليين الثلاثة الشيخ محمد حسين الاصفهاني الكمباني، والشيخ محمد حسين النائيني، والشيخ آقا ضياء العراقي، الذين تعاصروا وابدع كل واحد منهم جملة نظريات وآراء مبتكرة في اصول الفقه، فان الشهيد الصدر وان لم يدرك دروس هؤلاء الاعلام، إلاّ انه ادرك المناخ العلمي الذي اثر بنشاطهم العلمي التدريسي في الحوزة العلمية.

فالتحم السيد الصدر بهذه الاجواء وانفتح على افكارها وراح يستلهم تياراتها بفعالية متوثبة.

---

(١) الحائري، مباحث الأصول، مصدر سابق، ص ٤٢.

في هذا الضوء يتضح ان هناك تكاملاً بين دوري المحيط الاجتماعي العلمي والمحيط الاسري في ايقاظ روح الابداع في شخصية الشهيد الصدر، يضاف الى عامل المحيط الخارجي الموضوعي عامل أهم وهو العامل الذاتي اي الموهبة والعبقرية التي تفوق بها الصدر على اعداد غفيرة انتسبت الى البيئة التي انطلق منها لكنها لم تتمكن ان تطاول قامة الصدر التي استطالت فبلغت ذرى المجد.

وقد ظهرت علامات النبوغ في فترة مبكرة من حياة الشهيد الصدر، يحكي أحد الطلاب الذين كانوا معه في المدرسة الابتدائية، انه كان في السنة النهائية من هذه المرحلة، فيما كان الشهيد الصدر في الصف الثالث الابتدائي، لكن الصدر (كان محط انظارنا نحن تلاميذ المدرسة صغاراً وكباراً)، كما كان موضع تقدير واحترام معلميه، واكثر ما كان يلفت نظرنا هو اهتمام المعلمين به، دون إستثناء، فقد كانت له شخصية تفرض وجودها وسلوك يحملك على إحترامه والنظر اليه نظرة تختلف عن نظرتك لبقية زملائه.

كنا نعرف عنه إنه مفرط في الذكاء، ومتقدم في دروسه تقدماً يبزبه زملاءه كثيراً أو ندر نظيره.

وما طرق اسماعنا ان هناك تلميذاً في المدارس الأخرى يبلغ بعض ما يبلغه من فطنة وذكاء، لذا اتخذه معلموه نموذجاً للطالب المجد والمؤدب والمطيع [1].

ويصفه أستاذه في هذه المرحلة بقوله: «**كان شغوفاً بالقراءة، محباً لتوسيع دائرة معرفته، ساعياً بجدٍ الى تنمية مداركه ومواهبه الفذة،**

(١) المصدر نفسه، ص ٣٣ ـ ٣٤.

لا تقع عيناه على كتاب إلاّ وقرأه وفقه ما يحتويه، في حين يعز فهمه على كثير ممن أنهوا المرحلة الثانوية، ما طرق سمعه اسم كتاب في أدب أو علم او اقتصاد او تاريخ إلاّ وسعى في طلبه، كان يقرأ كل شيء...كان شعله ذكاء وادب، ومثال خلق قويم ونفس مستقيمة، ما فاه والله بحياته في المدرسة بكلمة إلاّ وبعثت في نفس سامعها النشوة والحبور، وما التقت عيناه لفرط خجله مرة عيني احد مدرسيه، فهو لا يحدث إلاّ ورأسه منحن وعيناه مسبلتان»[١].

لقد كان لهذه الموهبة التي تفتحت في المرحلة الاولى من دراسته أثر بالغ في سرعة نضجه العلمي، اذ إستطاع ان يحرق المراحل في مشواره العلمي، وأنتهى الى نتائج بهرت الوسط الذي كان يتعلم فيه، فمثلا تَوفر على إستيعاب الفقه وأصبح من ذوي النظر ولم تعد لديه حاجة للتقليد قبل البلوغ، لذا لم يقلد أحداً عند بلوغه [٢].

وهي مرتبة علمية لا يصل اليها الدارسون الأذكياء إلاّ بعد جهود شاقة تتواصل سنوات عديدة.

ومما ينبغي التذكير به ان الموهبة والمحيط الاسري والاجتماعي لم توصل الشهيد الصدر الى القمة التي ارتقاها لولا عامل رابع ينضم اليها، وهو الجدية والمثابرة والاصرار على مواصلة السير مهما كانت العقبات حتى بلوغ الهدف. فقد ذكر هو لبعض تلامذته انه كان «**يقتطف أكثر من عشرين ساعة من الليل والنهار للتحصيل العلمي، وكان يقسمها**

(١) مجلة صوت الأمة، س ٢، ع ١٣ (رجب ١٤٠١هـ).
(٢) الحائري، مباحث الأصول، مصدر سابق، ص ٤٣، ٥٢.

بين المطالعة والكتابة والتفكير»[١] ويتحدث عن مثابرته قائلاً: «انني في الأيام التي كنت أطلب فيها العلم، كنت أعمل في طلب العلم كل يوم بقدر عمل خمسة أشخاص مجدين»[٢].

ولهذا يعود تسجيل حرارة جسمه لنصف درجة زيادة على المعدل أيام شبابه على الدوام[٣].

ودأب على هذا المنهج الصارم في المثابرة على عمله حتى نهاية حياته، فقد ورد في رسالة لأحد تلامذته كتبها قبيل استشهاده ببضعة سنوات «انيِ منذ أشرب كوب الشاي صباحاً أبدأ بالعمل الى الساعة العاشرة ليلاً»[٤].

❊❊❊❊❊❊

الربانية في شخصية الصدر:

اتسمت شخصية هذا الثائر الرباني بسمات مزيدة، جعلته نموذجاً واضحاً لتجسيد قيم الرسالة الإسلامية بتمامها، وتجلي أخلاقية الإسلام بصورة عملية، وسنشير بايجاز إلى ابرز هذه السمات، وهي:

أولاً الإخلاص:

تجلى الاخلاص بوضوح في سلوكه وفي عبادته وفي جهاده، فمثلاً يذكر تلميذه الشيخ النعماني انه كان يتحين الفرص للصلاة خلفه، إلاّ ان

(١) النعماني، الشهيد الصدر سنوات المحنة وأيام الحصار، مصدر سابق، ص ٨٠
(٢) الحائري، مباحث الأصول، مصدر سابق، ص ٤٧.
(٣) النعماني، الشهيد الصدر، مصدر سابق، ص ٨١
(٤) قضايا إسلامية، مصدر سابق، ع ٣ (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م) ص ٦١٧.

الشهيد الصدر كان يتأخر أحياناً جالساً في مصلاه مستقبلاً القبلة مطرقاً برأسه متأملاً بخضوع، وربما يستغرق ذلك نصف ساعة، ثم ينهض فجأة لأداء الصلاة، يقول النعماني فسألته ذات يوم عن سبب هذه الظاهرة، فقال: «**اني الَّيت على نفسي منذ الصغر ان لا أصلي إلاّ بحضور قلب وانقطاع، فأضطر في بعض الأحيان إلى الإنتظار حتى اتمكن من طرد الأفكار التي في ذهني، حتى تحصل لي حالة الصفاء والانقطاع، وعندها أقوم للصلاة**»[1].

وينقل الشيخ النعماني واقعةٍ أخرى تفصح عن وصوله الى مراتب عالية من مدارج السلوك الى الله تعالى، يذكرٍ فيها انه لما نفذ المخزون من الطعام أيام الحجز، واشتدت معاناتهم من الّام الجوع، عمدت عائلة الشهيد الصدر الى التقاط الخبز اليابس التالف، وإعداده كطعام بالإستعانة بالماء المغلي، فكان الشهيد الصدر حينما يأكل منه يقول: «**ان الذ طعام ذقته في حياتي هو هذا، لانه في سبيل الله عز وجل**»[2].

ثانياً التواضع:

نشأ الشهيد الصدر في بيئة تضج بالالقاب والعناوين، حتى ان القارىء أحياناً لا يدرك اسم مؤلف الكتابٍ إلاّ بعد قراءة نصف صفحة من الالقاب «**وأطلق لقب علامة وامام وآية الله وحجة الإسلام على كل ذي جبة وعمة، بلا مراعاة النظير حتى اختلط الحابل بالنابل، وتدنس الطاهر النقي، ورخص العالم التقي**» بحسب تعبير الشيخ محمد جواد مغنية[3].

---

(١) النعماني، الشهيد الصدر، مصدر سابق، ص ١٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٨.

(٣) تجارب محمد جواد مغنية، اعداد: عبد الحسين مغنية، بيروت، دار الجواد، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، ص ٢٩٠.

غير ان الشهيد الصدر وضع حداً فاصلاً لهذه الفوضى، وصدرت مؤلفاته بتمامها في طبعتها الاولى التي طبعت باشرافه وعلى غلافها (محمد باقر الصدر) فقط من دون أي لقب أو عنوان يسبق الاسم، كما أوعز لأحد تلامذته الذي كان يتابع ترجمة وطباعة كتابه «الاسس المنطقية للاستقراء» في ايران ان يذكر اسمه «بدون رتوش وجمل انشائية.. ويقتصر على ذلك بدون القاب وانشاءات»[1].

وأشار الشيخ النعماني الى ان «السيد الشهيد حينما أكمل كتابه «الفتاوى الواضحة» وأردنا ارساله الى المطبعة كتبت على الدفتر منها عبارة «تأليف سماحة آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر» فلما رأى ذلك شطب عبارة «سماحة آية الله العظمى» وقال لي: لا حاجة الى ذلك قدمها الى الطبع بهذا الشكل»[2].

ثالثاً: الزهد والإباء.

روّض الشهيد الصدر نفسه على جشوبة العيش وخشونة الحياة، فظل يعيش حتى أيامه الاخيرة في دار صغيرة تعود الى احدى الاسر التي كانت قاطنة في النجف، ورفض بشدة كل العروض التي قدمت له من قبل بعض مريديه بالتبرع بشراء دار، فقد حدثنا تاجر مُحسن من أهالي الكويت انه ذهب بنفسه الى الشهيد الصدر وقال له: سيدي لي اليك حاجة أرجو أن تقضيها؟

فأجاب الشهيد الصدر: تفضل.

(١) قضايا إسلامية، مصدر سابق، ع ٣، ص ٦٢١ ـ ٦٢٢.
(٢) النعماني، الشهيد الصدر، مصدر سابق، ص ٧٢ ـ ٧٣.

قال المحسن: لدي أمنية أن اشتري لك داراً من أموالي الخاصة لا من الحقوق الشرعية.

فتبسم الشهيد الصدر ثم قال: اشتر لكن بشرط ان تشتري لكل طالب علوم دينية في النجف لا يملك داراً وأنا أحد هؤلاء، يقول فقلت له: ان هذا الشرط غير مقدور[١].

أما في ملبسه فقد كان يكتفي بالمقدار الضروري ولا يسعى لا رتداء الملابس الفاخرة، حتى ان بعض محبيه كان يهدي له أرقى أنواع الاقمشة والالبسة، فلا يستخدم منها أية قطعة، ويعمد الى اهدائها للطلاب في النجف الاشرف، ممن يصعب عليهم مادياً شراء الملابس الجديدة، وقد ذكر الشيخ النعماني انه دخل معه احدى المرات الحمام فوجد بعض ملابسه الداخلية «الفانيلة» ممزقة، فاقترح عليه ان يبتاع له اخرى جديدة، فامتنع، وقال: هذه لايراها أحد، وكان يقتصر في طعامه أحياناً على الخبز والماء فقط، بل كان يبعث بالخبز الساخن الجديد لخادمه فيما يأكل هو الخبز البارد[٢].

رابعاً: أقواله تتجسد بأفعاله.

اهتم الشهيد الصدر بتجسيد أقواله بأفعاله، فلم ينفصل سلوكه عن قناعاته واقواله مثلما ابتلي به بعض من ينبغي ان يكونوا في مقام القدوة والاسوة، من هنا حرص على ان يبقى نمط معيشته مماثلا لعيش الطبقة الفقيرة، فمثلاً كان يمتنع عن شراء الفواكه لعائلته مطلقاً حتى يتمكن جميع الناس من شرائها، وكان يقول: «**يجب علي وانا في هذا الموقع**

(١) النعماني، الشهيد الصدر، مصدر سابق، ص ١١٦ ـ ١١٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ١١٣ ـ ١١٤.

ـ يعني المرجعية ـ ان أكون في مستوى العيش بمستوى الطلبة الاعتيادي»[١].

أما الاموال الوفيرة التي تصل اليه كحقوق شرعية، فقد كان يبادر الى انفاقها في مصارفها الشرعية على المحتاجين، وتنبه الى تثقيف ابنائه على ان هذه الاموال ليست ملكاً شخصياً لهم، ولذا يجب ان يبتعدوا عن العبث بها، يقول بهذا الصدد: **«اني فهّمت ابنتي مرام ان هذه الأموال الموجودة لدينا ليست ملكاً لنا، فكانت هذه الطفلة البريئة تقول أحياناً: ان لدى والدي الاموال الكثيرة ولكنها ليست له، ذلك لكي لا تتربى على توقع الصرف الكثير في البيت بل تتربى على القناعة وعدم النظر الى هذه الأموال كاملا كشخصية»**[٢].

وعندما تحدث معه الشيخ النعماني في فترة الاحتجاز عن امكانية الفرار والخلاص من سطوة الجلادين أجابه قائلاً: **«حتى لو أن السلطة فكّت الحجز فسوف أبقى جليس داري، فليس منطقياً أن أدعو الناس الى مواجهة السلطة حتى لو كلفهم ذلك حياتهم، ثم لا أكون أولهم سبقاً الى الشهادة في الوقت الذي يستشهد فيه الشاب اليافع والشيخ الكبير من أمثال الشهيد المرحوم السيد قاسم شبر الذي جاوز التسعين من عمره»**[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٤ - ١١٥.

(٢) الحائري، مباحث الأصول، مصدر سابق، ص ٤٩.

(٣) النعماني، الشهيد الصدر، مصدر سابق، ص ١٠٤.

خامساً: الإيثار والشفقة.

كان الشهيد الصدر يفيض عاطفة وشفقة على من حوله، ويرعاهم رعاية أبوية تختزن طاقة هائلة من الحنان والمودة، فمثلاً لماجرى اعتقاله في ١٧ رجب ١٣٩٩هـ أعتقل معه الشيخ المجاهد طالب السنجري، ولما اندلعت التظاهرة الاحتجاجية العنيفة في ذلك اليوم في النجف الاشرف، تم الافراج عنه، بيد انه رفض العودة الى النجف من دون الافراج عن رفيقه الشيخ السنجري، لكن مدير الأمن تمّنع لأول وهلة لأجل ان يثني الشهيد الصدر عن ذلك، إلاّ انه عندما لاحظ اصرار الشهيد الصدر على الافراج عن السنجري اضطر للافراج عنه، وقد عبر الشهيد الصدر عن هذه الحادثة قائلاً: «**كنت مصمماً على البقاء في مديرية الامن مدى الحياة اذا لم تفرج السلطة عن مرافقي**»[1].

وبلغت المشاعر الانسانية للشهيد الصدر ان يعطف على جلاوزة الامن الذين كانوا مكلفين بفرض طوق وحشي على داره، اذ يذكر الشيخ النعماني انه سمعه في أحد أيام الاحتجاز يقول: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، فقال له: هل حدث شيء؟

فقال: كلا، بل كنت أنظر الى هؤلاء ويقصد قوات الامن من خلال فتحة في الكسر الصغير في زجاجة النافذة فرأيتهم عطاشى يتصبب العرق من وجوههم في هذا اليوم من أيام الصيف الحار.

فقلت: سيدي أليس هؤلاء هم الذين يطوقون منزلكم ويعتقلون المؤمنين الاطهار من محبيكم وأنصاركم، هؤلاء الذين روعوا أطفالكم وحرموهم من أبسط ما يتمتع به الأطفال ممن هم في أعمارهم؟

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٤.

فقال: ولدي، صحيح ما تقول: ولكن يجب ان نعطف حتى على هؤلاء، ان هؤلاء انما أنحرفوا لأنهم لم يعيشوا في بيئة إسلامية صالحة، ولم تتوافر لهم الأجواء المناسبة للتربية الإيمانية، وكم من أمثال هؤلاء شملهم الله تعالى بهدايته ورحمته، فصلحوا وأصبحوا من المؤمنين[1].

سادساً: الصبر والحلم.

ما فتئ خصوم الشهيد الصدر يواصلون كيل التهم والصاق الأكاذيب والافتراءات وافتعال الدعايات والاشاعات ضده منذ عام ١٣٨٠هـ عندما قاد المدعو حسين الصافي حملة دعائية ضد النشاط الإسلامي للشهيد الصدر، وجاء بعده من شنع بكتاب فلسفتنا واقتصادنا، وراح يحرض الاخرين ضدهما باعتبار ان الصدر أضر بهذا الفكر الامة، لانه ليس فكراً قرانيا [2].

ثم تفاقمت المواقف المناوئة في النجف لتحرك الشهيد الصدر، فعبر عنها في رسالة بالغة الدلالة لأحد أصحابه، كتبها في صفر سنة ١٣٨٠هـ وجاء فيها: «لقد كان بعدك أنباء وهنبثة وكلام وضجيج وحملات متعددة جندت كلها ضد صاحبك بغية تحطيمه...ابتدأت الحملات في أوساط الجماعة التوجيهية المشرفة على الاضواء أو بالاحرى لدى بعضهم ومن يدور في فلكهم فأخذوا يتكلمون وينتقدون ثم تضاعفت الحملة واذا بجماعة تنبري من أمثال «حسين الصافي» ـ ولا أدري ما اذا كانت هناك علاقة سببية وارتباط بين الحملتين أو لا ـ تنبري هذه الجماعة... فتذكر عني وعن جماعة ممن تعرفهم شيئاً كثيراً من التهم من الامور العجيبة».

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) حسن، غالب، الشهيد الصدر رائد الثورة الإسلامية في العراق، طهران، وزارة الارشاد الإسلامي، ١٤٠٢هـ، ص ٣٣ ـ ٣٤.

ويكتب أيضاً: «**فقد حدثني شخص في الكاظمية انه اجتمع في النجف الاشرف فأخذ يذكر عني له سنخ التهم التي كالها حسين الصافي من دون مناسبة مبررة، وعلى كل حال عسى أن يكون له وجه صحة في عمله انشاء الله**»[١].

ومن المؤسف ان أساليب محاربة الشهيد الصدر تنوعت وتعددت جبهاتها، وكان أمضاها وأعنفها تلك السهام التي تنطلق من داخل الحوزة في النجف الاشرف بعد تصديه للمرجعية العامة.

فقد ذكر الشيخ النعماني: «**ان أحد العلماء جاء الى بيت السيد الشهيد، وكان يتكلم بانفعال وعصبية ويحاسب السيد الشهيد على تصديه للمرجعية وطبعه الفتاوى الواضحة، وقد سجل نتائج تلك المحادثات من خلال رسالة بعثها إلى أحد تلامذته**»[٢].

وبلغت الوقاحة ببعضهم ان يبعث برسالة الى الشهيد الصدر أيام الاحتجاز مضمونها: «**اننا نعلم ان الحجز مسرحية دبّرها لك البعثيون، وأنت تمثل دور البطل فيها، والغرض منها اعطاؤك حجماً كبيراً في أوساط الامة، إننا نعلم إنك عميل لأمريكا، ولن تنفعك هذه المسرحية**»!!

فما كان من الشهيد الصدر إلاّ ان قبض على لحيته ودموعه تسيل، وهو يقول: «**لقد شابت هذه من أجل الإسلام، أفؤتهم بالعمالة لأمريكا، وأنا في هذا الموقع؟!**»[٣].

(١) الحائري، مباحث الأصول، مصدر سابق، ص ٧٤ _ ٧٥.
(٢) النعماني، الشهيد الصدر، مصدر سابق، ص ١٧٧.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٨ _ ١٠٩.

معالم مدرسة الصدر:

تعرض الفكر الإسلامي الحديث لشيء من الاضطراب في الرؤية ولاسيما ذلك الفكر الذي ظهر في النصف الاول من القرن العشرين، بعد هيمنة روح الانبهار بالتطور العلمي والتقني للغرب، فتمحورت جهود الإسلاميين على تبرير المفاهيم الإسلامية بالاستناد الى النظريات والفرضيات المتداولة في الفكر الغربي، وشاعت وقتئذ نزعة تلفيقية راحت تمزج بين العناصر المحلية والعناصر المستعارة من البيئة الأوربية، غير ان هذه المرحلة لم تستمر بعد ان بزغ في سماء الفكر الإسلامي مفكرون روّاد أعادوا للعقل المسلم أصالته واستلهموا المقومات الذاتية للإسلام المتمثلة بالقرآن الكريم والسنة الشريفة والتراث الإسلامي، ولم ينكفئوا على الذات وانما سعوا للاستضاءة بالقوانين العلمية الحديثة حيثما لزم ذلك.

وكان الشهيد الصدر أحد هؤلاء المفكرين الذين اتسم تفكيرهم بالاصالة والعودة الى الجذور، وتميز انتاجهم باعادة بناء العلوم الإسلامية.

وفي الوقت نفسه تجاوز هذا التفكير السطحية وحالة التبسيط الساذجة التى طفحت في كتابات عديدة للإسلاميين، فتوغل تفكير الشهيد الصدر بعمق في دراسة مشكلات الامة واستكناه الأسباب الكامنة وراءها، وراح يقرأ التراث والنصوص المقدسة قراءة معمقة متأنية تغور في مداراتها القصية فتقتنص رؤى جديدة مبتكرة تحاكي متطلبات العصر ومقتضيات الزمان.

وبغية توظيف الفكر في خدمة قضايا الانسان هبط الشهيد الصدر

بالفلسفة من طابعها التجريدي النظري البحت وحاول ان يبرز ارتباطها بالحياة الاجتماعية، وهذا ما نلاحظه بوضوح في كتاب «فلسفتنا» الذي كان أول عمل مهم له نشره سنة ١٩٥٩م، فانه مهّد لهذا الكتاب الفلسفي ببحث تحليلي واسع في تفسير المشكلة الاجتماعية، حلل فيه هذه المشكلة وأسبابها وتحدث عن الاجابات والحلول التي ساقها الانسان في طوال تاريخه لها واخفاق هذه الحلول ثم انتهى للحديث عن التعليل الصحيح للمشكلة الاجتماعية الذي يقدمه الدين، وبيان حل الإسلام لهذه المشكلة.

وهي المرة الاولى فيما نعلم التي يفتتح فيها مؤلف فلسفي إسلامي بحث المسألة الاجتماعية وجعل هذه المسألة مدخلاً للبحث الفلسفي[١].

نماذج من ابداع الشهيد الصدر:

تعدد ابداع الشهيد الصدر بتعدد الحقول التي كتب فيها، ومع ان هذه الحقول امتدت لتشمل غير واحد من المعارف الإسلامية، فان ابداعه تجلى في سائر مؤلفاته، ففي كل واحد منها نلتقي بابتكار يصلح ان يطور كمنهج للبحث في ذلك الموضوع.

وان كنا لا نزعم انه جاء بجديد في تمام ما كتب، لانه ليس هناك مبدع أو مفكر يبدأ في كل ميدان ببداية جديدة، وانما المبدع هو الذي يستأنف المشوار الذي تراكمت في مساره جهود الاخرين، وهو عندما يواصل، فتارة يقدم تفسيراً جديداً لبعض المفاهيم والمقولات

(١) انظر بحث: «التوحيد أساس الحرية» في: الكواكبي، عبد الرحمن، ام القرى، بيروت: دار الرائد العربي، ط ٢ _ ١٤٠١هـ-١٩٨٢م، ص ٨٠

الموروثة، واخرى يعيد بناء وترميم بعضها الاخر، وثالثة يتوسل لبيانها وتحليلها ببراهين وأساليب مختلفة، ورابعة يلتقط لمعات واضاءات متناثرة، فينظمها ويؤلف منها منظومة واحدة متماسكة، وخامسة ربما يبتكر طريقة جديدة في التفكير يفضي عبرها الى نتائج مغايرة لما ألفه السلف، والأخيرة أعمق تجليات الابداع.

ويمكن القول ان الشهيد الصدر تحقق ابداعه في سائر هذه المناشط الخمس، من اشارات محدودة لشيء من ذلك عبر نقاط، هي:

١- إبداعه في علم الكلام

منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنادت صيحات في العالم الإسلامي تدعو الى اعادة النظر في علم الكلام، واعادة صياغة علوم العقيدة، وكان السيد جمال الدين الأسد آبادي المعروف بالافغاني أول من أطلق تلك الصيحات ثم واكب صداه بعض تلامذته ومن جاء بعدهم، ولعل أوضح صياغة لهذه المسألة هي ما أفصحت عنها كتابات عبد الرحمن الكواكبي ، فهو وان لم يكن قد تتلمذ مباشرة على السيد جمال الدين، بيد ان دعوة الاخير عبر عنها الكواكبي أفصح تعبير بينما طمسها محمد رشيد رضا. ولم تتبلور صياغة نظرية ناضجة في هذا المضمار إلاّ في مطلع العقد السادس من القرن العشرين على يد العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، ثم تلاه ببضع سنوات الشهيد الصدر الذي تدشنت على يديه معالم نظرية اخرى لصياغة «علم كلام جديد» مضافاً الى ممارسته تجربة تطبيقية في تشكيل علم الكلام الجديد في مقدمته المبتكرة للفتاوى الواضحة التي عمد فيها الى استبعاد المنهج المتداول في علم الكلام التقليدي في الاستدلال على اصول الدين، لأن ذلك الاستدلال كان مبنياً على منهج بعيد عن الحياة اليومية وما تزخر به من

استدلالات كثيرة يسوقها الانسان كل حين لاثبات العديد من الحقائق في سلوكه العام أو في تفكيره العلمي.

٢- إبداعه في التفسير.

ظل المنهج التجزيئي هو المنهج السائد لدى المفسرين منذ ولادة هذا الفن في القرن الأول الهجري، غير أن التطور الجديد في بنية المجتمع والدولة أضحى يتطلب ارساء أسس منهج جديد في التفسير يستجيب للمستجدات الفكرية والحياتية، ويتجاوز الرؤية المشتتة للحقائق القرآنية، ويعيد نظمها في اطار نظرية موحدة، لأن الفهم التجزيئي للآيات كان **«يقف دائماً عند حدود فهم هذا الجزء أو ذاك من النص القرآني ولا يتجاوز ذلك غالباً، وحصيلة تفسير تجزيئي للقرآن تساوي على أفضل تقدير مجموعة مدلولات القرآن الكريم ملحوظة بنظرة تجزيئية أيضاً، أي انه سوف نحصل على عدد كبير من المعارف والمدلولات القرآنية، ولكن في حالة تناثر وتراكم عددي دون ان نكتشف أوجه الارتباط، دون أن نكتشف التركيب العضوي لهذه المجاميع من الافكار، دون أن نحدد في نهاية المطاف نظرية قرآنية لكل مجال من مجالات الحياة»**[1].

ولو أردنا ان نؤرخ لحظة ولادة هذا اللون من التفسير، فسنجد ان المرحوم الدكتور محمد عبد الله درّاز هو صاحب المحاولة التطبيقية الاولى اذ اختار لاطروحة الدكتوراه التي قدمها بالفرنسية من باريس دراسة النظرية الاخلاقية في القرآن مقارنة بالنظريات الاوربية، واصطلح على المنهج الذي اتبعه في تدوين هذه الاطروحة النظام المنطقي وهو

---

(١) الصدر، السيد الشهيد محمد باقر، المدرسة القرانية، بيروت، دار التعارف للمطبوعات ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ٨٠

ما يوازي مصطلح التفسير الموضوعي عند السيد الشهيد[١].

لكن انجاز الشهيد الصدر برز في صياغة نظرية ذات اطار منهجي محدد لهذا اللون من التفسير، ثم ممارسة تطبيقات نموذجية لها بعد الفراغ من بنائها، وبوسعنا القول انها المرة الاولى التي تتشكل فيها أسس وملامح واضحة لهذه الطريقة في التفسير، تبتعد فيها عن الفوضى المنهجية التي تخبط فيها كل من يجمع بضعة آيات ثم يجمع تفسيرها تجميعاً كمياً فيصطلح على محاولته خطأ التفسير الموضوعي.

إبداعه في أصول الفقه:

أصول الفقه من العلوم التي ابتكرها المسلمون، ولم يحاكوا بها العلوم في حضارات اخرى، وكأي فن بدأ هذا العلم بداية بسيطة ثم مافتئ ان نما وتطور واستطال افقياً ورأسياً، وأدى اقفال باب الاجتهاد عند المذاهب الاربعة الى توقف تطور هذا العلم، بينما واصل مساره التكاملي في الحواضر العلمية لمدرسة أهل البيت (ع)، خاصة منذ القرن الثالث عشر الهجري أي منذ عصر الشيخ الانصاري الذي اعتبره الشهيد الصدر «**رائداً لأرقى مرحلة من مراحل العصر الثالث ـ وهو عصر الكمال العلمي ـ وهي المرحلة التي يتمثل فيها الفكر العلمي منذ أكثر من مئة سنة حتى اليوم**»[٢]، وبعد الشيخ الانصاري واصل مساره تلامذته الذين تميّز منهم الشيخ الاخوند الخراساني والميرزا محمد حسن الشيرازي، ثم جاء بعد الخراساني تلامذته الثلاثة، وهم

(١) كسار، جواد علي. «المنهج الموضوعي: اشارات مقارنة بين دراز والصدر ومكارم الشيرازي». قضايا إسلامية مصدر سابق، ع ٣(١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م) ص ٦٨.
(٢) الحائري، مباحث الأصول، مصدر سابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٧ ـ ٥٩.

الشيخ محمد حسين الاصفهاني والشيخ محمد حسين النائيني والشيخ آقا ضياء العراقي، الذين برعوا في أصول الفقه وساهم كل واحد منهم بآراء ونظريات مهمة فيه. وكان الشهيد الصدر تلميذاً للسيد الخوئي الذي هو تلميذا لهؤلاء الاعلام الثلاثة، فبدأ باستيعاب تراث أسلافه، ثم انتقل الى مرحلة المراجعة والتقويم لهذا التراث، والتي قادته للابتكار، وفيما يلي تعداد عاجل لبعض عناوين ابداعاته:

أ- نظريته الجديدة في تفسير الأحكام النظرية بأنها: «**خطابات تعين الاهم من الملاكات والمبادئ الواقعية حين يتطلب كل نوع منها الحفاظ عليه بنحو ينافي ما يضمن به الحفاظ على النوع الاخر**»:

هذه النظرية وظفها في حل غير واحدة من الاشكالات، والتي من ابرزها كيفية الجمع بين الحكم الواقعي والظاهري، على اساس بيان نوع اخر من التزاحم وهو التزاحم الحفظي في مقام حفظ ملاكات الأحكام الواقعية في صورة شك المكلف.

ب- صياغة نظرية محددة المعالم في سيرة المتشرعة وسيرة العقلاء: بينما كان المشهور من الاصوليين يبحثها استطراداً في سياق مباحث اخرى من دون ان يكتشف أسسها وحدودها.

ج ـ نظرية التعويض.

وهي نظرية تتصل بالبحث الرجالي، غير انه بحثها في علم الاصول في مبحث حجية خبر الواحد، وتعني هذه النظرية امكانية تعويض المقطع الضعيف من السند في بعض الحالات بمقطع آخر، وبحسب تعريف الشهيد الصدر هي فرض التصرف في السند اما باعتبار المقطع الاول بما

فيه من نقطة الضعف، أو باعتبار المقطع الثاني بما فيه من نقطة الضعف، أو باعتبار تمام السند واستبداله بسند اخر.

د ـ صياغة نظرية «حق الطاعة»:

في مقابل نظرية «قبح العقاب بلا بيان» التي تبناها مشهور الاصوليين وذلك على اساس ما انتهى اليه في مبحث «حجية القطع» وكيف ان هذه الحجية ترتبط اثباتاً ونفياً بمولوية المولى وليس بذات القطع بما هو قطع.

هـ ـ نظرية القرن الأكيد في الوضع:

وهي النظرية التي فسّر فيها العلقة الوضعية بين الالفاظ والمعاني وكيفية دلالة اللفظ على المعنى باعتبار «ان الوضع قرن مخصوص بين تصور اللفظ وتصور المعنى بنحو أكيد، لكي يستتبع حالة اثارة أحدهما للآخرين في الذهن.

و ـ ابطال حكومة الأصول بعضها على بعض حينما تكون متوافقة في النتيجة: كحكومة استصحاب الطهارة على قاعدة الطهارة.

ز ـ امكان ورود الترخيص في جميع أطراف العلم الاجمالي:

مضافاً الى تحقيقات اخرى في مورد العلم الاجمالي، مثل عدم جريان اصالة الطهارة في ملاقي بعض أطراف الشبهة المحصورة.

بقي ان نشير الى ان البحث الفقهي وطأ أرضاً بكراً على يد الشهيد

الصدر حينما تحركت عملية الاستدلال لديه نحو فقه النظرية فارتقت عملية الاستنباط نحو ذرى لم تدركها من قبل من لدن الفقهاء السابقين، وهذا ما نراه في الجزء الثاني من كتاب اقتصادنا الذي صاغ فيه نظرية الإسلام في الاقتصاد، والبنك اللاربوي في الإسلام الذي بلور فيه نظرية الإسلام في المعاملات المصرفية.

٤- إبداعه في الفلسفة والمنطق:

في مطلع العقد الثاني من حياته، ألف الشهيد الصدر رسالة في المنطق وهو لما يتجاوز الحادية عشرة من عمره، أورد فيها مجموعة اعتراضات على المسائل المنطقية [١].

وبعد عدة سنوات من التحاقه بالحوزة العلمية في النجف أشار عليه استاذه السيد الخوئي ان يدرس الفلسفة الإسلامية بالشكل المتعارف في الحوزة، وطلب من الشيخ صدرا البادكوبي ان يعقد للشهيد الصدر حلقة خاصة يدرسه فيها كتاب الاسفار الاربعة لصدر الدين الشيرازي، فاستجاب الشيخ البادكوبي، وانعقدت الحلقة واستمرت خمس سنوات كما قيل [٢].

ولم تنشأ رغبة استاذه السيد الخوئي هذه من الارتياب في موهبة تلميذه الصدر العقلية المتوهجة، ولا من شكه في قابليته ونبوغه في استيعاب آراء الفلاسفة وفهمها، وانما نشأ ذلك من اهتمام الاستاذ بمكانة تلميذه وحماية موقعه العلمي، لان التقاليد المتعارفة في الحوزة تستهجن

(١) الحائري، مباحث الأصول، مصدر سابق، ص ٤٢.

(٢) ذكر ذلك المرحوم السيد عبد العزيز الطباطبائي في مقابلة شخصية معه في قم في ١ رجب ١٤١٦هـ

تعاطي أي فن والتأليف فيه من دون الانتساب الى استاذ معروف، ولاسيما ان كان ذلك الفن من فنون المعقول [١].

اما اسلوب الشهيد الصدر في دراسة الاسفار، فانه حسب قول الشيخ البادكوبي اشترط عليّ ان لا يتابعني في التدريس الرتيب لهذا الكتاب، بل طلب مني ان يقرأ عليّ كل يوم صفحات من هذا الكتاب، ويسألني عما اشكل عليه فقبلت، وأنهى دراسته للكتاب بسرعة على هذا الشكل.

والملاحظة الاساسية التي كان يبديها الشهيد الصدر على اسلوب استاذه البادكوبي هي: ان الشيخ كان يقوم ببيان وتفسير الافكار والاراء الواردة في الاسفار من دون ان يمارس تقويمها ونقدها.

ويبدو ان الاسلوب التحليلي النقدي في دراسة العلوم، الذي يعتمد على «ان قلتَ قلتُ» هو السمة الغالبة بالنسبة للدرس الفلسفي وسائر مناشط الدرس العقلي والشرعي الاخرى في الحوزة، بيد ان هذا الاسلوب اضمحل بالتدريج بالنسبة الى دراسة المعقول والفلسفة بالذات، خاصة في العقود الاخيرة في النجف بعد ان هيمنت آراء صدر الدين الشيرازي على تفكير اساتذة الفلسفة وتلامذتهم، فأصبح هؤلاء الاساتذة ليس إلا معلمين يمارسون المنهج التلقيني في تعليم الفلسفة من دون تقويم ومحاكمة.

---

(١) ذكر ذلك الشيخ محمد رضا الجعفري في مقابلة شخصية معه في قم في ١٥ رجب ١٤١٦. كما ذكر المرحوم الطباطبائي: (انه عندما صدر كتاب «فلسفتنا» تسائل بعض الفضلاء في الحوزة الذين التقوا في منزل ابن الميرزا النائيني، هل درس محمد باقر الصدر الفلسفة كي يؤلف في الفلسفة؟!فأجابهم الشيخ صدرا البادكوبي الذي كان حاضراً المجلس: لقد حضر عندي محمد باقر الصدر درس «الأسفار» خمس، ففوجئ معظم الحاضرين بهذا النبأ.

وفي منتصف العقد الثالث من عمره اتجه لتأليف كتاب «فلسفتنا» التي واكب فيها مسار الفلسفة الاوربية برحلة نقدية منذ العصر الاغريقي حتى بداية القرن العشرين، ولاسيما اتجاهاتها المادية التي تبلورت في المادية الجدلية لكارل ماركس. وشاء الله أن يكون كتاب فلسفتنا أشحذ سلاح معرفي تمنطق به الإسلاميون في منازلتهم للتيار الالحادي الذي بات يجتاح البلاد العربية والعراق منها بالذات. من هنا طارت شهرة هذا الكتاب في الافاق، وظل أهم كتاب ألف باللغة العربية في نقد أسس المادية الجدلية الى اليوم.

وفي العقد الرابع افتتح الشهيد الصدر حقلاً أخر في البحث العقلي لما اتجه لدراسة الأساس المنطقي لتكوين العلم.

و«انكب على دراسة البرهان الارسطي، واطلع باستيعاب وعمق على نظريات المنطق الحديث في الاستقراء وأساسه المنطقي حساب الاحتمال فأوضح خلال الاسس المنطقية للاستقراء تهافت نظرية البرهان الارسطية كما عالج ينبوع أخطاء التفكير الغربي في تفسيره لنظرية الاحتمال، وقدم بالتالي نظرية متكاملة في تفسير حساب الاحتمال، أقام على اساسها بناء متكاملاً لفهم جديد لنظرية المعرفة البشرية بكامل تفاصيلها، فثار على ارسطو في بيئة تقدس نظرية القياس الارسطية، وهضم قمة الانتاج الغربي واقفاً على نقاط الضعف في تفكير أساتذة المنطق الحديث أمثال راسل وكينز، وأعطى للبشرية طرازاً جديداً من التفكير»[١].

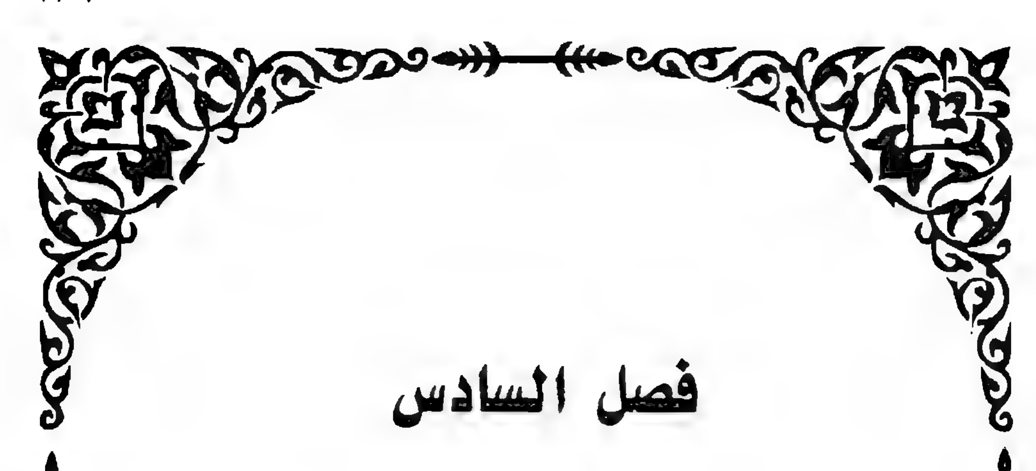
غير ما كان معروفاً بين المذهبين العقلي والتجريبي، ويمكن القول

---

(١) آل حيدر، حيدر، ماذا جاء حول كتاب فلسفتنا للشهيد الصدر؟ قم، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٣ هـ ص ٤٧.

ان ولادة هذا المذهب الذي أسماه الشهيد الصدر بـ «**المذهب الذاتي للمعرفة**» يعد واحداً من أعظم مكتسبات المعقول الإسلامي في العصر الحديث.

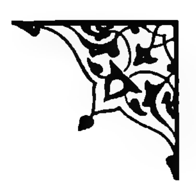




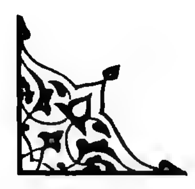
فصل السادس

المنهج في الاحتفالي
(دراسة في فكر الإمام الشهيد الصدر قدس سره)

١ـ المنهج الاحتفالي.
٢ـ المنهج الإحياء.
٣ـ المنهج الدراسة والتأليف.
٤ـ المنهج التقييم.



المنهج الاحتفالي



إن التعبير عن الاعتزاز بالشهيد الصدر ﵀ والانتماء إليه في وجداننا وسلوكنا لم يبرح تلك الأساليب في الأغلب الأعم، وإذا ما تخطى بعضها ذلك فإن ثَمَّةَ أساليب أخرى لا تخرج في منهجها عن الطابع الاحتفالي بشكل عام وإن هي لم تندرج في سياق إحتفالي تقليدي.

فالمنهج الاحتفالي يقوم على أسس التوصيف والإطراء، والخطابية، والانفعال الذي يستهدف شد الجمهور إلى فقرات الحفل وتحريضهم للحظة الراهنة والهدف التعبوي الذي نعيش هاجسه بشكل كبير منذ كنا أصحاب قضية مقصيَين عن وطنهم يرومون العودة إليه منتصرين.

إن ما يصف ما كتب عن السيد الشهيد طيلة الفترة الماضية أنه ظل أسير الطابع الاحتفالي والخطاب التقريري المستطرد في توصيف السيد الشهيد وشمائله أو توصيف كتاباته وعبقريته ونبوغه، على قاعدة الوقوف خلف ذات العناوين الكبيرة التي طرحها السيد الشهيد ﵀ نفسه، فيدخل في فضائها الفكري والثقافي من ذات البوابات التي شيدها فقيدنا الغالي دون أن يستطيع أن يبرح إلى ما سواها، لأنه لا شيء سواها حسبما يظن الكثير منا، فيكتب في الاقتصاد في فضاء اقتصادنا، ويكتب

في الفلسفة من وحي فلسفتنا، ويكتب عن الأصول من ثنايا حلقات الأصول وهكذا دواليك مع مؤلفات السيد الشهيد الأخرى.

إن هذه الحالة وبالوقت الذي أوقفتنا عند حدود العناوين وعند حدود الحالة الخطابية السردية التحريضية المهيمنة على خطابنا الفكري والسياسي، فهي أيضاً قد أفضت إلى نتائج سلبية في واقعها الفكري والاجتماعي وحتى السياسي، وقصّرت بالوقت ذاته بحق السيد الشهيد ﵁ وغمطته قيمته الحقيقية، حيث أنها أختزلت السيد الشهيد ﵁ إلى حدود عناوينه الفكرية الذي طرحها هو، فدارت حولها، وكررت دورانها إلى حد الدوخة والغثيان الأمر الذي أثرَ سلباً على ما كان ينبغي أن يمتد في طوله وعضه السيد الشهيد واقصد أنها قلصت من إمتداده في الزمان وتأثيره في المكان.

أستدل على ذلك بذكر شاهدين:

الأول: لقد قيل ـ أسفاً ـ إن السيد الشهيد ولد في زمانه ومات في زمانه، وإن الزمن قد تجاوزه، وتجاوز أطروحاته وأفكاره، فالماركسية ماتت ومات معها كتاب فلسفتنا، وإن مقولاته الفكرية محدودة، ومن طبيعة المحدود أن تتجاوزه حركة الزمن المتدفقة والمتطورة دوماً.

ومن قال ذلك يضيف: أنه لا يجب أن نتكلس عند حدود السيد الشهيد ـ﵁ بل يجب أن تتجاوزه إلى غيره، فالعصر الآن ليس عصر السيد الشهيد!؟

الثاني: في كتاب صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية، واسمه ـ الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي ، ثمة دراسة تتحدث

عن الحركة الإسلامية في شمال أفريقيا، وفيها إحصاء اختيرت عينته من تونس، عن أهم الكتب الإسلامية المقروءة من قبل شباب الحركة الإسلامية هناك، فجاءت النتيجة إن القرآن الكريم هو أول كتاب مقروء وبنسبة ٧٥٪، وكتب السيد الشهيد ﵀ هي ثاني الكتب المقروءة عند شباب الحركة الإسلامية في تونس بعد القرآن فيما احتلت كتب لمؤلفين آخرين كالشهيد سيد قطب المراحل التالية.

هذا الشاهد يعطي الدليل على أن السيد الشهيد ما يزال يؤثر بقوة في المكان ويحافظ على وجوده فيه.

ومن الأسباب، هيمنة الخطاب السياسي التحريضي الدعائي التعبوي بشكل عام على ساحة المعارضة الإسلامية بحكم إمتداد فعل بالتعارض مع النظام البعثي في العراق وطول مدته، مما استلزم استدعاء بُعد الثورة والتضحية من السيد الشهيد والتركيز عليه دون الأبعاد الأخرى التي حسبها خطابنا السياسي أنها لا تفي بالغرض في هذه المرحلة.

ويبقى السبب الأبرز والأهم في هذه المسالة برأيي هو المنهج الذي استخدمناه في قراءة السيد الشهيد، وفكره وأثره المعرفي والثقافي والذي كان منهجاً ـ إذا ما أردت توصيفه، إتباعياً، تقليدياً تجزيئياً.

فالتباعية وتقليدية المنهج تجعل منا ـ نحن الشرقيين المسلمين نبذل قصارى جهودنا عند إرادة تأبين موتانا والتعريف بعطاءاتهم والتعبير عن الوفاء لهم، أن نستغرق في الرثاء والبكائيات والأوصاف والمديح والشعارات والعويل وما إلى ذلك مما هو مشهود عندنا، وتجزيئيته تجعلنا ونحن نروم قراءة السيد الشهيد ـ﵀، أن نتتبعه خطوة خطوة من بداية حياته وإلى استشهاده، من أول كتاب ألفه إلى آخر كتاب، ومن هذا

العنوان إلى ذلك، فنتمسك بما نشاء، وندع ما نشاء، فيتعسر علينا فهمه خارج ما تمسكنا به من عناوينه الكبيرة، فنقع في حبسها، ولا نخال أن خلفها ثمة أشياء وأشياء، وموضوعات، وسنكون في خضم هذا المنهج عاجزين عن قراءة السيد الشهيد، فضلاً من معرفته، والتعريف به، وإذاً كيف سنكتشف ما اختفى خلف طبقات عناوينه، وفي ثنايا ما خطته يده المباركة، وانتشر في الآفاق...؟

لابد من منهج آخر نقرأ فيه فقيدنا فكراً وسلوكاً ومواقف، منهجاً يمكننا بما فيه من أدوات من اكتشاف السيد الشهيد محمد باقر الصدر ومعرفته لإغناء حياتنا الفكرية والثقافية بمعطياته، ولتحريك واقعنا المرتبك على غرار ما يتحرك فيه واقع الإسلاميين في دول شمال أفريقيا العربية التي قرنت السيد الشهيد بالقرآن أو جعلته بعده مباشرة من حيث المطالعة والاهتمام والتأثر.

أن رجلاً مثل السيد الشهيد، لا يقرأ بمنهج وأدوات من خارجه، ولابد من استعارة المنهج منه، لاكتشاف منظومات فكرية ومعرفية جديدة انتشرت في كتبه وخطاباته ومحاضراته، وستجد لها المزيد من العناوين التي ظلت تائهة في مجالنا الخاص، رغم أنها سجلت حضوراً في المجالات الأخرى من خلال ملئها بالأفكار فيما يخص قضايا المجتمع والنهضة الذي سطعت فيه أسماء بارزة ومعروفة.

إننا مضطرون إلى ذلك، لأن يد الغدر الآثمة لم تمهل فقيدنا لكي يملأ الفراغات المتروكة، ولهذا سنتجه للتنقيب عن بعض الأفكار والمقولات في فكرة فنشيد على أسسها الأبنية التي تحتاجها الأمة، ويسعفنا في ذلك ثراء وغنى الفكر الذي طرحه السيد الشهيد والذي لا يزال مطموراً في تراثه المتروك لنا. وحينئذ لابد من طرح منهج آخر في قبالة المنهج

الإتباعي التقليدي التجزيئي الذي قُرئ فيه السيد الشهيد طيلة الفترة الماضية، وهو المنهج الموضوعي الّذي يتأسس على فكرة استنطاق تراث السيد الشهيد الفكرة حول موضوعات مأخوذة من الخارج وطرح التساؤلات عليه، والبحث عن أجوبتها في ثنايا بحوثه ومؤلفاته ورسائله ومحاضراته ومواقفه.

لقد كتب بعض الباحثين في فكر السيد الشهيد موضوعات أُعتمد في إنتاجها على هذا المنهج، فطرحوا التساؤلات والموضوعات المأخوذة من الخارج عليه ونقبوا وبحثوا فجاءت النتائج موفقة.

تساءلوا:

هل ثَمَّةَ نظرية؟ سياسية عند السيد الشهيد؟
هل ثَمَّة فكرٌ ومقولات نهضوية عند السيد الشهيد؟
هل ثَمَّةَ قواعدُ ونظرية في الثورة والتغيير الاجتماعي عند السيد الشهيد الصدر رضوان الله عليه؟
ما هي نظرية السيد الشهيد في الدولة الإسلامية؟
ما هي نظريته في مسألة العلاقة مع الغرب؟
ما هو رأيه في مسألة المرأة؟
كيف يتطور العالم وما هي نظريته في تطور المجتمع الإنساني؟

وهكذا عشرات بل مئات من الأسئلة والموضوعات التي لم يبحثها السيد الشهيد بشكل مستقل ويخصص لها عناوين رئيسة يمكن للباحثين أن يكشفوا الإجابات الوافية عنها كما هو قد حصل عند بعض العناوين والتساؤلات الآنفة الذكر حيث طالعتنا دراسات ومقالات ومؤلفات أعطت الإجابة عنها بشكل أو بآخر.

وحري بالعلماء والمثقفين والباحثين أن يعتمدوا هذا المنهج الموضوعي للتعاطي مع تراث السيد الشهيد ﵀ ليس فقط في ميدان الكتابة والبحث والتأليف، وإنما في سائر الميادين الأخرى بما فيها حتى مراسيم إحياء ذكراه السنوية، حيث ينبغي الانطلاق بها بعيداً عن الأساليب الإحتفالية والخطابية التي استوفت الجماهير حقها فيها من رثائِهِ والبكاء عليه ومعرفة مظلوميته، ولكنها لم تستوفهم حقهم بعد في معرفة أفكاره ومناهجه وعطائِهِ، وصولاً إلى إعتماده مرجعاً فكرياً وحضارياً للأمة.

◉ أما أهم المجالات التي يمكن وضع منهج لها لدراستها فهي:

١ - منهج الإحياء: تقدم الحديث عن المنهج الانتقالي السائد في التعبير عن إحياء ذكرى استشهاد المرجع السيد الصدر ﵀، وعن طبيعة هذا النهج القائم على الخطابية والانفعال والإطراء والرثاء والمديح وتكرار المطالب.

ونحن بالوقت الذي ندعو فيه إلى إتباع منهج إحيائي آخر، لا نعدم المنهج التقليدي السائد، ولا نقلل من شأن فوائده على صعيد شد الجمهور والتأثير في عواطفهم وربما أفكارهم، ولكن هذا المنهج ولأكثر من إيجابياته آنفة الذكر يظل عاجزاً عن التطور وتلبية حاجات الجماهير من الوعي الذي كرَّسه المرجع الفقيد السيد الصدر ﵀ في مجمل نتاجاته الفكرية الثقافية وهي ما تحتاج إلى قراءتها ودراستها من خلال أسلوب يعتمد برنامجاً علمياً متأنياً تُحشَدُ له بعض الطاقات العارفة بهذا النتاج والمهتمة به وهذا ما لا تستطيع الانتقالات العامة من النهوض به.

إن ما نعنيه بالتحديد هو اعتماد أسلوب الندوات المتخصصة لدراسة السيد الشهيد بكافة أبعاده وإبداعاته من خلال ما نطرح من أوراق بحثية تتمحور حول جانب معين يتوزع الدارسين والباحثين على ملء أبعاده المختلفة بالدراسات والبحوث والإثارات المأخوذة من وحي المحور المطروح للدراسة وموضوعاً رئيساً للندوة.

إن أقل ما يمكن أن يتوفر عليه هذا المنهج من نتائج هو العملية في الطرح والنأي عن الأساليب العاطفية التي طفقت مؤسساتنا المهجرية تتبعها طريقةَ الإحياء ذكرى المرجع الفقيد، مما سيوفر لنا تراثاً ضخماً من الأفكار والإبداعات والرؤى والتصورات، فيزيد هذا التراث في اكتشاف السيد الشهيد، وتطوير الوعي الإسلامي عامة، واستثارة الأذهان وتحفيز القابليات لإبداع مماثل، أو لبناءات جديدة فوق ما تم اكتشافه من أسس فكرية ومفهومية ومسلكية ظلت غائمة أو مجهولة لدى غير الدارسين والعارفين بالسيد الشهيد الصدر ﵀ وبالإضافة إلى ذلك فإن إتباع منهج الندوات الدراسية ـ بحفز الساحة لتلقي هذا الأسلوب الجديد والتفاعل معه والانفعال به مما سيؤسس لوعي ـ انتقالي ـ آخر، نأمل أن يحتل مواقع الأساليب القديمة التي ما عادت تلبي حاجات مجتمعنا في مثل هذا الموضوع، ولربما أعطت نتائج عكسية وسلبية بسبب ما يتضمنها من انفعال وارتجال، وربما استغلال مقصود يسخر لأغراض سياسية وجهوية يتم بموجبه تسخير السيد الشهيد ـ﵀ لأغراض خاصة تعتمد التزييف، تزيفه هو، قبل تزييف عقول الجماهير..

بالإضافة إلى ما تضفيه هذه الاحتفالات من مناهج تجزيئية تشطر السيد الشهيد إلى عدة أقسام مطوعة حسبما تقتضيه مصالح الجهة صانعة الاحتفال، وبالتالي تشطر وعي الجمهور تبعاً لهذا المنهج، وتشطره ذاته ـ أي الجمهور ـ تبعاً لتعددية الاحتفالات وجهاتها الصانعة والراغبة لتعبئة

الجمهور لصالحها.

إن المنهج العلمي المطروح أسلوبا لإحياء ذكرى السيد الشهيد ﵀، سوف يؤول حتماً إلى إحياء فكر السيد الشهيد ومنهجه في العمل والسياسة والإبداع والأخلاق، وسوف يصمد أمام عمليات التطويع والتسخير والتملك ـ التي يمارسها المنهج الاحتفالي السائد، لأن الطرائقية العلمية التي تبعها أسلوب الندوات، سوف تستعصي على كل ذلك لسبب بسيط هو إن المنهج المتبع ـ المقترح ـ فيها عصيٌّ على التسخير، ويستبطن التنوع، ويعتمد الاستقراء والنقد والتمحيص، فأي شيء بعد ذلك يظهر غير السيد الشهيد نفسه.

٢ ـ منهج الدراسة والتأليف:

المنهج الذي اتبع في ما مضى من الزمان في مجال دراسة السيد الشهيد الصدر ﵀، أو التأليف عنه، أو في نطاق تقويم إبداعاته الفكرية، لم يبرح الجهود الفردية والشخصية للدارسين والمؤلفين سواء من جهة طرحها مشاريعَ، أو من جهة التنفيذ، وهذا ما يؤدي إلى جملة سلبيات نوجز بالذكر منها:

أ ـ إن الجهد الفردي في طرح المشاريع وتنفيذها يتميز بالمحدودية وغلبة النظر الشخصي عليه، مما سيفقده جانباً مهماً من الموضوعية والشمول والمتانة.

ب ـ إن الجهة الفردية في الدراسة والتأليف، قد تلتقي عند موضوع معين من غير سابق قصد أو اتفاق، فتكثر في هذا الموضوع النتاجات وتبعاً لذلك تظهر التباينات بين المؤلفين واختلاف وجهات النظر والتقييم

رغم أنهم جميعاً قد كتبوا في موضوع واحد عن السيد الشهيد، وابرز مثل على ذلك ما نشاهده من وفرة فيما كتب في المجال الاقتصادي بإستيحاء من اقتصادنا، أو فيما كتب في رؤى ونظرية السيد الشهيد السياسية، بحيث إن القارئ ليحار في فهم نظرية السيد الشهيد السياسية التي تمتد حسب ما كتب من إيمانه بالحزب القائد إلى ولاية الفقيه قيل المطلقة وقيل غير المطلقة، إلى الجمع بين الشورى وولاية الفقيه... إلى الديمقراطية!!.

ج ـ إن الجهود الفردية ـ غير المتفقة ـ سوف تهمل جوانب كثيرة في فكر السيد الشهيد ﷺ وشخصيته، فلا تتناولها بالدراسة أو التأليف عنها، أما لأنها لا تحظى بأهمية عند الدارس أو الباحث، وأما لأنها عسيرة الفهم عليه، أو لأنها غير مكتشفة لديه.

د ـ إن الجهة الفردية قد تقوم بمشاريع كبيرة في هذا الاتجاه، كما في جمع تراث السيد الشهيد الصدر ﷺ لإصداره كموسوعة وما شابه ذلك، لكن الميزة التي تبقى ملازمة لهكذا مشاريع هي البطء، واحتكار التراث وعدم الإلمام به، مما يؤدي إلى حرمان الدارسين من أهم الوثائق التي استحوذ عليها المشروع والذي لا يُعلم كم من الزمن سيستغرق حتى ترى النور فقد مضى أربعة عشر عاماً على بعض هذه المشاريع ولمّا تَزَل قيد العمل والتنقيب والجمع والاحتكار.

أما المنهج المقترح بهذا الصدد فهو:

ما نعبر عنه بالمنهج الجماعي أو المؤسساتي للدراسة والتأليف، حيث إن هذا المنهج، وبالإضافة على أنه لا يحتوي السلبيات آنفة الذكر، فأنه سيتوفر على دراسة السيد الشهيد والتأليف عنه من وحي رؤية مدروسة

وناضجة وملتزمة تستند إلى مؤسسة توظف لها إمكانات وطاقات متنوعة ومتخصصة في هذا المجال.

وسنوضع خارطة بحثية مدروسة يتم تنفيذها على مراحل وبمنهج دراساتي موضوعي استيعابي شامل.

وسوف يتم التخلص من ظاهرة بطء المشاريع وأُحادية النظرة فيها، وتخليصها من التأثيرات الشخصية وما إلى ذلك.

إن مشروعاً مثل هذا وللأسف الشديد ليس لم يوجد فقط وإنما حتى لم يُفكر به على هذا الحين، رغم إن ساحتنا المهجرية لم تزل تعصف بها السباقات المحمومة لتأسيس المزيد من المؤسسات والفعاليات ذات الطابع السياسي أو المذهبي... الخ.

وأكثر هذه المؤسسات هي مشاريع فردية أيضاً، فبقيت تحمل جانب الفردية السلبية ولم تأخذ المنهج أو الأسلوب المؤسساتي.

منهج التقييم ودراسة منهجه الإبداعي:

كان يخيل لبعضنا عندما يقول إن المرجع الشهيد محمد باقر الصدر رحمه الله، عبقري، ومفكر ومبدع، إنه بلغ حقيقة السيد الشهيد ـ رحمه الله، وقد عرّف بها وعندما تتكرر هذه المعاني على لسان الخطباء والشعراء وأقلام الكاتبين يحصل الشعور نفسه.

علماً بأن تقرير هذه الأوصاف لا يضيف للسيد الشهيد ميزة، ولا للأمة وعياً جديداً، ولا للباحثين ثقافة هم بحاجة إليها، ولكن عندما

تقلب هذا المنهج الشكلي إلى آخر يغوص في الأعماق سوف يمتلئ الجميع بمعطيات الشيء المُستكشَف، ولعل شيوع ذلك المنهج راجع إلى تعطل الدراسات أو اختفائها في مجال الكشف عن منهج السيد الشهيد المتّبع في الدراسات والبحوث والمجالات الإبداعية، فالشهيد الصدر لم يبدع لأنه مجرد متفوق على نظرائه بالذكاء المبكر وحسب، وإنما إبداع لأنه اعتمد منهجاً خاصاً جمع فيه بين الاتجاه العلمي والموضوعي في المجالات البحثية والدراساتية وبين الاتجاه النقدي والاستقرائي لتمحيص الأفكار والنظريات، وبين الأصالة والرجوع إلى المنابع وفق رؤية استكشافية عقلية اعتمدت قراءة المعطيات مهما كانت قراءة تجريدية دونما مسبقات أو تصورات منمطة، وقبل ذلك كله فالمعطى الشخصي ذاته له ـ رحمه الله ـ جاء متناسقاً مع ما أسلفنا بحكم النشأة العلمية والنبوغ المبكر وحسب المطالعة الذي بلغ به.. المطالعة يومياً وفي جميع الظروف والأحول، حوالي ١٦ ساعة تقريباً كما أدلى بعض المقربين له بهذا.

إن محاولة اكتشاف منهج المرجع الشهيد محمد باقر الصدر ـ رحمه الله ـ الإبداعي يحتاج إلى تظافر جهود دراساتية، وباحثين لهذا الفرض، ولكن عدم تحقق ذلك راهناً لا يمنع من إعطاء الرأي في هذا المجال.

والمتصور إن منهجه الإبداعي يقوم على النقاط التالية:

١ ـ قراءة الفكر الآخر قراءة متأنية وعميقة ونقدية بغية استكشافه أولاً وتشخيص نواقصه وعيوبه ثانياً، وتأسيس رؤى جديدة مغايرة وأكثر نضوجاً ثالثاً.

ويمكن اكتشاف هذا الأمر في قراءته للفلسفة الماركسية وللاقتصاد

الماركسي، وعرضه، نعم نقده لهما بموضوعية وعلمية إكسبته احترام حتى الماركسيين ـ المنصفين .

٢ ــ التوفر على استيعاب المادة موضوع الدراسة والإبداع من مصادرها الرئيسة ومحاكمتها في ضوء أساسياتها هي لا في ضوء مبادئ وأساسيات أخرى.

٣ ــ اعتماد المنهج الاستقرائي في تقويم الأفكار والوقائع.

٤ - الموضوعية في التقويم وعدم المبالغة والاسترسال في توصيف الأشياء والحكم عليها أو لصالحها حتى لو كانت منسوبة إليه. وهذا ما جعل باحثاً عربيا يطري عليه بقوله: تجدر الملاحظة هذا إن فقيهاً ومفكراً إسلامياً كمحمد باقر الصدر، كان قد نبه إلى ضرورة الانتباه إلى هذه المسألة لجهة عدم الانزلاق إلى القول بعلم اقتصاد إسلامي، فقال بوجود مذهب اقتصادي إسلامي على موازاة مذهب الاشتراكية ومذهب الرأسمالية.

أما العلم كموضوع ومنهج وطرائق تجريبية واستدلالية فهو مستقل نسبياً عن المذهب، كما إن المفكر نفسه سبق ونبّه الذين يحاولون أن يتعاملوا مع القرآن الكريم ككتاب علمي، بقوله:

إن القرآن هو كتاب هداية للسلوك الإنساني والأخلاقي والاجتماعي، وليس كتاب علوم تستخرج منه النظريات العلمية على اختلافها.

٥ ــ الشمولية في النظر والتكامل في الرؤية لموضوع الدراسة، لا ينعزل الاقتصاد مثلاً عند السيد الشهيد عن باقي الأحكام والقواعد

الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والأمر نفسه مع باقي الأشياء الأخرى.

٦ _ المطالعة أكثر من الكتابة.

٧ _ الاستقلالية عن المؤثرات الخارجية والغريبة على موضوع الدراسة أو البحث واعتماد منهج ذاتي للدراسة حسب الموضوع، فالموضوع الإسلامي يبحثه على وفق منهج إسلامي بحت، والبحث القرآني على وفق رؤية قرآنية صرفة، والاجتماعي وفق معطيات اجتماعية، وهكذا دواليك.

فلا تتداخل المناهج لديه، ولا يحمل موضوعاً ما عسف موضوع آخر أو رؤية غريبة على جنس الموضوع إلا إذا كان ثَمَّةَ ربط بينهما.

❋❋❋❋❋❋



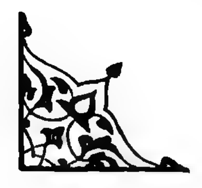
الفصل السابع

قراءات في حركة التجديد وفي الأسس المنطقية للاستقراء

١ــ حركة التجديدية في فكر الصدر.
٢ــ قراءة في الأسس المنطقية للاستقراء.



قراءات في حركة التجديد وفي الأسس المنطقية للإستقراء



حركة التجديدية في فكر الصدر:

فإن العالم الإسلامي قد واجه خلال ثلاثة قرون من الزمان ثلاثة مستويات من الغزو؛ الغزو السياسي، الغزو العسكري والغزو الثقافي. وإذا كان الغزو السياسي قد باشره جواسيس الغرب في بلاد المسلمين أو عملاؤهم كالسلاطين والولاة والضباط، والسفراء والشركات التجارية، وإذا كانت الحملات العسكرية قد اضطلعت بدور الاحتلال لبعض الثغور والأقاليم الإسلامية، فأن هذين اللونين من ألوان العدوان الغربي على بلادنا كانا يمهدان لغزو ثقافي واسع يُلغي الثقافة الإسلامية، بل والطابع الشرقي العام.

وإذا قرأنا تاريخ المنطقة بتأمل بكل ما حوى من آلام وتفتن على مدار ثلاثة قرون من الزمان أو يزيد، لوجدنا إن أخطر ما واجهه المسلمون والشرقيون عموماً هو الغزو الثقافي الغربي لبلداننا، بيد أن التبشير والثقافة الغربية لم يحققا خطواتهما نحو النجاح إلا عندما وجدا ولاة عملاء أيام الحكم العثماني مثلاً، من أمثال ـ إبراهيم باشا ـ في بلاد الشام حيث انطلق المبشرون في عملهم في تلك البلاد في ثلاثينات القرن التاسع عشر، وفي

مصر أيام العميل الفرنسي محمد علي باشا الكبير ـ كما يسميه التاريخ ـ كما لم ينتشر نفوذ الثقافة الغربية في بلاد المسلمين كذلك إلا تحت رعاية الغزو العسكري كما جرى ذلك في بلدان المسلمين التي سيطرت عليها الجيوش الغربية، كما هو الحال في بلاد الشام والجزائر وغيرها...

وبحركة ثقافية واسعة تملك أرصدة واقعية ضخمة كالتبشير وحركة الإستشراق، والحركة التعليمية التابعة لأهداف الغزاة بكل مظاهرها ومصادرها ومواردها من المناهج إلى المادة التعليمية، ومن ثمَّ المدرس والمعلم إلى البعثات الدراسية إلى أوروبا.

وبهذه الحركة التعليمية، المخططة الواسعة المدعومة بأنظمة سياسية مدججة بالسلاح ومدعومة من قوى النفوذ العالمي، وقعت الهزيمة الفكرية والثقافية في بلاد المسلمين، وانتصر الغالب على المغلوب في ثقافته وأفكاره إلى درجة خطيرة، خلافاً لما كان عليه المسلمون أيام الغزو المغولي المدمر لبلاد المسلمين، حيث ما إن توقف اندفاع المغول، حتى انتصر المغلوب على الغالب، فاعتنقت جيوش التتار دين الحق، وخلعت وثنيتها لتدخل أفواجاً في دين الله تعالى وانصهر الغزاة في الأمة الإسلامية، وساهموا في بناء الكيان العام للأمة.

لقد ظهر في بلاد الأناضول ـ ضياء اليسع كوك ـ منظراً للذوبان والتبعية الثقافية، وظهر كمال أتاتورك منفذاً لأفكاره بإصرار أهوج يشبه إصرار البعثيين وأمثالهم من أصحاب الهوس التقدمي الثوري! وظهر في مصر سلامة موسى ، وقاسم أمين، ولطفي السيد، وطه حسين، وعلي عبد الرازق هؤلاء كانوا عصارتهم، بل حصيلة أفكار المهزومين والعملاء الفكريين الذين ذكرتُ بعضهم.

لقد حاول طه حسين أن يهز أركان الإعجاز القرآني بكتابه الشعر الجاهلي، ثم دعا صراحة لتغيير هوية مصر في مشروعه الثقافي اللاهث خلف الغرب مستقبل الثقافة في مصر وكان عبد الرازق قد شكك أن يكون في الإسلام نظام حكم وبذل جهداً ن أجل تكريس هذا الاتجاه في كتابه نظام الحكم في الإسلام، وتناول آخرون جوانب أخرى.

وقد بلور ـ ساطع الحصري ـ البديل القومي للإسلام في ضوء ثقافته الغربية وتطلعاته شطر أوروبا، وشهد العراق أمثال ـ منيف الرزاز ـ والياس فرح ـ و ميشال عفلق ـ وهادي العلوي ـ وأنيط تنفيذ المشروع إلى ـ أحمد حسن البكر ـ وصدام حسين ـ منذ نهاية الستينات إلى يوم سقوط الصنم في بغداد عام ٢٠٠٣.

وفي بلاد المسلمين الأخرى أمثلة حية لهذه المسيرة الذليلة الجبانة.

ثانياً: المسلمون في موقع الدفاع:

الحديث هنا يدور حول المواقف الثقافية لا المواقف السياسية ولا البطولات العسكرية للمسلمين.

لقد تنبه المسلمون رويداً رويداً إلى المؤامرة، فهبوا في وجه العدوان الثقافي، فحفروا الخنادق الدفاعية، وهكذا ظهرت مجموعة كبيرة من التأليف ونُشِرت كثير من الأفكار الدفاعية الخجولة أو المنفعلة بالواقع، لذا، فقد شهدت الأربعينات من هذا القرن والخمسينات نمطاً من الفكر الدفاعي على المستوى العلمي أو الفكري.

فقد ظهرت كتابات تفسر آيات من القرآن الكريم تفسيراً علمياً،

طبق النظريات التي تتداولها ألسنة الغربيين أو تصوراتهم، كتفسير آيات في النظرية السديمية أو في الجاذبية أو كروية الأرض أو نظرية لا مارك أو دارون، حتى لوى بعض عنق الآيات، ففسروها بالصواريخ والذرة وما إلى ذلك، كل ذلك من أجل أن يبرهنوا أن الإسلام والقرآن قد حمل ما وصل إليهما العلم الحديث كذلك...[1].

وعلى مستوى الفكر والتشريع جرت عمليات مشابهة لكنها من نمط آخر، فقد ظهر الحديث على ألسنة المفكرين والكتاب المسلمين عن الاشتراكية الإسلامية، والديمقراطية في الإسلام، كما تأثر بعض في أحاديثهم عن الإسلام بتفصيلات تلك المذاهب الإجتماعية ولك أن تقرأ مثلاً كتاب: ـ اشتراكية الإسلام ـ للدكتور مصطفى السباعي ـ ديمقراطية القومية العربية ـ الدكتور عبد الله العربي، والإسلام بين الإنصاف والجحود ـ الدكتور حسن عبد الغني حسن، والمجتمع الإسلامي بين النظرية والتطبيق ـ للبهي الخولي، بل في علمائنا من ظهر على لسانه مصطلحات العروبة، والاشتراكية والديمقراطية وما إلى ذلك.

وهكذا كان أسلوب الدفاع لدى المخلصين من أبناء الأمة لعقدين من الزمان أو أكثر يدفع على تكييف الإسلام وقيمه حسب الموجات العلمية والفكرية التي زخر بها العالم يومذاك، وربما أدى ذلك التخبط المُدافع إلى تقلبات في التفسير لموضوع واحد غير مرة في فترات متقاربة حسب الموجات الفكرية والموضة التي تعم البلاد[2].

---

(١) المجتمع الإسلامي بين النظرية والتطبيق / البهي الخولي، اشتراكية الإسلام / الدكتور مصطفى السباعي.

(٢) الإسلام بين الإنصاف والجحود / الدكتور حسن عبد الغني حسن، ديمقراطية القومية / د. عبد الله العربي.

ثالثاً: في خندق الهجوم:

ومنذ منتصف الخمسينات صار مسار الحركة الثقافية يتجه من خندق الدفاع إلى خندق الهجوم. فقد ظهرت بوادر هذا التحول في أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات في كتابات الشيخ ـ عبد الأعلى المودودي ـ في كتاب ـ الربا ـ والدستور الإسلامي ، وموجز ـ تجديد الدين وإحيائه ـ وما إلى ذلك، وتأثر بهذا المشروع قلم ـ سيد قطب ـ فكتب ـ العدالة الاجتماعية ـ وموسوعة ـ في ظلال القرآن ـ وخصائص التصور الإسلامي والسلام العالمي والإسلام ـ وختمها بـ ـ معالم في الطريق ـ وفي هذه المرحلة، أي في أوائل الخمسينات ظهر ـ الشيخ النبهاني ـ في ـ المذهب الاقتصادي في الإسلام ـ ونظام الحكم في الإسلام ـ وغيرها.

وظهر ـ الشيخ المطهري ـ في إيران. بيد أن ظهور هذه المؤلفات والأبحاث قد رافقه في الجانب الآخر تصاعد الهجمة لأتباع الحضارة الأوربية بشطريها الشرقي والغربي، حيث انتشر الفكر الماركسي والاشتراكي والفكر الاشتراكي الديمقراطي، وثقافة اليسار العربي، والدعوة إلى الديمقراطية وما إلى ذلك بشكل خطير، حتى إنك لا تكاد تجد في تلك المرحلة ولا تسمع غير نتاج هذه الموجة الفكرية العاتية.

ولقد كان العراق في الخمسينات ومطالع الستينات من أسوء البلدان في المنطقة من ناحية فَقرِهِ للثقافة الإسلامية الحديثة التي تستجيب لطموحات المسلم المعاصر.

لقد كان الشباب في تلك المرحلة لا يكاد يجد عن الإسلام غير الأبحاث الحوزوية التخصصية ذات الأسلوب التقليدي غير المنسجم مع ذوق العصر، أو الدراسات التاريخية التقليدية وإذا وجد شيئاً، فأنه

يجد بعض مؤلفات سيد قطب مثلاً، رغم قصورها عن الاستجابة للطموح بدرجة ما.

لقد أعلن المرحوم ـ الشيخ كاظم الحلفي ـ المشرف التنفيذي لمجلة الأضواء التي صدرت عام ١٩٦٠م في كراس له اسمه ـ الله وأسماؤه الحسنى ـ طبع في بداية الستينات، إن بعض شباب جامعة بغداد الشيعة يتأثرون بتأليف الشيخ النبهاني ككراس ـ الخلافة ـ سيَء الصيت، ولقد أعلن المرحوم آية الله ـ السيد محمد جمال الدين الهاشمي ـ في مقدمة كتابه ـ أصول الدين الإسلامي ـ عن عمق الصدمة التي ألمت بالأخيار من العلماء والمؤمنين حين فوجئوا أن المواكب الحسينية بعد ثورة تموز عام ١٩٥٨م كانت تشيد بالديمقراطية والاشتراكية.

وكانت المشكلة الرئيسة التي تعانيها الأمة، خصوصاً الأجيال المتطلعة، في منهج عرض الإسلام وقيمه وأحكامه لا في المضمون، فمضمون الإسلام محفوظ في القرآن والسنة وتصانيف العلماء، ولكن المنهج الذي كان يعرض المضمون لا يتناسب وروح العصر الحديث أبداً.

رابعاً: السيد الصدر ضرورة المرحلة:

وفي هذه المرحلة العصيبة من تاريخنا وفي أواخر عقد الخَمسينات وبداية الستينات على وجه التحديد، حيثُ النكوصُ والتراجعُ أمام الثقافة الوافدة، مما لا يدرك أبعادها إلا من عاش تلك الفترة الزمنية الرهيبة.

وفي هذه المرحلة لمع نجم المفكر العملاق السيد محمد باقر الصدر رضي الله عنه، الذي حمل أعباء مواجهة المذاهب الاجتماعية الأوربية بكل

أسسها ومفاهيمها بجدارة مستفيداً من تجارب الماضين والمعاصرين له من المفكرين والفقهاء، ومضيفاً إلى ذلك من نتاجات عبقريته العملاقة التي تميزت بالقدرة على البلورة والعطاء وفهم خصائص العصر وأدواته.

وهكذا وفّق هذا المفكر العملاق أن يهاجم المادية في رؤاها العامة، ومرتكزاتها الأساسية في كتاب ـ فلسفتنا ـ كما فعل في هجومه على البنية التحتية للفكر الماركسي وأطروحة الديمقراطية الرأسمالية كما تجلى ذلك في كتاب ـ اقتصادنا .

وبعد تفنيد الخصائص المذهبية للمدرسة الاشتراكية وخصائص المدرة الرأسمالية الديمقراطية عمد على بلورة المذهب الاقتصادي للإسلام من خلال بلورة قضية الملكية، والأرض والتوزيع ودور السلطة في عملية توزيع الثروة، والمشكلة الاقتصادية والموقف من علاجها.

وهكذا وفّر المفكر الشهيد الصدر مفردات عصرية للخطاب الإسلامي، تحتفظ بأعلى درجات الأصالة، وتتسلح بأحدث وسائل المعاصرة، وقد تميزت نتاجات السيد الصدر رضي الله عنه بالمنهجية العلمية التي لم تتوفر عند أغلب المفكرين المسلمين المعاصرين، الذين يجنح أكثرهم على الأسلوب الخطابي، والاستغراق في المنهجية الأدبية، دون أن يعتمد نهجاً علمياً صارماً كما وفق له سيدنا المفكر الكبير ـ رضوان الله عليه.

إن هذا الخطاب الثقافي العملاق، الذي وفره السيد الشهيد الصدر رضي الله عنه للنهضة الإسلامية وللثقافة الإسلامية المعاصرة في مضمونها المبلور المميز وفي أدواتها التعبيرية الكفوءة وفي منهجيتها العلمية العصرية الواثقة...

إن هذا الخطاب لم يشعر بقيمته إلا من عاش فترة الستينات في العراق، حيث تلتهب الساحة يومذاك بصراع فكري رهيب بين أنصار الاشتراكية الماركسية والديمقراطية والقومية وقبالهم أنصار النهضة الإسلامية كل بأدواته التي يملك.

ولم يكن للإسلاميين يومذاك سلاح فاعل ومضمون مبلور قبل ظهور فلسفتنا واقتصادنا ـ لقد كان اقتصادنا وغيره بحق سيفاً ـ وأي سيف ـ شهره الإسلاميون العاملون ببسالة واثقة في وجوه أنصار الفكر الوافد الرخيص... ولعلي لا أبالغ إذا قلت: إن شطر ما حققناه من نصر فكري في الستينات كان بذلك الحسام الذي جرّده السيد الشهيد محمد باقر الصدر ﵀ من غمده.

وهكذا، فليس خيالاً مجنحاً، ولا أماني عريضة أن ندعي أن منهجية السيد الصدر ﵀ في نتاجه الفكري عموماً والطريقة التي انتهجها لمواجهة الحركة الثقافية التغريبية في منحنياتها الإسلامية لم يألفها الخطاب الثقافي الإسلامي في المنطقة الإسلامية كلها.

فلقد عبّرت نتاجاته الفكرية العملاقة عن عبقرية الثقافة الإسلامية أصالتها وقدرتها على مواجهة الغزاة بطريقة لم تواجه بها ـ ثقافة ـ الرجل الأبيض! منذ جاست جحافله خلال الديار الإسلامية المقدسة.

وحيث اكتشف رجال الإصلاح في الأمة منذ عقود من الزمان أن الهزيمة أكبر مما يتصور، وإن تيار الغزو الأوربي وإمكاناته المتاحة أكبر بكثير من إمكانات الأمة المسلمة، فلابد من مرحلة إعداد قبل المواجهة ولابد من بناء الأمة داخلياً، ومدها بأسباب الفعل والقوة وهكذا اتجهت آليات الخطاب باتجاه البناء الداخلي لتوفير مقومات المواجهة

الحقيقية وقد تناولت أساليب خطاب النهضة في هذه المرحلة مجموعة من الأمور:

١ ـ الوعي لملابسات المرحلة، والظروف التي ألمت بيد سقوطها ضحية بيد الجزار.

٢ ـ مواجهة الثقافة الأوربية بالثقافة الإسلامية بديلاً حضارياً.

٣ـ خلق تيار داخل الأمة يتسلح بذلك الوعي وتلك الثقافة.

وفي مرحلة تمسك المصلحين المسلمين بهذه المحاور بعد تبلورها في أذهانهم في ضوء كفاحهم المرير من أجل استئناف مسيرة العودة إلى الإسلام والحضارة الإسلامية.

في هذه المرحلة لمع نجم المفكر الشهيد الصدر ـ﴿رضي الله عنه﴾ وشمر عن ساعد الجد للمساهمة في حركة الخلاص.

فما هي تصوراته لعملية التغيير الذي يتحقق فيه بناء الأمة لكي ينجز مشروع الخلاص؟

هذا التساؤل تحتاج الإجابة عليه إلى معرفة نظرية السيد الشهيد إلى حدود التخريب الحضاري الذي لحق بالأمة وإلى أي مدى نجح الأوربيون الغزاة في النأي بالأمة المسلمة عن الإسلام: آدابه وقوانينه وأحكامه وعقائده..

يقول ـ رحمه الله ـ موضحاً مساحة التخريب الذي لحق بالأمة من

جراء الغزو الأوربي للعالم الإسلامي: أخذ العالم الإسلامي ينفتح على حياة الإنسان الأوربي يذعن لإمامته الفكرية وقيادته لموكب الحضارة بدلاً عن إيمانه برسالته الأصيلة وقيمومتها على الحياة البشرية[١].

وقد عبرت التبعية في العالم الإسلامي لتجربة الإنسان الأوربي الرائد للحضارة الحديثة عن نفسها بأشكال ثلاثة مترتبة زمنياً ولا تزال هذه الأشكال الثلاثة متعاصرة في أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي:

الأول: التبعية السياسية التي تمثلت في ممارسة الشعوب الأوربية الراقية اقتصادياً حكم الشعوب المتخلفة بصورة مباشرة.

الثاني: التبعية الاقتصادية التي رافقت قيام كيانات حكومية مستقلة من الناحية السياسية في البلاد المختلفة وعبرت عن نفسها في فسح المجال للإقتصاد الأوربي لكي يلعب على مسرح تلك البلاد بأشكال مختلفة ويستثمر من موادها الأولية ويملأ فراغاتها برؤوس أموال أجنبية.

الثالث: التبعية في المنهج الذي مارسته تجارب عديدة في داخل العالم الإسلامي.

ويوضح مساحة هذا الانهيار أمام الحضارة الأوربية بما يلي:

فقد استعمل الغزاة الآثمون كل الطرق والأساليب للقضاء على وعي الإسلام في ذهنية الأمة، وحجب أضوائه، وأنواره عنها بما نثروه هنا وهناك من مفاهيمهم وأفكارهم وتشويهاتهم للإسلام المشرق العظيم وهكذا أصبحت الأمة بعد أن نفذ أعداؤها فيها مخططهم الفظيع وهي

(١) مقدمة الطبعة الثانية لكتاب اقتصادنا / للسيد الشهيد _ ١ _ ص: ب.

لا تعرف من الإسلام شيئاً واضحاً محدداً أو تعرف ما زوره المستعمرون من أفكاره وحقائقه.

الطريق طويل لأن ميوعة الأمة التي انحدرت إليها وغرابة المعطيات الإسلامية اليوم على أفكارها وعقولها التي تعودت الابتعاد عن الإسلام في واقع الحياة والاستعمار الغاشم الداهية الذي يقف للأمة بالمرصاد والحضارة الغربية بكل حماتها ودعاتها حواجز في الطريق.

فمن خلال هذه المقاطع من أحاديث السيد الشهيد ﵀ وكتاباته تتجلى تصوراته العميقة لحجم المحنة الحضارية وآثارها في كيان الأمة المسلمة نتيجةً للغزو الأوربي الذي تهاوت أمامه السدود.

ويمكننا أن نسجل تصوره للمأساة في النقاط التالية:

١ ـ إذعان الإنسان المسلم لإمامة الإنسان الأوربي وقيمومته الفكرية والحضارية على حياة الأمة.

٢ - تنازل المسلم عن قيادته للبشرية وشعوره بالضعة أمام الإنسان الأوربي واستلهامه من الحضارة الغازية بديلاً لحضارته الإلهية العظيمة.

٣ ـ التبعية الذليلة للنفوذ الأوربي والقبول بسياسة النهب الاستعماري لثروات المسلمين باستثمار المواد الأولية وملء الفراغات الاقتصادية برؤوس أموال أجنبية إضافة إلى إتباع سياسة اقتصادية استهلاكية خاصة.

٤ ـ غياب وعي الأمة عن معرفة الإسلام وحقائقه وأهدافه في إشارة

الحياة وصنع المجد وإقامة صروح الحضارة الإلهية.

٥ _ غرابة المعطيات الإسلامية عن الأمة والتعود على الابتعاد عن مفاهيم الإسلام في الحياة، وقوة النفوذ الاستعماري وهيمنته في بلاد المسلمين إضافة إلى قوة الحضارة الأوربية وتمتعها بالحماية من الأسياد والعملاء السياسيين والمفكرين تشكل جميعاً حواجز في طريق النهضة الإسلامية المباركة.

وفي خضم هذا التحديد يتناول المفكر العظيم ـ رحمه الله دراسة الشروط الموضوعية لقيام أية نهضة حقيقية على ظهر هذا الكوكب ثم حياكم هذه الشروط ويدرسها في ضوء واقع الأمة المعاش، ويحدد ما تفتقر إليه هذه الأمة في مشروع نهضتها المطلوبة.

ففي بحثه المعنون ـ الشروط الأساسية لنهضة الأمة الذي كتبه مفتتحاً به أول عدد من مجلة الأضواء النجفية المباركة الذي صدر في التاسع من حزيران عام ١٩٦٠م أي قبل ثلاثين عاماً من الزمان يسجل المفكر الشهيد رحمه الله ثلاثة شروط لنهضة الأمة الحقيقية هي:

١ _ المبدأ الصالح.

٢ _ الإيمان بذلك المبدأ

٣ _ وفهمه.

وبعد دراسة هذه الشروط في ضوء الواقع المعاش للأمة يخلص المرجع الشهيد قدس سره، إلى أن الأمة تمتلك المبدأ التصالح المتمثل بالرسالة الإسلامية في قيمها ومبادئها وقوانينها وهي تؤمن بها وتقدسها، غير أن إيمان الأمة برسالة الإسلام يعتريها الضعف والسطحية والغموض ويعزو السيد الشهيد هذه الظواهر في طبيعة إيمان الأمة برسالتها إلى

سوء فهمها إياها، وعدم إدراكها لحقائقها وغموض أهدافها.

ثم ينتهي رضوان الله عليه إلى حقيقة أن الشرط الأساسي لنهضة هذه الأمة منوط بفهمها واستيعابها لرسالة هذا الدين وحمله مبدأ ومفتاحاً تفتح به كنوز خير الدنيا والآخرة.

يقول ﷺ: وأما فهم الأمة للمبدأ ومفاهيمه وحقائقه، فقد كان هو نقطة الضعف التي نجحت فيها عملية الفصل بين الأمة والمبدأ، فقد استعمل الغزاة الآثمون كل الطرق والأساليب للقضاء على وعي الإسلام في ذهنية الأمة وحجب أضوائه وأنواره عنها بما نثروه هنا وهناك من مفاهيم وأفكارهم وتشويهاتهم للإسلام المشرق العظيم.

وهكذا أصبحت الأمة بعد أن نَفَّذَ أعداؤها فيها مخططهم الفظيع وهي لا تعرف من الإسلام شيئاً واضحاً محدداً أو تعرف ما زوره المستعمرون من أفكاره وحقائقه.

وبهذه الطريقة وجدَ التناقضُ العجيبُ في كيانها فأصبحت لا تفهم الإسلام فهما صحيحاً كاملاً بالرغم من أنها ظلت باقية على إيمانها به، فمسألة الأمة اليوم ـ وهي تملك المبدأ الصحيح وتؤمن به ـ أن تُبل على تفهم إسلامها ووعي حقائقه واستجلاء كنوزه الخالدة ليملأ الإسلام كيان الأمة وأفكارها ويكون محركاً حقيقياً لها، وقائداً أميناً على نهضة حقيقية شاملة. فالفهم العام للمبدأ الإسلامي إذن هو الضرورة الذي تستكمل الأمة به الشروط الأساسية لنهضتها.

لقد أدرك السيد الشهيد ﷺ مكامن الخطر، وأمسك برأس الخيط الذي ينتهي بالمسلمين إلى استئناف المسيرة، وذلك بأن يأتوا البيوت

من أبوابها.

وهنا لسنا بصدد الحديث عن مشاريع السيد الصدر المختلفة الهادفة إلى بلورة وسائل النهضة الجديدة، وإنما يهمنا هنا فحسب الحديث عن حركته التجديدية في مجال الثقافة والفكر والقيم.

لقد كان المفكر الشهيد ﷺ يسعى جاهداً إلى أن يبرز عبقرية الثقافة الإسلامية من خلال عبقرية المنهج وعبقرية الطرح.

لقد كانت الأمة خصوصاً في العراق لا تعاني من عقدة تجاه المضمون الحقيقي للإسلام، إلا أنها كانت تعاني من مشكلة عدم عرض المضمون بأسلوب عصري يفهمه الناس، وهكذا شمّر المفكر الشهيد ﷺ عن ساعد الجد ليعالج المشكلة من أساسها:

أ ـ فبدلاً من أن يتحدث ـ كما تتحدث به المصطلحات الفقهية مثلاً عن آداب التجارة، البيع الفضولي، والخيارات، والمساقاة، والإجارة، وما إليها من معاملات مالية، اتجه رضوان الله تعالى عليه إلى اكتشاف المذهب الاقتصادي في هيكليته العامة، وفي أطر هذه الهيكلية.

ب ـ وبدلاً من أن يتحدث حول المعاملات المحرمة في التجارة مثلاً، يتجه إلى الحديث حول الحرية في الاقتصاد الإسلامي.

ج ـ وبدلاً من الحديث حول البطالة، والفقر وحرمة الكسل عن كسب الرزق يدرس المشكلة الاقتصادية وكيف يعالجها الإسلام.

هذا، ويتجنب السيد الشهيد ـ ﷺ بشكل كامل مصطلحات المذاهب

الأخرى، ويبرز المصطلح الإسلامي والمنهج الإسلامي والمضمون الإسلامي في ثوب مبارك جديد.

لقد حافظ المفكر الكبير على أصالة الشريعة بشكل كامل، مع التماس تجديدي يمتطي صهوة المعاصرة بأعلى درجاتها وأرفع مستوياتها.

قراءة في الأسس المنطقية للإستقراء:

ذكر السيد الشهيد محمد باقر الصدر في ـ بحوث في علم الأصول ـ إن كتاب ـ الأسس المنطقية ـ «**إنما كُتِبَ لملء فراغ عاشه الفكر البشري لمدة ألفي سنة**» هذه بعض تعبيراته كما سأقرأهاً من بعد ذلك.

فهو رحمه الله كان يعتقد بأن هناك فراغاً في نظرية المعرفة هذا الفراغ لم يُملأ من كل الفلاسفة والمناطقة الذين جاءوا من زمن أرسطو إلى يومنا هذا.

والمعروف بأن عملية الاستدلال كما هي المتعارفة في المنطق الأرسطي تسير من الكل إلى الجزء، ومن العام إلى الخاص.

وبعبارة أخرى يقولون إن النتيجة التي تنتهي إليها في عملية الاستدلال القياسي دائماً هي أصغر من المقدمات أو على الأقل تكون مساوية للمقدمات، وعلى هذا الأساس فلو كانت مقدمات الاستدلال من حيث المادة والصورة معاً ـ بنحو القضية الشرطية ـ تامة فلابد أن تكون النتيجة صحيحة وإلا يلزم اجتماع النقيضين.

إذن فالدليل على إنتاجية الشكل الأول، إذا تمت الصيغة المادية

للشكل الأول، هو البداهة من دون حاجة إلى دليل، نعم الأشكال الثلاثة المتبقية ترجع إلى الشكل الأول.

ثم إن اجتماع النقيضين في المادة محال، ومن البديهيات الأولية في الصورة أيضاً عندنا صورة بديهية وهي الشكل الأول، والأشكال الأخرى الباقية الثلاثة بضروبها المختلفة هذه كلها نظرية لابد أن نرجعها إلى الشكل الأول، وإلا فلن تكون منتجة.

على كل حال، في الشكل الأول النتيجة دائماً تكون مستبطنة في المقدمات، فلو كانت المقدمات صحيحة والنتيجة غير صحيحة لكان معنى هذا اجتماع النقيضين، واجتماع النقيضين محال؛ وعلى هذه الأساس فدليل صحة إنتاجية الشكل الأول هو مبدأ عدم التناقض، ومن الواضح أن الفكر الإنساني قائم، بل الوجود قائم على مسألة عدم التناقض.

هذا في مسألة الاستدلال القياسي التي كان السير فيها من الكل إلى الجزء، والجزء مستبطن في هذه المقدمات كالمثال الذي يضربه السيد الشهيد ـ رحمة الله تعالى عليه ـ فيقول بأنّ زيد إنسان، وكل إنسان يموت، إذن لابد أن يكون زيد يموت . ولو لم تكن النتيجة صحيحة زيد يموت أيضاً للزم اجتماع النقيضين.

لأنه مع أنه إنسان يلزم أن لا يكون إنساناً، ومن المحال أن يكون إنساناً وأن لا يكون إنساناً، وعلى هذا المنطق الأرسطي لم تكن تواجهه مشكلة في الوصول إلى النتائج من هذه المقدمات، أي أن المنطق الأرسطي عندما كان يعتقد بأن النتيجة تفيد اليقين كان هذا مبنياً على أساس عدم التناقض فليس هناك مشكلة، إنما المشكلة كل المشكلة في الاستقراء الناقص، حيث نرى إن الإنسان يستقرئ عشرة حالات، عشرين

حالة على مريض أو مرضى معينين فيصل إلى أن هذا الدواء يشفي هذا المرض الخاص، ثم يعطي قانوناً عاماً يقول: كل من استعمل هذا الدواء لهذا المرض يشفى.

مثال آخر يضربه السيد الشهيد: وهو أننا نُجرِّب الحرارة على الحديد، فنلاحظ أن الحديد يتمدد بالحرارة، فنعطي قانوناً عاماً يقول: كل قطعة حديد إذا أحميت بحرارة معينة فإنها تتمدد فالحديد يتمدد بالحرارة.

والآن لننظر إلى المقدمات نلاحظ أن المقدمات أو الحالات المستقرأة والمجربة لا تتجاوز إلا عدداً محدوداً ولم تتناول كل الحالات، وبعبارة أخرى هي حالات جزئية، ولكن النتيجة التي تُستخلص نتيجة كلية، وهذا معناه السير من الخاص إلى العام.

هنا لو فرض أن المقدمات صحيحة والنتيجة باطلة، لا يلزم منه أي إشكال، إذ غاية ما يمكن أن يقال هو أنه قد تكون الحالات المستقرأة والمجربة دلت على أن الحديد يتمدد بالحرارة ـ في حدود هذه الحالات ولكن القانون الكلي ليس صحيحاً باعتبار أن هذه الحالات المستقرأة لعلها تتمدد بالحرارة ولكن الحديد الذي في قمر آخر أو في كرة أخرى لا يتمدد بالحرارة، فلا يلزم عندنا أشكال في مسألة عدم التناقض أو مبدأ عدم التناقض.

ومن هنا فمشكلة الاستقراء لا يوجد لها ضمان علمي بالصحة.

يعني أن النتيجة الكلية التي تؤخذ من مقدمات جزئية لا يوجد أي ضمان منطقي وعقلي لصحتها.

من هنا نجد أن الفكر البشري منذ أرسطو وإلى يومنا هذا، قبل محاولة السيد الشهيد، كان يحاول إرجاع القضايا المجربة والقضايا المستقرأة، إلى قياس خفي غير ملتفت إليه، لأنَّه ما لم نرجعه إلى قياس فإنه لا ضمان لصحة النتيجة المأخوذة.

فلهذا نجد الشيخ الرئيس، وغيره يصرحون بأن القضية التجريبية إنما تعطي نتيجة يقينية إذا كانت تستبطن قياساً خفياً، فإن لم تستبطن القياس الخفي فإن النتيجة ـ غير مضمونة اليقينية ـ لا دليل على صحتها، من هنا نجد المنطق الأرسطي قد آمن بهذه القضية الكلية وهي أنه إذا جربنا عشر حالات من إحماء الحديد بالحرارة ووجدنا أن هذه الحالات العشر من الحديد تتمدد بالحرارة فإننا نجعل هذه الصغرى عندنا كبرى، وهي أن الصدفة لا تتكرر دائمياً ولا أكثرياً، إذن لابد أن توجد علاقة سببية بين هذه المقدمات وهذه النتائج، ـ كلما وجد السبب وجد المسبَّب ـ نلاحظ أن المنطق الأرسطي قد أرجع القضية المستقرأة ونتيجة القضية المستقرأة إلى قياسي، وهذا القياسي يستبطن كبرى، هذه الكبرى يفترض المنطق الأرسطي أنها قضية مسلّمة عقلياً ومن الأوليات، ومن هنا نقرأ في القضايا اليقينية في المنطق الأرسطي أن إحدى القضايا اليقينية القضايا التجريبية.

وفي القضايا المتواترة نأخذ مثالين كي يتضح الموضوع، فلو أخبرنا ألف شخص بأن هناك رسالة سماوية ،أن هناك شخصاً جاء باسم الرسول الأعظم ﷺ فإننا نصدق.

فنحن لا يوجد عندنا دليل على إثبات الرسالة والرسول سوى التواتر، وإلا فلا يوجد دليل آخر من القضايا الحسية أو المشاهدة، فما الدليل على صحة التواتر وعلى حجيته ؟

حجية القضية المتواترة يصورها المنطق الأرسطي ويقول أنه إذا أخبرك ألف شخص بأن القضية الفلانية حدثت فصدِق، لأن هذه صغرى كبراها كلما اجتمع هذا العدد امتنع تواطؤهِم علىِ الكذب، إذن هم صادقون فيما أخبروا، إذن هذه القضية التي أخبِر عنها هي صادقة ومطابقة للواقع.

فالمنطق الأرسطي أيضاً يعتقد بأن القضية المتواترة إنما تفيد الحقانية وتفيد الصحة والمطابقة للواقع إذا كانت تبتني على هذه الكبرى المنطقية، وهي أنه كلما اجتمع هذا العدد من الأخبارات امتنع تواطؤهم على الكذب.

والمنطق الأرسطي يعتبر هذه من البديهيات الأولية التي يدركها العقل الإنساني كما يدرك أن الكل أعظم من الجزء وإن اجتماع النقيضين محال.

أما علة ذكر هذين المثالين فلأن المثال الأول مرتبط بكل العلوم الطبيعية، يعني أننا عندما نرجع إلى كل العلوم والتي تتخذ المنهج الحسي والتجريبي طريقاً للوصول إلى المعارف وإلى اليقين نجد أنها تعتمد على هذه الكبرى التجريبية، ذكرنا مثال التواتر لأن كثيراً من القضايا لم نشاهدها ولكن نؤمن بوجودها على أساس قانون التواتر.

فهذه القضايا لو غضضنا النظر عنها لما ثبت عندنا كثيرٌ مما نعتقد، فلا يثبت عندنا أصل الرسالة، وأصل وجود النبي، وأصل وجود القرآن، وصحة القرآن وأن هذا الذي بأيدينا هو الذي نزل على قلبه رسول الله ﷺ إلا بقانون التواتر، وبحجية التواتر.

ومن هنا نجد أن السيد محمد باقر الصدر عندما وضع يده على هذه المشكلة لم يكن اعتباطاً لأنه إذا نوقش الأساس المنطقي للقضية المتواترة وللقضية التجريبية فهذا معناه أنه لا يبقى عندنا حجر على حجر، إذن ما هو الأساس المنطقي لهذه القضية ؟

السيد محمد باقر الصدر استعرض كل بالمعالجات والنظريات التي ذكرها الفلاسفة القدماء والجدد والمعاصرون، في التأريخ الإسلامي وقبل التأريخ الإسلامي، لمعالجة هذه الثغرة الموجودة بين المقدمات وبين النتائج.

يعني كيف استطعنا أن نتجاوز من مقدمات جزئية لنصل إلى نتيجةٍ كلية؟ ما هو الطريق الذي يسمح لنا منطقياً أن نتجاوز هذه المقدماتَ القليلة حتى نصل إلى نتيجة كلية ؟

السيد محمد باقر الصدر في كتاب الأسس في المقدمة ص ٨ يقول: ونحن في هذا الكتاب إذ نحاول إعادة بناء نظرية المعرفة على أساس معين ودراسة نقاطها الأساسية في ضوء يختلف عما تقدم في كتاب فلسفتنا باعتبار أن كتاب فلسفتنا اعتمد المنطق الأرسطي نفسه لإثبات صحة القضية التجريبية والقضية المتواترة ـ نتخذ من دراسة الدليل الاستقرائي ومعالجة تلك الثغرة ـ يعني ثغرة العبور من الجزئي إلى الكلي، من الجزئيات إلى الكليات ـ أساساً لمحاولتنا هذه.

إذن يتضح لنا بأن السيد محمد باقر الصدر في هذه المحاولة يريد أن يملأ فراغاً وأي فراغ بكتاب الأسس المنطقية ! فلهذا عبرتُ عن الكتاب بأنه ـ لعله أضخم مجهود ـ للسيد الشهيد رحمه الله يفوق كل الأبعاد الأخرى التي تُكلم فيها، باعتبار أنها مشكلة مرتبطة بأساس الدين قبل أن تكون

مرتبطة بالبناء الفوقي للدين، مرتبطة بأساس الدين وحجية الدين.

هذه المحاولات يستعرضها الشهيد ﵀ الواحدة تلو الأخرى وجميعاً يناقشها من الفلاسفة السابقين، يعني من أرسطو قبل ٢٥٠٠ سنة، إلى يومنا هذا، إلى آخر المحاولات الموجودة في الفلسفة الغربية، لردم هذه الثغرة بين المقدمات وبين النتائج، وفي نهاية المطاف يصل إلى النتيجة.

إن المقدمات التي يستعين بها أبحاثٌ مفصلة، ولست بصدد الدخول في هذه الأبحاث التفصيلية للمحاولة، ولكن المهم عندي أن السيد الشهيد ﵀، كما يعتقد هو، استطاع أن يردم هذه الثغرة بلا حاجة إلى القياس الخفي الذي يفترضه المنطق الأرسطي، لأن ذلك القياس الخفي الذي افترضه المنطق الأرسطي للوصول إلى نتائج القضية المتواترة والمستقرأة أو التجريبية نوقش من قبل كثير من الفلاسفة الغربيين، فلهذا حاول أن يوجد طريقاً جديداً وهذا الطريق كان صعباً ووعراً جداً.

قال: عندما انتهيت من هذه المحاولة احتملت أن الفلسفة الغربية والمنطق الغربي وصل إلى النتائج التي قد وصلت إليها نفسها، فطلبت من بعض الأخوة أن يذكروا لي أفضل كتاب يتعرض لكل مباني نظرية المعرفة المعاصرة في الفلسفة الغربية فقالوا لي كتاب ـ المعرفة الإنسانية لبرتراند رسل، سألت عن الكتاب فقالوا الكتاب غير مترجم فطلبت من بعض أصدقائنا في بغداد المتخصصين أن يترجموا الكتاب حتى يمكن الوقوف على آخر النظريات الغربية في نظرية المعرفة.

ولهذا نجد أن أكثر المطالب التي ينقلها في الكتاب هي من نظرية المعرفة لرسل، وأضاف قائلاً:

وعندما راجعت الكتاب والنظريات الغربية لم أجد أي إشارة للنتائج التي انتهيت إليها.

السيد الشهيد افترض مجموعة مصادرات، بعضها مصادرات مرتبطة بالمنطق الأرسطي وبعضها مصادرات مرتبطة بنظريات الإحتمال لعلها تصل إلى عشرة أو اثنتي عشرة مصادرة، هذه مصادرات يفترضها للدخول إلى البحث، المهم أن السيد الشهيد انتهى إلى نتيجة وهي:

إننا نستطيع أن نصل من مقدمات جزئية إلى نتيجة كلية ويحصل لنا يقين بهذه النتيجة الكلية من هذه المقدمات الجزئية بلا مرور على ذلك القياس الخفي الذي استبطنه المنطق الأرسطي ودام عليه الفكر البشري لمدة ألفي سنة.

فلهذا تجد السيد محمد باقر الصدر في تقريرات السيد الهاشمي، الجزء الرابع، ص ١٣٠، يقول: فإن هذا البحث كان منشأً لانتقالنا إلى نظرية جديدة للمعرفة البشرية استطاعت أن تملأ فراغاً في نظرية المعرفة البشرية، لم يستطع الفكر الفلسفي أن يملأه خلال ألفي سنة.

هذا هو مدى إشراقات فكر الشهيد السيد الصدر رضي الله عنه.

وهو عندما يقولها على يقين من أنه كان عنده الإستعداد لأن يقف ويدافع عن كلمته هذه.

والواقع أن السيد الشهيد ـ رضي الله عنه مظلوم في أوساطنا إلى يومنا هذا، إننا إلى الآن لم نقف على حقيقة الأستاذ الشهيد رضي الله عنه، نتصور أن السيد الشهيد قد قدَّم لنا بعض الكلمات في الفقه وفي الأصول، لا، ليس السيد

الشهيد قد أبدع في هذا فقط، أذكر الكلمات التي صدرت عن بعض الأشخاص الذين لم يروا السيد الشهيد ولا علاقة لهم به، ولكن قرأوا بعض فكره فمثلاً أحد المفكرين المعاصرين يقول عن السيد الشهيد ﵀: المحاولة التي بذلها السيد الشهيد في الأسس المنطقية هي أول محاولة من فقيه مسلم على مستوى الفكر الإنساني الرئيس.

من هنا يتضح دور نظرية المعرفة، والمنهج في عملية الاستدلال، والتي تقوم عليها كل العلوم الطبيعية، وإنما يقوم عليها أساس الدين، لأن الدين قائم على أساس حجية التواتر، وحجية التواتر تستمد أساسها المنطقي أما من المنهج الأرسطي في عملية الاستدلال، وأما من المنهج الاحتمالي في عملية الاستدلال، فلهذا إذا أردنا أن نقف على مستوى الاجتهاد ـ على مستوى النظرية لا على مستوى التقليد وأردنا أن نعرف الدليل على حجية التواتر لابد أن نقف على المنطق الأرسطي والإشكالات السبعة التي وجهها السيد الشهيد في أول الأسس إلى المنطق الأرسطي، نعم أثار السيد الشهيد سبع إشكالات على المنطق الأرسطي في هذا المجال.

إذن لابد أن نتعرف على أبعاد هذه المحاولة.

ذكر السيد الشهيد رضوان الله عليه أن هناك مرحلتين:

المرحلة الأولى: هي مرحلة تقوية الإحتمال، من خلال زيادة الاحتمال، وكلما ازدادت التجربة عند الإنسان قوي إحتمال أن هذه النتيجة مرتبطة بهذه المقدمات.

هذه المرحلة الأولى التي يعبر عنها بـ المرحلة الذاتية.

ثم ينتقل إلى المرحلة الثانية وهي: مرحلة الوصول إلى اليقين الموضوعي، ويحتاج فيها إلى بيان المصادرة.

ويمكنِ مراجعة هذه المطالب في الأسس المنطقية نفسها في صفحة ٣٦٦ حيث يبين المصادرة وشروط المصادرة، المصادرة التي يفترضها هي أساس الإنتقال من الحالة الذاتية للنتيجة إلى الحالة الموضوعية، ثم يفسر اليقين الذين يريده، هذا اليقين ليس اليقين الرياضي أو المنطقي، وليس اليقين الذاتي، وإنما هو اليقين الموضوعي فيدخل في تفصيل بيان أقسام اليقين من الذاتي والموضوعي أو الرياضي أو المنطقي وهذا يحتاج على دراسة مفصلة لا يسعها المقام الآن.

النتائج التي انتهى إليها السيد الشهيد ﴿ﷺ﴾

نتيجتان أساسيتان:

النتيجة الأولى: التي انتهى إليها السيد الشهيد من كتاب الأسس:
أنه استطاع أن يكتشف الأساس المنطقي للإيمان بالشهادة وللإيمان بالغيب.

نحن نعلم أنه في الفلسفة المعاصرة أخذ العلم اتجاهاً يُعنى بالتجربة الاتجاه المادي ـ وأخذ الإيمان بما رواء المادة، والإيمان بعالم الغيب، ﴿عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ على حد تعبير القرآن.

وتصور الفكر الغربي أن عالم الغيب، عالم الإيمان بالله عالمٌ منعزل عن عالم الشهادة وعن عالم المادة، فلهذا قال نحن نؤمن بالله ولكن لا علاقة له بعالم بالمادة، هذه القوانين التي تحكم عالم المادة هي بمعزل

عن الله سبحانه وتعالى، أو هذه هي النظرية التي تبحث في الفلسفة بأن هذا العالم يحتاج إليه حدوثاً لا بقاءاً.

وقد طرح هذه النظرية السيد الشهيد ؒ في كتاب الأسس المنطقية واستطاع أن يثبت أن الأساس المشترك الأساس الذي يوجد للعلوم الطبيعية والتي على أساسها تنتهي إلى نتائج يقينية ويفتخر بها الغرب ـ الأساس للعلوم الطبيعية هو الأساس نفسه الذي يوصل إلى الله سبحانه وتعالى، وحينئذ فإما أن نؤمن بعالم الشهادة والغيب معاً، وأما أن ننكرهما معاً، أما الإيمان بأحدهما دون الآخر فهو تناقض منطقي، وهذه نتيجة أساسية في نظرية المعرفة.

النتيجة الثانية: التناقض المنطقي هنا يعني أننا لا يمكن لنا أن نؤمن بصحة نتائج العلوم الطبيعية كما يؤمن الغرب، ومن جهة أخرى ننكر وجود عالم الغيب وعالم ما وراء المادة لأنهما قائمان على أساس منطقي واحد، فأما أن نقبلهما معاً وأما أن نرفضهما معاً.

أما ما فعله الغرب ـ وهو أنه يقبل نتائج العلوم الطبيعية وينكر الإيمان بوجود الله والإيمان بما وراء المادة ـ فهذا تناقض منطقي.

ولهذا تجد أن السيد الشهيد في تعريفه لعنوان الكتاب يقول:

دراسة جديدة للإستقراء تستهدف اكتشاف الأساس المنطقي المشترك للعلوم الطبيعية وللإيمان بالله.

وهذه تعد فتحاً في الفكر البشري لأنه ـ بحسب اعتقادنا ـ إن الإيمان لا ينفك عن العلم، وإن العلم لا ينفك عن الإيمان.

السيد الشهيد ﵀ في آخر هذا الكتاب وفي صفحة ٥٠٧ يقول: وهذه الحقيقة هي أن الأسس المنطقية التي تقوم عليها كل الاستدلالات العلمية المستمدة من الملاحظة والتجربة، هي نفس الأسس المنطقية التي يقوم عليها الاستدلال على إثبات الصانع المدبر لهذا العالم عن طريق ما يتصف به العالم من مظاهر الحكمة والتدبير.

فالإنسان، أي إنسان، يقف بين أمرين:

الأمر الأول: إما أن يرفض الاستدلال العلمي ككل، فكما لا يقبل الإيمان بالله لابد أن لا يقبل نتائج العلوم الطبيعية أيضاً في كل المجالات، سواء المرتبطة منها بالفلك أو المرتبطة بالفيزياء أو المرتبطة بالكيمياء أو المرتبطة بالعلوم التجريبية الأخرى كلها.

الأمر الثاني: إما أن يقبل الاستدلال العلمي ويعطي للإستدلال الاستقرائي على إثبات الصانع نفس النتيجة التي يمنحها للإستدلال العلمي.

وهكذا نبرهن على أن العلم والإيمان مرتبطان في أساسهما المنطقي، ولا يمكن من وجهة النظر المنطقية للإستقراء الفصل بينهما، هذا محال لأنه يستبطن تناقضاً منطقياً.

هذه هي محاول السيد الشهيد ﵀ أو النتيجة الأولى الأساسية التي أخذها السيد الشهيد من هذه المحاولة.

المنطق الأرسطي كان يعتقد أن القضية المتواترة قضية قبلية أي أنها قضية أولية غير مستدلة.

السيد الشهيد ﴿رحمه الله﴾ يقول: لا، ليست قضية قبلية وليست قضية أولية وإنما قضية بعدية ومستدلة أيضاً، ودليلها الاستقراء.

المنقط الأرسطي كان يعتقد أن النتائج التي نصل إليها في العلوم الطبيعية لابد أن تكون أيضاً سيراً من الكلي إلى الجزئي.

السيد الشهيد أنكر ذلك، قال ليس كذلك وإنما النتائج التي ننتهي إليها في العلوم الطبيعية إنما هي سير من الجزئي إلى الكلي.

إذن السيد الشهيد ﴿رحمه الله﴾ لم ينسف الأساس المنطقي لأرسطو، لأن المنطق الأرسطي قائم على مبدإ عدم التناقض، ومحال أن يُنسف هذا الأساس، وإنما السيد الشهيد ـ﴿رحمه الله﴾ أضاف شيئاً لم يكن المنطق الأرسطي أستطاع الوصول إليه، وبعبارة أخرى:

المنطق الأرسطي كان يرى أن كل النتائج التي ننتهي إليها في الاستدلالات المرتبطة بالعلوم الطبيعية لها طريق واحد، منهج واحد، وهو السير من الكلي إلى الجزئي، السيد الشهيد قال، لا، بل يوجد طريقان، أحدهما هو السير من الكلي على الجزئي، وهذا تام وصحيح ولكن في دائرة ضيقة أو واسعة، المهم أنه في دائرة معينة، وهناك دائرة لعلها هي الدائرة الأوسع وهي أن الفكر البشري يستعين بمنطق الاستقراء للوصول إلى النتائج، ولم يثبت عندنا بأي دليل عقلي أن طريقة الاستدلال منحصرة في طريق واحد، فكل الذي يستطيع أن يقوله لنا المنطق الأرسطي أن الاستدلال القياسي هو موصل إلى نتيجة، أما أنه وحده هو الموصل إلى نتيجة فهذا يحتاج إلى دليل، ولا دليل عليه.

والسيد الشهيد ﴿رحمه الله﴾ ذكر طريقاً آخر ومنهجاً آخر، فهو قد أضاف

إلى منطق أرسطو ولم ينفس منطق أرسطو.

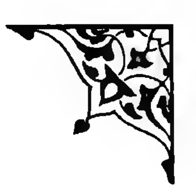
إن السيد الشهيد لم يكن بصدد نسف الأساس المنطقي لمنطق أرسطو وإنما كان بصدد إضافة شيء لم يستطع الفكر البشري أن يملأه وهذه عبارته في مباحث الأصول للسيد الحائري الجزء الأول، صفحة ٥٤٦.



الفصل الثامن

منهج التقريب.

٢ـ منهج التأصيل النظري.
٣ـ التنظير في فكر الصدر.
٤ـ منهج وصياغة التنظير.
٥ـ من الواقع إلى فقه النص.
٦ـ الصدر ومنهج التأصيل النظري.
٧ـ الصدر وتجديد الفكر الإسلامي.
٨ـ معالم فكرة مدرسة الصدر.
٩ـ عوامل النبوغ الفكري.



منهج التقريب



الإمام الشهيد الصدر رضوان الله عليه عالم رباني ومجتهد ورعٌ وعبقري كان عطاؤه زاخراً لا حدود له، وكانت أمنيته الكبرى أن يرى شريعة الله تعالى تحكم الوجود والحياة الإسلامية، وقد بذل روحه الطاهرة من أجل تحقيق هذا الهدف العظيم.

لقد أغنى الإمام الشهيد الصدر رضوان الله عليه المكتبة الإسلامية بدراساته المبتكرة[1] وأمدَّ الفكر الإسلامي المعاصر بأسباب القوة والمنعة لمواجهة تحديات العصر الحضارية، ورَفَدَ النهضة الإسلامية والصحوة الإسلامية المباركة بعناصر الحيوية والإستمرار، حتى لَيصحُّ القول أن الإمام الشهيد الصدر رضوان الله عليه كان أطروحة الإسلام المتجددة. يدلك على ذلك انه رضوان الله عليه قد نهض بمسؤوليات فكرية وجهادية مما لم ينهض بمثله إلا القلائل في تاريخ الإسلام المجيد.

كان في جهاد متواصل وسعي دائب من أجل تحرير وعي الأمة المسلمة من أطروحة الغرب الكافر وتحرير مستقبلها من هيمنة

(١) راجع: الأسس المنطقية للإستقراء، فقد عالج الشهيد الصدر إشكالية فلسفية بطريقة لم يسبقه إليها سابق.

الإستكبار العالمي وعملائه، فلقد امتلك مقومات البطولة التاريخية ، وأسباب القدرة على تهيئة مستلزمات وشروط النهضة الشاملة، فهو مثّل «**الاستجابة الواعية للتحدي الغربي، ليس على مستوى تزييف**[١] **الأطروحة الغربية**» ونقدها بل بتقديم البديل الفكري والنظري[٢] أيضاً، واستطاع على مستوى التخطيط والممارسة، والعمل على سد الثغرات أمام النفوذ الإستكباري، وإحباط قدراتهم الإستراتيجية في محاولة تعويق النهضة التي بدأت معالمها تلوح في الأفق.

إنَّ الرصد الدقيق لمجمل حركة الإمام الشهيد الصدر ﵀ يكشف عن أنه صاحب تفكير الإستراتيجي يعمل في كل الاتجاهات بقدرة غير اعتيادية، فهو يسعى إلى زج الأمة الإسلامية كلها في مواجهة شاملة مع قوى الاستكبار العالمي إذ ينشِط الوعي الإسلامي، ويستقطب المثقفين، ويحرك الجماهير بلغة خطاب مِستمر[٣] ، ويسعى إلى تربية جيل من العلماء وإنضاج القدرات الاستنباطية بإصلاح مناهج الحوزة[٤] ، ويستشرف آفاق المستقبل فيقدِم صيغة متطورة لمؤسسة المرجعية الدينية[٥] قادرة

---

(١) راجع: كتاب فلسفتنا في تزييف ونقد الفكر الغربي المادي، وراجع ـ اقتصادنا الجزء الأول في مناقشة الأطروحة الماركسية في الاقتصاد والأسس الاقتصادية للفكر الرأسمالي.

(٢) راجع: اقتصادنا الجزء الثاني إذ يطرح الإمام الشهيد النظرية الاقتصادية والمذهب الاقتصادي الإسلامي، وراجع أيضاً البنك اللاربوي في الإسلام الأطروحة البديلة لحل المعاملات المصرفية.

(٣) راجع: رسالتنا ما كان يكتبه الإمام الشهيد في افتتاحية الأضواء راجع مباح الأصول/ العلامة السيد كاظم الحائري / الجزء الأول من القسم الثاني / ص ٧٣ / نشر مكتب الإعلام الإسلامي / قم ١٤٠٧ هـ.

(٤) راجع: دروس في علم الأصول / ج ١ / ص ١٨ / مؤسسة النشر الإسلامي / قم ١٤١٠ هـ.

(٥) راجع: مباحث الأصول / تقريرات أبحاث الشهيد الصدر (٢) بقلم العلامة السيد كاظم الحائري / الجزء الأول من القسم الثاني / المقدمة / ص ٩٤ ـ ٩٨.

على استيعاب حركة الأمة ومستقبل الوعي فيها، ويؤسس حركة إسلامية ناشطة يوفر كل الإمكانات اللازمة لنموها واتساعها وامتدادها إلى الوسط العلمائي والحوزوي وهو أكثر الأوساط تحفظاً بالنسبة إلى العلم السياسي - نعم لا يكتفي بكل ذلك حتى يلقي بثقله المرجعي والفكري من أجل إنجاح تأسيس دولة إسلامية بعد نجاح الثورة الإسلامية التي فجَّرها الإمام الراحل الخميني ﷺ، إذ يقدم مشروع دستورها ونظرية العمل والإقتصاد.

أ _ لمحة فقهية تمهيدية من مشروع دستور الجمهورية الإسلامية في إيران.
ب _ صورة عن اقتصاد المجتمع الإسلامي.
ج _ خطوط تفصيلية عن اقتصاد المجتمع الإسلامي.
د _ خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء.
هـ _ منابع القدرة في الدولة الإسلامية.
و _ الأسس العامة للبنك اللاربوي في المجتمع الإسلامي.

لقد ظلّ الإمام الشهيد الصدر - ﷺ أميناً على تحمل تلك المسؤولية يخطط لوحدة المواجهة الإسلامية الكفوءة الشاملة إزاء وحدة قوى الكفر العالمي حتى سفك من أجل ذل دَمهُ، واستُبيحت حرمتُهُ المقدسة فنال رضوان الله عليه درجة الشهادة واسم استحقاقٍ وتقدير لإخلاصه وتفنيه من أجل الإسلام العظيم.

إن ما يعنينا دراسته هنا من جوانب هذه الشخصية الربانيّة العظيمة هو أطروحته ومنهجه الذي نحاول اكتشافه، في مجال - المشروع التوحيدي والتقريبي - الذي ابتدأ على يد رواد النهضة الإسلامية المعاصرة ورجالاتها الكبار، ولذلك ستتناول هذه الدراسة عرضاً ومعالجة للخطوات والأبعاد

التي تضمنها منهج الإمام الشهيد ﵀.

نقدّم بين يدي ذلك نبذةً مختصرةً عما قطعة رجال ـ التوحيد والتقريب في هذا المجال وما آل إليه الأمر الآن.

نبذة تاريخية عن الوحدة ومشروع التقريب بين المذاهب الإسلامية

لعل من المناسب أولاً أن نتعرف بصورة موجزة على ما كان عليه دعاة التقريب والوحدة، وما قدموه من برامج وما سلكوه من مناهج ليتبين من خلال ذلك منهج الإمام الشهيد الصدر ﵀ ومدى تميُّزه وشموليته كما حاولنا استكشافه.

إن المنهج الذي سار عليه دعاة التقريب والوحدة كان قد تمثّل عند الرواد الأوائل من أمثال السيد جمال الدين وتلميذه الشيخ محمد عبده بإصدار النداءات، وحثّ الأمة على ضرورة التمسك بالوحدة، وعلى الرغم من أهمية ذلك في تلك الأوقات والأزمان إلا أنّ انشغال السيد وتلميذه بالحركة الإصلاحية العامة في أوساط الأمة ربما حال دون طرح برنامج محدد في هذا الصدد.

وقد حصل ببركة تلك الحركة الإصلاحية تطور مهم عندما تصدى مجموعة من العلماء من مختلف المذاهب، وتنادَوْا لتأسيس دار ومنتدى في القاهرة بعد ذلك يهتم بمشروع التقريب بين المذاهب، فتمَّ تأسيس ـ دار التقريب في القاهرة ـ ونتجَ عن ذلك إنجاز مهم تمثل في استقطاب أبرز الشخصيات العلمية والفكرية الإسلامية من أمثال المرجع الديني الإمام البروجردي، والإمام كاشف الغطاء والإمام السيد شرف الدين الموسوي وكلهم من الشيعة، كما استقطب علماء الأزهر الكبار من أمثال الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ محمد أبو زهرة ثم شيخ الجامع

الأزهر الشيخ محمود شلتوت الذي عبّر عن جديته وحماسه بإصدار فتواه الشهيرة بصحة التعبد على مذهب الإمامية الأثني عشرية، وقد تم إدخال دراسة الفقه الإمامي في برامج التدريس في الأزهر الشريف وتمخّض عن ـ دار التقريب ـ مجلة علمية رصينة هي ـ رسالة الإسلام ـ كانت تعبّر عن أطروحة التقريب، وصدر منها أكثر من ستين عدداً على مدى عشرين سنة، وكان لها أصرّ ودروس في إحداث وعي متزايد في الأوساط المثقفة والمؤمنة بأهمية الوحدة.

إنَّ هذه الحركة الناشطة في دعوة التقريب دبَّ إليها الوهن، وأوشك أن يلفها الخمود لولا أن قيّض الله تعالى لهذه الأمة مفجر الثورة الإسلامية الإمام الراحل روح الله الخميني ﵀ ـ فأعادَ إليها الحياة، إذ تبنى الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، ودعا إلى التآلف والاتحاد لمواجهة قوى الكفر العالمي وتبنّى خليفته من بعده السيد القائد الخامنئي (دام ظله) هذه الدعوة الصادقة فبادر إلى تأسيس ـ مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية ـ ليكون منطلقاً في تعزيز مسيرة التقارب والوحدة، وقد بدأ نشاط هذا ـ المجمع ـ ينصبُّ على عقد الندوات السنوية على مستوى العالم الإسلامي، وإصدار النشرات لتقوية الإتجاه التقريبي ثم توّجَ أعماله بإصدار مجلة ـ رسالة التقريب ـ لتكون منبراً حرّاً ومعبراً صادقاً عن منهج التقريب.

إنَّ المحاولات التقريبية الجادة التي قام بها العلماء والمفكرون المخلصون قد حققت نتائج مهمة على مختلف الأصعدة، ففي مجال الدراسات الفقهية والكلامية كادت الدراسات المقارنة تسودُ في الأوساط الحوزوية والأكاديمية وفي ذلك ما فيه من جدوى وثمار حقيقية تتمثل في تفهم اتباع كل مذهب مباني ومتبنيات المذهب الآخر.

ولعل من المناسب أن نشير هنا إلى أن هذا الاتجاه العلمي في الدراسة المقارنة كان فقهاء الأمة الأوائل قد سبقونا إليه، إذ نجد مبادرة علم الهدى الشريف المرتضى في ـ الإنتصار ـ والشيخ الطوسي في ـ الخلاف ـ والعلامة الحلي في ـ التذكرة ـ وكلهم من أجلاء فقهاء الإمامية، وتلمسناه على نحو آخر في ـ المغني ـ لابن قدامة، وفي ـ بداية المجتهد ـ لابن رشد الحفيد هذا في المتقدمين أما في العصور المتأخرة وفي عصرنا الحالي فقد بادر إليه الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء في ـ تحرير المجلة ـ والعلامة محمد تقي الحكيم في ـ الأصول العامة ، وتلمسناه في الدراسات الجامعية التي أشرف عليها أساتذه الأزهر، وظهر في الموسوعات الفقهية أخيراً.

وأما على الصعيد السياسي فقد كانت هناك مواقف سياسية تنمُّ عن المشاعر الإسلامية الصادقة، وتدلّ على الحرص على كيان الإسلام السياسي مهما كان لونه المذهبي، كما حصل هذا مثلاً في إفتاء علماء الإمامية في الربع الأول من هذا القرن العشرين بوجوب الجهاد لحماية الحكم السني في الدولة العثمانية، ومثل ذلك كان موقف كثيرٍ من العلماء السنة في دعم وإسناد الجمهورية الإسلامية، وكل ذلك يدلّ على أهمية وجدوى ـ المشروع التقريبي ـ وضرورة تنشيطه واتخاذ الخطوات العلمية والعملية لإنجاحه.

أبعاد نظرية الصدر

ينطلق الشهيد الصدر ﷺ في منهجه العام من حقيقة بسيطة مفادها أن نجاح أي مشروع إنما يتوقف على كون القائمين عليه مؤمنين كلَّ الإيمان بأحقيته وجدواه، لأنَّ مثل هذا الإيمان يقود بالضرورة إلى الإخلاص والجديّة، ويستتبع ذلك بالضرورة أيضاً الدقة في التخطيط

والحرص في المتابعة كما يحفّزُ على الأخذ بكل مبادرة جادة واهتبال كل فرصة سانحة، والتفتيش عن أية إمكانية متوفرة تخدم الهدف الأساس للمشروع ولا تتقاطع مع أغراضه.

إن الوعي العميق بهذه الحقيقة جعل الإمام الشهيد الصدر ـ ﵀ وهو يستشعر ويستحضر خدمة الإسلام العظيم طلباً لرضا الله تعالى ـ جعله يتميز في كل فعالياته وأنشطته وحركته المباركة بالجدية والحيوية في الإعداد والتخطيط والمتابعة والإشتراك الفعلي لتنفيذ المشاريع الكبرى والخطيرة التي حمل على عاتقه أعباء مسؤولياتها

ولو حاولنا استكشاف منهج الإمام الشهيد في الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية لوجدنا إيمانه ﵀ الراسخ، ووعيه العميق بأهمية الوحدة الإسلامية وخطورتها ليس على صعيد المواجهة مع الخصوم الإيدولوجيين والتقليديين فحسب وإنما بضرورة تميّز الأمة المسلمة كياناً حضارياً إزاء الكيانات الأخرى؛ إن ذلك الإيمان والوعي الراسخين دفعاه إلى التأكيد أولاً على ضرورة تغليب الحرص على الكيان الإسلامي والغيرة عليه، بل هو يدعو إلى ضرورة تنظيف مشاعرنا من الغيرة على المصالح الخاصة ـ كيانات مذهبية أو أفراداً ـ لحساب الغيرة على الكيان الكلي للإسلام؛ إنه ـ ﵀ يرى أنَّ المحنة التي تواجه الأمة كبيرة وكبيرة جداً، وهي تتعلق بمصيرها وبمستقبلها، ولذا لابدَّ من وحدة المشاعر إزاء وحدة المحنة، ويفلسف ذلك قائلاً: لأنَّ اختلاف الشعور يؤدي لا محالة إلى اختلاف الموقف الذي يتخذه الممتحن تجاه محنته، إذ تبعاً لنوعية الشعور سوف يتخذ الموقف المطلوب وفقاً لذلك الشعور؛ ثم يضرب مثلاً على ذلك من واقع المحنة في العراق ويأخذ نموذجاً لذلك محنة الصراع بين العرب والأكراد ـ وهي المحنة التي عُرِضَ لها الشعب العراقي في مرحلة من تاريخه المعاصر ـ ويعبّر الإمام الشهيد عن هذه

المسألة تعبيراً حذراً ودقيقاً إذ يقول: هناك محنة يعيشها العراق منذ سنين وسنين، محنة صراع مسلح بين أخوين مسلمين في الشمال بين بعض العرب وبعض الأكراد.

ثم ينتقل للتدليل على صحة التحليل والاستنتاج السابق قائلاً: إنَّ شعور بعض الناس إزاء هذه المحنة أنها كلّفته ولده، كلّفته أخاه، كلّفته صديقه، وعليه فهو يعيش المحنة على هذا المستوى ويشعر بها بهذه الدرجة، وموقفه إزاء ذلك أن يهرَب أخاه... أن يتهرب من واجبات القانون حتى لا ينخرط في مأساة من هذا القبيل... ولا يرى له واجباً من وراء ذلك، وأخرى يتعمق هذا الشعور أكثر فأكثر فيكون شعوره شعوراً إقليمياً على أساس أنَّ أبناء البلد الواحد يتصارعون ويتنازعون فيما بينهم، وهذا الشعور والانفعال الإقليمي تجاه المشكلة يؤدي إلى اتخاذ موقف أوسع من الوقف الأول، إلى موقف يفكر فيه أنه كيف يعيد الصفاء والسلام إلى أبناء البلد... وقد يكون شعوره أعمق من هذا وذلك، قد يشعر بإزاء المحنة أنها نتاج عدم تطبيق شريعة الله تعالى على هؤلاء المسلمين... إن عدم تطبيق شريعة الله هو الذي أدى إلى تعميق التنافس بين الأخ وأخيه حتى ولدت مشكلة بين هذا وذاك، حينئذٍ سيولّد هذا الشعور موقفاً يختلف عن الشعور السابق والأسبق.

إن الشهيد الصدر ـ كما يظهر هنا ـ قد امتلك وعياً عميقاً انطلق منه في حركته المباركة ومسيرته المظفرة، وعياً كونياً شمولياً قاده إلى إبتكار الوسائل والأساليب الأكثر قدرة على الوصول إلى الأهداف الحيويّة في مشروعه النهضوي الكبير.

ولقد شخص الإمام الشهيد الصدر رحمه الله أهمية وحدة الشعور التي ينبغي أن تقود على وحدة الموقف عند الأمة إزاء قضاياها المصيرية،

ورأى ضرورة الاستعلاء على حالة التمحور حول الذات ـ شخصيةً كانت أم مذهبية أم إقليمية ـ والارتقاء إلى مستوى الإهتمام بالكيان الكلي للأمة. وإذا كان ذلك كله شرطاً ضرورياً ومدخلاً أساسياً لنجاح البرنامج الطموح والمشروع النهضوي، فإنَّ الذي يعنينا الآن تبيّن أبعاد منهجه في المشروع التقريبي وكالآتي:

أولاً: الدعوة إلى زجِ الأمة الإسلامية في حركة جهادية واحدة:

إن الشهيد الصدر ؓ كان يرى ضرورة زجّ الأمة المسلمة في حركة جهادية تقف فيها وجهاً لوجه أمام قوى الكفر العالمي، وكان ـ رضوان الله عليه ـ يرى ضرورة تصدي علماء الأمة ومفكريها وطليعتها وجماهيرها لقوى ومخططات الاستكبار العالمي؛ إننا نجد في نداءات الإمام الشهيد الصدر ـؓ موجهاً نداءه إلى الشعب العراقي بعد احتدام المواجهة مع عملاء الاستكبار العالمي، قال:

أيها الشعب العراقي إني أخاطبك في هذه اللحظة العصيبة من محنتك وحياتك الجهادية بكل فئاتك وطوائفك، بعربك وأكرادك، بسنتك وشيعتك، لأنَّ المحنة لا تختص مذهباً دون آخر ولا قومية دون أخرى. وكما أنَّ المحنة هي محنة كل الشعب العراقي فيجب أن يكون الموقف الجهادي والردّ البطولي والتلاحم النضالي هو واقع كل الشعب العراقي.

وقال رضوان الله عليه في موطن آخر: إن الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يُوحوا إلى أبنائنا البررة من السنة، أن المسألة مسألة شيعة وسنة ليفصلوا السنة عن معركتهم الحقيقية ضد العدو المشترك.

وفي ضوء ذلك كله:

فإنَّ الأمة المسلمة بجميع طوائفها ومذاهبها ومفكريها عندما يكونون في خندق واحد إزاء قوى والاستكبار العالمي فإنَّ ذلك من شأنه بالضرورة أن يخلق حالةً من التقارب والوحدة ويكون كفيلاً بتذويب الجليد وردم الهوة. إنَّ الشعور بالمصير المشترك، والوقوف في وجه العدو المشترك ـ أمةً واحدةً ـ له أعمق الأثر في إحداث وعي عميق بضرورة تقليص أسباب الخلاف والاختلاف والارتقاء إلى حالة الإنسجام والألفة.

ومما ينبغي ملاحظته في هذا الصدد أنَّ الإمام الشهيد الصدر ﵀ عندما يطرح رؤيةً يكون هو أول المبادرين إلى العمل والتبني والإخلاص قال ـ﵀: إني منذ عرفتُ وجودي ومسؤوليتي في هذه الأمة، بذلتُ هذا الوجود من أجل السني والشيعي على السواء، ومن أجل العربي والكردي على السواء، حيث دافعت عن الرسالة التي توحِدهم جميعاً، وعن العقيدة التي تضمّهم جميعاً، ولم أعش لفكري وكياني إلا للإسلام طريق الخلاص وهدف الجميع.

إن أهمية حركة الأمة ككل لا تكمن أهميتها فيما ذكرناه فحسب، بل هي في منظور الإمام الشهيد ـ شرط أساسي لإنجاح أي تنمية وأي معركة شاملة ضد التخلف، لأنَّ حركتها تعبير عن نموها ونمو إرادتها وانطلاق مواهبها الداخلية، وحيث لا تنمو الأمة لا يمكن أن تمارس عملية تنمية، فالتنمية للثروة الخارجية والنمو للأمة يجب أن يسيرا في خط واحد.

ولم يكتفِ الإمام الشهيد بالدعة إلى زجّ الأمة في عمل جهادي ضد قوى الاستكبار العالمي وما يكون لذلك من أثر مباشر ومهم في

تقارب وتآلف واتحاد طوائف الأمة، بل وجدنا السيد الشهيد الصدر ﷺ يتجه إلى تأسيس حركة إسلامية تتبنى الإسلام عقيدة ونظام حياة، وتستند في برنامج عملها إلى قواعد الشريعة ومبادئها التي هي محلٍ إيمان جميع المسلمين، وتقرّ مبدأ رجوع كل مكلف إلى من يراه أهلا للتقليد، ويتسع صدرها إلى إحتضان جميع المسلمين لزجهم في حركة الجهاد المقدس؛ ومن هنا واستناداً إلى هذه الأطروحة، والى التربية الجهادية والروحية التي قام بها الإمام الشهيد الصدر ـ ﷺ في أوساط هذه الحركة الإسلامية المباركة لا نجدُ في أدبياتها ونشراتها، كما لا نجدُ في مواقفها أثراً للّون المذهبي و الخصوصية المذهبية ـ بل نجد الانطلاق من أفق الإسلام الأرحب فكراً وسلوكاً ومواقف.

ثانياً: القيام بدراسات وبحوث فقهية وفكرية تتسم بنزعة التقريب والوحدة يحسن أولاً أن نشير هنا إلى أنَّ كثيراً من العلماء والفضلاء والباحثين قدّموا دراسات علمية رصينة في مجال العقيدة والتاريخ والفقه والأصول التزموا فيها بأصول البحث العلمي وقواعده، وناقشوا أخطر الموضوعات بروح موضوعية وبنَفَس تقريبي واضح، وكل ذلك أسهمَ بلا شك في خدمة هدف التقريبِ والوحدة، إلا أنه ربما يلاحظ أنَّ كثيراً من الموضوعات المهمة ذات الطبيعة العقائدية والتاريخية والأكثر حساسية وخطورة بقيت في معظمها بعيدةً عن التناول العلمي الموضوعي الجاد، إما خشيةً من إثارتها لما تحمله من حساسية خاصة، أو لأنَّ تناولها بعيداً عن مداخلات ـ الموروث ـ وعن إطار ـ القناعات الخاصة ـ أمرٌ ليس بالسهل اليسير، وربما تكون مثل هذه الموضوعات أيضاً إختباراً جدياً لمدى مصداقية الباحث العلمي في قدرته على الانفتاح الوجداني على ما توصله إليه نتائج البحث النزيه، ولقد وجدنا كثيرين على مدى التاريخ يتصدون لمثل هذه الموضوعات أو يحاولون معالجتها، ولكنهم لم يستطيعوا الإفلات من الاستجابة الواعية أو غير

الواعية على الموروث أو ـ القناعة المزمنة ـ ولا أراني بحاجة إلى إيراد الشواهد على ذلك فهي كثيرة في مجال الدراسات الكلامية والفقهية والتاريخية وغيرها.

إن المتأمل في الدراسات والبحوث التي أنجزها الإمام الشهيد الصدر ﵀ يجد مصداقية ـ التقريب والوحدة ـ فهو قد انطلق أولاً في دراساته ومعالجاته لأكثر القضايا خطورة وحساسية من أفق الإسلام، وما تمليه مقتضياته وروحه ونطقه العام.

فهو ـ رضوان الله عليه ـ لم ينطلق في دراساته من مبدأِ التسالم على ـ نصوص ـ معينة يقتضي منطقها ومنطوقها تثبيت ـ المطلوب ، بل كان منطقه أولاً من الأفق الأحب، أي منطق الأشياء ومنطق الشريعة ومقاصدها ثم يكون الاحتكام إلى ـ النصوص ـ في مرتبة تالية على أن تستبعد التمحلات والتأويلات البعيدة، وتلاحظ تلك النصوص ضمن ظروفها وملابساتها.

لقد كان وعي الإمام الشهيد الصدر﵀ عميقاً أيضاً عندما أنجز عدة بحوث ودراسات في حقول المعرفة الإسلامية تهدف إلى تأسيس قناعات مشتركة بين أبناء الإسلام، أو تثبيت أسس ومقررات شرعية مقبولة تصحّ منطلقاً لقيام دراسات ذات سمة تقريبية.

ويلاحظ في هذا الصدد مثلاً دراسته العميقة حول مسألة الخلافة، ومعالجته لهذا الموضوع الذي يعدّ من أكثر الموضوعات حساسية وخطورة نجدة يترسم تلك الخطوات وينطلق من تلك الأسس، فيبتعد عن المعالجة التقليدية المتوارثة عِبرَ قرون متطاولة، ويبحث المسألة بأسلوب علمي رصين وبنفسٍ هادئ محايد وينطلق من أفق الإسلام

ومنطقه، وما يفرضه منطق العلم بطرح الافتراضات المحتملة، واختبارها، مستنطقاً حقائق الواقع ومشهور الوقائع.

إن الدارس والمتأمل في كتاب الشهيد الصدر ـ﴿رحمه الله﴾ الذي صدر تحت عنوان ـ بحث حول الولاية ـ وتمّ تحقيقه ونشره تحت عنوان ـ نشأة التشيع والشيعية ـ سيلاحظ ـ الدارس ـ أنَّ الروح التي سادت في هذا البحث، والطريقة التي اتبعت في معالجته وأسلوب المناقشات العلمية الهادئة، تكشف عن مصداقية الإمام الشهيد في نزعته التقريبية.

ويقع في هذا الإطار أيضاً المعالجات والدراسات التي أنجزها الإمام الشهيد الصدر ـ﴿رحمه الله﴾ والتي تتصل بالقضايا الإسلامية المعاصرة والإشكالات الفكرية التي تواجه المسلمين عموماً سواء في نطاق ـ نظرية المعرفة ـ كما في دراسته ـ فلسفتنا ـ والأسس المنطقية للإستقراء ـ أم في المجال الاجتماعي والاقتصادي كما في كتابه ـ اقتصادنا ـ والبنك اللاربوي في الإسلام، أم في مجال التفسير والفقه، ولديه عشرات البحوث في هذا النطاق.

إنَّ إقدام الإمام الشهيد على مثل هذه المعالجات والدراسات يحقق هدفاً مزدوجاً إذ هو في نفس الوقت الذي يقدّم إلى مثقفي الأمة زاداً فكرياً نضيجاً لمواجهة التحديات الحضارية والفكرية الغربية فإنَّ ذلك يتضمن بالضرورة تحقيق أرضية مشتركة، وقناعات مشتركة يتحرك عليها المسلمون الواعون، وينطلقون منها جميعاً في عملية المواجهة، وفي بلورة المواقف الموحدة أو الحلول العملية لإشكاليات الحياة المعاصرة.

إن كل ذلك لا يحقق وحدة الفكر والموقف فحسب، وهو أمرٌ بحد

ذاته يصبُّ في هدف التقريب والوحدة، بل يؤدي بالضرورة إلى تقليص أسباب الخلاف والاختلاف في أكثر المسائل والقضايا حيويةً وخطورة والتي تهمّ الأمة الإسلامية وتتعلق بمستقبلها السياسي والاجتماعي في ظل حاكمية الإسلام؛ بالأخص إذا لاحظنا أنَّ الإمام الشهيد الصدر ﵀ قد أفادَ في بلورة النظرية الإقتصادية والمذهب الإقتصادي في الإسلام من الإجتهادات الأخرى في المدارس الفقهية الإسلامية وقد أشار ـ رضوان الله عليه ـ إلى ذلك، ودعا إلى هذا اللون من الدراسة التي تنفتح على الآخرين وتفيد من نظراتهم وبحوثهم واجتهاداتهم، بلٍ ذهب في هذا المجال إلى ما هو أهم عندما أسس مَقولةً حيوية قائلا: إن أي موقفٍ للشريعة الإسلامية يحتوي على أكث من إجتهاد يعتبر نطاق البدائلَ المتعددة من الإجتهاد المشروع دستورياً ويظل اختيار البديل المعيّن من هذه البدائل موكولاً على السلطة التشريعية التي تمارسها الأمة على ضوء المصلحة العامة.

إنَّ هذه المقولة التأسيسية تعدُّ بحق خطوة كبيرة جداً في مسيرة وحدة الأمة وفي المشروع التقريبي، إذ هُو ـ ﵀ يرى عدم حصر موقف الشريعة في نطاق إجتهاد معين في مثل هذه المواضيع الأساسية في حياة الأمة، وأنَّ الاجتهادات تعتبر مشروعة دستورياً، والسلطة التشريعية هي التي تختار الاجتهاد المعين على أساس من مصلحة الأمة ككل.

ثالثاً: المشاريع المواعدة وأهميتها في التقريب والوحدة

لقد نهض الإمام الشهيد الصدر ﵀ بأعباء ومسؤليات جسام، وأسهم في وضع اللبنات الأساسية لمشاريع عديدة بل وقدم أطَروحةً بناءة في أكثر من مجال تصبُّ كلها في هدف حيوي هو توحيد الأمة في إطار كين متميز لا يستعير من الآخرين وّلا يقلدهم بل له أصالته

وشخصيته الحضارية وقد أعطى كلَّ وقته من أجل إنجاز جملةٍ من تلك المشاريع، وكان في تقديره ـ رضوان الله عليه ـ أن ينجز مشاريع أخرى بدأ بوضع لبناتها الأساسية، وهي تصبُّ في الهدف ذاته ولعل من أهل تلك المشاريع هو مشروع الدستور الإسلامي للدولة الإسلامية، ومشروع فقه المعاملات أو القانون المدني.

وتنبع أهمية هذه المشاريع من صلتها بالحياة العملية للمجتمع المسلم، وبمستقبل الأمة الإسلامية وكيانها السياسي المستقل في ظل حاكمية الإسلام المرتقبة، وقد وَجَدَ الإمام الشهيد الصدر ﵀ الفرصة مواتيةً بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران فقدّم لمحة فقهية عن ـ مشروع دستور الجمهورية الإسلامية ـ والمتأمل في لوائح ومواد هذا المشروع يجد الروح الإسلامية العامة واستشراف الأفق الإسلامي والنظر إلى الأمة المسلمة كياناً واحداً وحالة موحدة مع الأخذ بنظر الإعتبار خصوصية ـ إيران ـ باعتبار المشروع ناظراً إلى هذه الجهة، فعلى سبيل المثال، نجد في إحدى مواد الدستور المقترح ما يلي:

إنَّ الأمة هي صاحبة الحق في الرعاية وحمل الأمانة، وأفرادها جميعاً متساوون في هذا الحق العام أمام القانون، ولك منهم التعبير من خلال ممارسة هذا الحق عن آرائه وأفكاره وممارسة العلم السياسي بمختلف أشكاله، كما إنَّ لهم جميعاً حق ممارسة شعائرهم الدينية والمذهبية، وتتعهد الدولة بتوفير ذلك لغير المسلمين من مواطنيها الذي يؤمنون بالانتماء السياسي لها.

وقد قدّم الإمام الشهيد الصدر ـ﵀ اقتصادنا نموذجاً على ذلك.

إن ما يمكن أن نخلص إليه بعد هذا العرض السريع للخطوات

والمشاريع التي قام بها الإمام الشهيد الصدر ـ رحمه الله ـ هو تميّز المنهج الذي اتبعه عن سائر المناهج الأخرى بالشمولية والأصالة والعلمية، وأنّ ترسُّمَ مثل هذا المنهج الذي حاولنا استكشاف جوانب منه، وإكمال الأشواط التي قطعها في هذا المجال سيحقق الأهداف العظمى المقصودة من المشروع التقريبي والوحدوي المبارك.

منهج التأصيل النظري:

تمور في الساحة الإسلامية مجموعة فعاليات ثقافية وإعلامية، تتوزع على أقاليم ومدن عديدة في العالم الإسلامي وغيره، تمارسها حركات ونواد وجمعيات ومؤسسات ومساجد وصحف ودوريات كثيرة، ويشارك في أنشطتها العديد من الدعاة والخطباء الكتاب والإعلاميين، تتباين عطاءاتهم بين الخطاب السجالي التعبوي، وبين بيان المفاهيم والمقولات الأولية في الفكر الإسلامي.

لكن خطاب الجميع يتسم بالتعميم تارة، فيما يتسم بالالتباس والإبهام والتداخل تارة أخرى، ولا يجري فرز وتصنيف، أو تحليل وتقويم للإشكاليات والتحديات الراهنة التي تواجهها الدولة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية الحاضرة، ومن ثَمَّ تقرير واستكشاف مواقف العقيدة والشريعة منها.

فمثلاً نجد هذا المقال يتناول الاختراق الثقافي، وذاك الخطيب يشدد على مخاطر المواجهة الحضارية بين الإسلام والغرب، وإشكالية العلاقة بالآخر، من دون أن نتحسس في ما يطرحه أي واحد منهما محاولة فكرية جادة ودقيقة لتجاوز الشعارات والصيحات التحريضية، باتجاه

قراءة الواقع، واستنطاقه بقراءة منهجية تُلم بأدوات ووسائل التحليل والبحث العلمي، لتغور في الأعماق وتكتشف سنن التغيير والمداولة والصراع، وتحدد لنا ما ينبغي استدعاؤه من التراث، وما ينبغي التأكيد عليه واستيعابه وهضمه وتمثله من الموروث المعرفي الإسلامي، زاداً لا غنى عنه في هذه الفترة من تاريخنا، لأن هذا الموروث هو الذي تقومت به هوية الأمة، وتشكلت طبقاً له شخصيتها الحضارية وارتسم في ضوئه مسارها التاريخي، وتجلت من خلال الوعي بمعالمه وتفاصيله ذاكرتها إزاء ماضيها وتاريخها.

فالوعيّ بالحاضر يتأسس على الإلمام بالماضي أولاً، لأن الماضي هو الذي يكوّن الحاضر، وبالتالي يوجه حركة المجتمع نحو المستقبل، ولا يصح أبداً لمن أراد أن يتعرف على حاضره بصورة واضحة أن يتجاوز الماضي، فالحاضر ليس إلا ما تراكمه الإنسان من إبداعات وتجليات وتنويعات لمعارف وتراث ماض، تتفاعل ايجابياً مع ما تفرزه وتطرحه الأيام من أسئلة وإستفهامات متجددة.

وعلى هذا فلن يتحقق الوعي الإيجابي الفاعل بالحاضر إلا عبر استدعاء ما يختزنه الماضي من قيم ومقولات ومنظومات المعارف والأفكار.

بيد أن التعامل مع الماضي وإستيحاء عناصره الحية لا يستطيع عليه كل أحد، فكما يختزن التراث مقومات قوة الأمة المسلمة وكمالها، تتكدس فيه عناصر قاتلة فضلاً عن العناصر الميتة، استنزفت طاقات العقل المسلم قروناً عديدة.

فبينما كان الإنسان الأوروبي يؤسس لنهضته الحديثة قبل حوالي خمسة قرون، ويجدد بناء منظومته المعرفية ويوجه عقله نحو اكتشاف

الطبيعة وسبر أغوارها، كان العقل المسلم يُستنزف في مشاغل ثانوية، وربما تافهة، حتى بلغ التشتت والتضييع في تلك الفترة حداً مُزرياً، فقد تجاوزت شروح بعض المتون الأدبية وغيرها العشرات، واستغرق بعض الباحثين في مسائل غريبة، فمثلاً ألّفَ أحدهم (رسالة في نوم الملائكة)، وألّف آخر (رسالة في زواج الجن)، وألف ثالث ورابع... الخ، مؤلفات في قضايا ومشكلات موهومة، بينما غُيبت المشكلات المصيرية وانقطع هذا العقل عن المستقبل، في الوقت الذي كان فيه الإنسان الغربي على الشاطئ من المتوسط منهمكاً في التخلص من الأفكار الميتة والقاتلة، فقد كان الجدل يحتدم حول مسائل تافهة مثل: «**ما هو عدد الملائكة التي يمكن أن تحلّ في رأس أبرة؟**».

لدى «الفلسفة المدرسية» في أوروبا في العصور الوسطى، ولولا تجاوز العقل الأوروبي لهذه الأفكار لما استطاع أبداً أن يتجه للإبداع والإبتكار ويحقق المكاسب الكبرى في تطوره التقني.

من هنا لابد من الفرز والتميز على بصيرة بين ما لابد من استمرار حضوره وبقائه من الماضي، وما لابد من تجاوزه والتعامل معه باعتباره نتاج عصر معين هو زبد ذلك العصر، وكما هو معلوم أن الزبد يجب أن يذهب، وأما ما ينفع الناس فيجب أن يبقى إلى الأبد، كما قررت ذلك سُنة الله الخالدة.

إن إفرازات وشطحات عصر التداعي العقلي والانحطاط الفكري الذي عاشته بعض أجيال المسلمين، فترك بصماته على إنتاجهم الفكري آنذاك، يعتبر تجاوزها المقوّم الآخر لبناء نهضتنا الحاضرة، فكما تتقوم هويتنا بالتواصل مع معطيات وإبداعات العقل المسلم بالأمس من جهة، كذلك يكون لزاماً علينا تجاوز ما كبّل هذا العقل في بعض الفترات.

ولعل من أبرز الإشكاليات التي ترتهن الخطاب الإسلامي المعاصر، هي حالة التكرار والاجترار التي لم يتغلب عليها، فأضحى أفضل ما يُقال أو يُكتب، ما هو إلا شرح وتلخيص وترديد لمقولات وأفكار أطلقها مفكرون في عصور سالفة.

لكن المتأخرين لم يراكموا هذه المقولات، ولم يعملوا على تحرير وتأصيل مقولات ونظريات تستجيب للتحديات والإستفهامات المتجددة، وإنما استغرقوا في الشروح والحواشي على المتون والنصوص الموروثة من السلف، فتراجع دور العقل بعد أن نشطت فعالية الذاكرة، وكأن ذاكرتهم ارتدت القهقرى نحو عصور الركود والانحطاط، يوم تعطلت فعالية العقل وتعطلت روح الإبداع، وتمحورت كل الجهود على الحواشي والتعليقات فتهمش الدور الأساسي للعقل في التنظير والتأسيس والاكتشاف، في إطار التواصل مع السلف.

ويبدو أن السبب الرئيس لهذه الحالة، هو انخفاض القدرة على التمثل، فما لم يتم تمثل واستيعاب معارف السلف وإسهاتهم، لا يمكن الاستمرار في العطاء، إذا ليس هناك من يبدأ من الصفر في التاريخ، فكل عطاءات الإنسان هي ما يأتلف من تراكمات التجربة البشرية منذ بداية ظهور المجتمع على الأرض.

وتفاوت إسهامات الأجيال في إغناء التجربة والمشاركة الخلاقة في تطوير حركة التاريخ، ينجم عن اختلافهم في وعي وتمثل ما تراكمته الأجيال السابقة من خبرات ومعارف.

وما يحدث من انكسارات وتراجعات في مسار تجارب البناء لدى المجتمعات، ينشأ في الأعم الأغلب من انهيار الذاكرة التاريخية، وفقدان

الوعي، ونسيان كل معطيات وتجارب الإنسان منذ فجر التاريخ، فيفضي المجتمع على مستقبل، دون ماضٍ أو حاضر لا ماضي له لأنه لم يعد قادراً على اختزان الأفكار وتركيبها، ويظل يكرر ذاته ولا يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، ويفقد القدرة على تأسيس أي موقف أصيل، بفعل ما تعرض له من إعاقة وتفريغ حضاري.

بيد أن ما يزحزح حالة الركود ويعمل على تحرير وعي الأمة وقدراتها المختزنة هو صيحات المجددين ممن يطلقون خطاباً يحطم السكون المهيمن على حياة الأمة، فينطلق تيار من المقولات والأفكار تستلهم التراث وتستجيب لتحديات الحاضر.

وقد استطاع بعض المفكرين المسلمين في هذا العصر أن ينجز أعمالاً، ويبتكر نظريات، ويؤصل مقولات منهجية، تتجاوز الفضاء المحدود الذي يتحرك فيه الخطاب الإسلامي المعاصر، ويمكن اعتبار فكر المفكر الإسلامي مالك بن نبي والدكتور علي شريعتي، وفكر الإمام الشهيد محمد باقر الصدر من أبرز نماذج الفكر التجديدي في هذا العصر.

فمثلاً استطاع الشهيد الصدر أن يتجاوز الاهتمامات التقليدية والمشاغل المعروفة بين الإسلاميين إلى الاهتمام بالإشكاليات الراهنة التي تواجه الإسلام والمجتمعات الإسلامية، فشمر ساعده لمنازلتها، من خلال مشروع معرفي متكامل، بدأ بقراءة المذاهب والمناهج الغربية الوافدة، وتحليلها وتفكيكها ونقضها، وبالتالي رد الغرب إلى حدوده الطبيعية التي ولد فيها، وبيان أن منظومة معارفه هي نتاج بيئته وتاريخه الخاص، بما يكتنف هذا التاريخ من منعطفات، وما يتحكم به من مسار خاص، انحرف عن هدي السماء وأرتكز في أوحال المادية، ودراسة

فكره على أنه جزء منه، وانه محكوم بتاريخه هذا وليس خارج التاريخ، ومن ثَمَّ إعادةُ الاعتبار للأنا والقضاء على عقدة النقص وروح الانبهار التي وقع في أسرها بعض رواد الإصلاح في القرن التاسع عشر في العالم الإسلامي، حين التقَوا المدنية الغربية أول وهلة فأضحَوْا غير قادرين على اكتشاف الأنا إلا من خلال مرآة الآخر.

وانتهى الشهيد الصدر إلى إعادة تشييد الأسس والمقومات الأساسية لفلسفة إسلامية معاصرة، تجد فيها الأنا صورتها الحقيقية، بعد أن تعرضت هذه الصورة للمسخ والتشويه، بفعل ما كان يحدده الباحثون الغربيون من أبعاد مزيفة لهذه الصورة، قد يكون إنتهاب ثقافات الشعوب، والإجهاز على موروثها الحضاري، أحد أخطر تلك الأبعاد، أو بفعل ما التقطه المفكرون والكتّاب في ديارنا من وعي زائف عن أولئك الباحثين، وراحوا يعملون على إشاعة هذا الوعي والتثقيف عليه، كما نجد ذلك بنحو واسع في الفكر العربي الحديث منذ القرن التاسع عشر.

لقد أسهم العطاء الفكري للشهيد الصدر في التبشير بنمط جديد من الوعي بالإسلام ومناهج التفكير الإسلامي، واكتشاف تهافت المرتكزات المادية للفكر الغربي الحديث، وتفنيد التصور الذي قدمه هذا الفكر عن الكون والإنسان والتاريخ، وتحديد الحدود الدقيقة لمساحته التي يمكن أن يقول فيها كلمته، ونقض دعوى العلمية في بعض الفلسفات الأوربية الحديثة، وإنهاء هذه الاسطورة في المادية الديالكتيكة، باعتبارها الفلسفة الوحيدة ذات الرؤية العلمية.

وبذلك أضحى الشهيد الصدر مؤسساً أو مواصلاً التأسيس لخطاب إسلامي جديد، لا يقتصر على النقد المنهجي للفكر الغربي وإسقاطاته في الفكر العربي الحديث، وإنما يتجاوز ذلك إلى العمل على إعادة

الثقة بالعناصر والمقومات الذاتية للأمة المسلمة، وبعث عناصر الحياة واستدعاء روح الإبداع الكامنة في تراثها وماضيها، لأن أية محاولة للبناء والتنمية لا تقوم على الإمكانات الذاتية للأمة، لا يمكن أن تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، طبقاً لما قرره الشهيد الصدر في أن (حركة الأمة كلها شرط أساسي لإنجاح أي تنمية، وأي معركة شاملة ضد التخلف، لأن حركتها تعبير عن نموها ونمو إرادتها، وانطلاق مواهبها الداخلية، وحيث لا تنمو الأمة لا يمكن أن تمارس عملية تنمية، وتجربة الإنسان الأوروبي الحديث، هي بالذات تعبير تاريخي واضح عن هذه ا لحقيقة، فإن مناهج الاقتصاد الأوروبي كإطارات لعملية التنمية لم تسجل نجاحها الباهر على المستوى المادي في تاريخ أوروبا الحديثة إلا بسبب تفاعل الشعوب الأوروبية مع تلك المناهج وحركتها في كل حقول الحياة، وفقاً لاتجاه تلك المناهج ومتطلباتها واستعدادها النفسي المتناهي خلال تاريخ طويل لهذا الاندماج والتفاعل، فحين نريد أن نختار منهجاً أو إطاراً عاماً للتنمية الاقتصادية داخل العالم الإسلامي، يجب أن نأخذ هذه الحقيقة أساساً ونفتش في ضوئها عن مركب حضاري قادر على تحريك الأمة، وتعبئة كل قواها وطاقاتها للمعركة ضد التخلف، ولابد حينئذ أن نُدخل في هذا الحساب مشاعر الأمة، ونفسيتها، وتاريخها، وتعقيداتها المختلفة)[١].

ولو حاولنا أن نراجع فكر الشهيد الصدر لوجدنا انه يؤكد في كل ما كتب على ما أسماه بالمركب الحضاري في الأمة؛ المركب الذي يتأتى من هوية الأمة، وعقيدتها، وتراثها، وتاريخها، ويمثل الشرط الأهم في نهوض الأمة وخروجها من نفق التخلف.

❋❋❋❋❋❋

(١) الصدر، السيد الشهيد محمد باقر، اقتصادنا. قم: المجمع العلمي للشهيد الصدر، ١٤٠٨ هـ ج ١: ص ١٤ (مقدمة الطبعة الثانية).

٭ التنظير في فكر الصدر:

اتسمت أعمال الشهيد الصدر بأنها تعبير عن محاولات منهجية جادة لتأصيل نظرية إسلامية في كل حقل من حقول المعرفة الإسلامية التي اهتم بالكتابة فيها.

ولو حاولنا أن نتعرف بدقة على ما تسعى مجموعة مؤلفاته لتأسيسه، للاحظنا بوضوح أنها تنتظم في مشروع واحد، هو محاولة تحديد إطار نظري في بحث ودراسة الفكر الإسلامي، وتحديد منهج آخر في البحث يتواءم مع متطلبات الحياة المعاصرة.

وبكلمة أخرى أن الهم الأساسي الذي يضطلع به مشروع الشهيد الصدر هو الحرص على اكتشاف نظريات الإسلام في التاريخ، والاقتصاد، والسياسة، والمجتمع... الخ.

فهو مكتشف كبير دأب على الأخذ بمنهج التفكير الإسلامي نحو آفاق جديدة لم يعهدها هذا التفكير من قبل، إلا بصورة محدودة في أعمال بعض المفكرين المسلمين ممن سبقوه، فيما كان هذا التفكير يتحرك في دائرة المنهج المتوارث في معاينة مشكلات الحياة، والتعرف على مواقف الشريعة منها، ولذلك ظل يكرر الإجابات ذاتها على هذه المشكلات، من دون أن يتمكن من اكتشاف فضاءآت أخرى يغور من خلالها في وقائع الحياة، ويستنطق القرآن الكريم والسنة الشريفة، لكي يقول الإسلام كلمته المطلوبة إزاء تلك الوقائع.

لقد توفرت مؤلفات الشهيد الصدر على اتجاه جديد تخطى من خلاله الفكر الإسلامي الحديث الحالة التقليدية التي ارتهن فيها،

وأضحت للإسلام كلمته في مواجهة الأيديولوجيات الأخرى، حيث برز الإسلام أيديولوجية معاصرة تنفي كل التهم الظالمة وتمتد لتستوعب كل مشكلات الإنسان، وتقدم الحلول الناجعة لها، وتتسع لتغطي تمام حاجات ومتطلبات المجتمعات الحديثة من مقولات ونظريات، ونظم، وقوانين.

وفي مراجعة سريعة للتراث الفكري للشهيد الصدر نجد أن محاولة التأصيل النظري تنبسط على تمام أعماله، بالرغم من تواصلها في الصدور ما يزيد على العشرين سنة، فمثلاً نراه في اقتصادنا ينجز الخطوة الأولى الأهم على طريق مشروع اكتشاف وصياغة المذهب الاقتصادي في الإسلام، وهي محاولة لم يُسْبَقْ بها من قبل فيما نعلم.

وبغية أن نتعرف على ملامح هذه المحاولة، ينبغي أن نقرأ ما توخاه لها الشهيد الصدر، وما توخاه منها من دور مأمول في حركة تطور الفكر الإسلامي، وما يمكن أن تبشر به وتشيعه من منحى جديد في منهج الدراسات الفقهية وتأصيل النظم الإسلامية، وما تمتاز به هذه العملية عن ما يناظرها من دراسات في المذاهب الأخرى.

يحدد بشكل واضح وجهة البحث في عملية الاكتشاف التي ينجزها المفكر الإسلامي في إشادة أركان المذهب الاقتصادي في الإسلام ورسم معالمه، والمفكر الاقتصادي الغربي يمارس عملية ابتكار وتكوين المذاهب الاقتصادية الأخرى، (فالمفكر الإسلامي أمام اقتصاد منجز تم وضعه، وهو مدعو إلى تمييزه بوجهه الحقيقي، وتحديده بهيكله العام، والكشف عن قواعده الفكرية، وإبرازه بملامحه الأصلية، ونفض غبار التاريخ عنها، والتغلب بقدر الإمكان على كثافة الزمن المتراكم والمسافات التاريخية الطويلة، وإيحاءات التجارب غير الأمينة التي

مارست ـ ولو اسمياً ـ عملية تطبيق الإسلام، والتحرر من أطر الثقافات غير الإسلامية التي تتحكم في فهم الأشياء، على وفق طبيعتها واتجاهها في التفكير).

ان محاولة التغلب على كل هذه الصعاب، واجتيازها للوصول إلى اقتصاد إسلامي مذهبي، هي وظيفة المفكر الإسلامي.

وعلى هذا الأساس يمكن القول: بأن العملية التي نمارسها ـ والقول للشهيد الصدر ـ هي عملية اكتشاف. وعلى العكس من ذلك المفكرون المذهبيون الذين بشروا بمذاهبهم الرأسمالية والاشتراكية، فإنهم يمارسون عملية تكوين المذهب وإبداعه.

في ضوء هذا المنهج تغلب الشهيد الصدر على المشكلات المنهجية التي كان يُمنى بها الباحثون في الفكر الإقتصادي الإسلامي، حيث تتجه أبحاثهم نحو الاتجاه التجزيئي، فتتعامل مع التشريعات الاقتصادية في الإسلام بأسلوب مجتزأ مفكك، فتارة تكثف النظر على بعض الأدلة الشرعية التي تقرر أحد أشكال الملكية كالملكية الفردية مع قطعها عن سائر الأدلة التي تقرر الأشكال الأخرى للملكية، فتتقوَّلها لتزعم أن المذهب الاقتصادي في الإسلام يتطابق مع الرأسمالي وتارة أخرى تنحو هذه الأبحاث منحىً آخر، زاعمة إن الاقتصاد الإسلامي اقتصاد اشتراكي.

بل أن الدراسات الموضوعية الأصلية التي اعتمدت المنهج التجزيئي، وحاولت أن تثبت وجود نظام اقتصادي إسلامي، لم تتمكن أن تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، وتؤصِل الهيكل العام والأركان الأساسية لهذا النظام.

بينما تغلب الشهيد الصدر على هذه المشكلة المنهجية في ضوء الاتجاه المنهجي العام الذي ترسم خطاه في تمام أعماله، والذي يهدف لتجاوز أسلوب الدراسات التجزيئية في الفكر الإسلامي، وتبنى أسلوب النظرة الكلية الموضوعية، وما تنتهي إليه هذه النظرة من تأصيل الموقف النظري العام للإسلام من شؤون الحياة الاجتماعية المختلفة.

وأحسب أن تبني هذا الأسلوب الذي ينظر إلى الإسلام كلاً مترابطاً متسقاً متوازناً، في الدراسات الفقهية، والقرآنية ـ بل حتى التاريخية ـ سيحقق للفكر الإسلامي فتوحات هامةً، وينقله نقلة كبيرة إلى آفاق جديدة لا يمكن أن يصلها لو ظّل يتحرك في إطار النظرة التقليدية التجزيئية.

لقد أرسى الشهيد الصدر أسس المنهج الموضوعي في دراسة الإسلام، فكانت أعماله مرآة ناصعة تتجسد فيها خطوات هذا المنهج وتنتهي إلى قطف ثمراته.

ويبدو أنه كان يستشرف مستقبل الإسلام في هذا العصر، فيبُصر ما يلوح في الأفق البعيد من تحديات معرفية معقدة، وإشكاليات فكرية متنوعة تثيرها مستجدات الحياة مع توالي الأيام، وتراكم المشكلات في حياة المجتمعات المعاصرة.

وكان يعرف بدقة عدم قدرة الأسلوب التجزيئي في الدراسات الإسلامية في الوفاء بالمتطلبات الراهنة في الحياة الإسلامية.

ولذلك حرص على إشاعة تقاليد هذا الأسلوب المبتكر في الدراسات الإسلامية، فاهتم بتعميم تطبيقاته مع تمادي الأيام في خارج دائرة الفقه

الاقتصادي، فمثلاً حث على تبنيه في دراسة وقائع التاريخ الإسلامي والسيرة الشريفة لأهل البيت عليهم السلام، والمح إلى النتائج والآثار العظيمة التي سيفصح عنها اعتماد هذا الأسلوب، باعتباره يقوم على اكتشاف الترابط والإنسجام بين أعمالهم، ونفي ما قد يبدو من تباين واختلاف بين أدوارهم وطبيعة الاهتمامات التي تجلت في سلوكهم.

وأفصح عن هذا الاتجاه بأنه: (الاتجاه الذي يتناول حياة كل إمام ويدرس تاريخه على أساس النظرة الكلية بدلاً من النظرة التجزيئية، أي ينظر إلى الأئمة كلاً مترابطا، ويدرس هذا الكل ويكتشف ملامحه العامة، وأهدافه المشتركة، ومزاجه الأصيل، ويفهم الترابط بين خطواته، وبالتالي الدور الذي مارسه الأئمة جميعاً في الحياة الإسلامية... حين نحاول اكتشاف الخصائص العامة والدور المشترك للأئمة ككل، فسوف تزول كل تلك الاختلافات والتناقضات لأنها تبدو على هذا المستوى مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، وإنما اختلف التعبير عنها وفقاً لاختلاف الظروف والملابسات التي مر بها كل إمام وعاشتها القضية الإسلامية والشيعية في عصره عن الظروف والملابسات التي مرت بالرسالة في عهد إمام آخر، ويمكننا عن طريق دراسة الأئمة على أساس النظرة الكلية أن نخرج بنتائج أضخم من مجموع النتائج التي تتمخض عنها الدراسات التجزيئية، لأننا سوف نكتشف الترابط بين أعمالهم)[1].

وفي بحوثه التالية التي ألقاها على مجموعة من تلامذته في فترة تلت تاريخ كتابته لهذه الكلمات، اعتمد هذا الاتجاه في دراسة وتحليل حياة أهل البيت عليهم السلام وبيان الدور المشترك لهم في التاريخ الإسلامي[2] ،

---

(١) الصدر، السيد الشهيد محمد باقر (دور الأئمة في الحياة الإسلامية). في: بحوث إسلامية ومواضيع أخرى. بيروت: دار الزهراء، ١٤٠٣ هـ ص ٥٨ ـ ٥١.

(٢) نُشرت هذه البحوث فيما بعد تحت عنوان: (أهل البيت: تنوع أدوار ووحدة هدف)

وهكذا نراه يسعى إلى تعميم المنحى الذي يعتمد على انتزاع نظرة عامة وبناء نظرية واضحة في تفسير وقائع حقبة أساسية في التاريخ الإسلامي، فيتوسع في إستخدام أدوات المنهج الموضوعي في ميدان آخر من الدراسات الإسلامية.

ويظل هذا المنهج في البحث هو السمة البارزة التي تطبع أعمال الشهيد الصدر اللاحقة، فلا يغيب عنه وهو يستعد لتدوين رسالة فقهية لعمل مقلديه، فينعكس تأثير هذا المنهج بنحو جلي في تقسيمه المبتكر لأحكام الشريعة الإسلامية، في ضوء ترابطها ومدلولاتها السلوكية العملية في حياة الإنسان.

وربما كان الاتجاه الموضوعي في تفسير القرآن هو أبرز نموذج تجلّت فيه بشكل واضح ودقيق حدود وتفاصيل هذا المنهج، والذي أفصح عنه الشهيد الصدر في دروس التفسير التي ألقاها على مجموعة كبيرة من طلاب العلوم الإسلامية في النجف الأشرف تعام ١٣٩٩ هـ

وقد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا: أنها أول محاولة لتأسيس اتجاه جديد في تفسير القرآن الكريم، وإشادة أسس ومعالم منهج لاستنباط مواقف القرآن الكريم من مختلف المشكلات الاجتماعية التي يعيشها الإنسان.

وإن كانت الدراسات القرآنية لم تعدم من قبل بعض التطبيقات الممتازة لهذه المنهج، كما نلاحظ ذلك في بعض دراسات العلامة المرحوم محمد عبد الله دراز، لكن الرائد الأول في إرساء الأساس النظري، وبناء المعالم الدقيقة، وترسيم الحدود الواضحة، وصياغة نظرية متكاملة الأبعاد، هو السيد الشهيد الصدر.

في ١٤٩ صفحة من القطع الكبير.

بدأ الشهيدّ الصدر تأصيل الاتجاه الموضوعي في التفسير، وتوسع في بيان المسوَغات الموضوعية والفكرية لإيثاره على التفسير التجزيئي، وانتهى بعد إشادة الأركان النظرية لهذا الاتجاه، إلى انتخاب موضوع (سنن التاريخ في القرآن الكريم)، نموذجاً تطبيقياً تتجسد فيه المعالم العملية لنظريته التي صاغها، وكان يأمل أن يطرق عدداً آخر من المواضيع المهمة، لولا أن استأصلت يد البغي هذا المفكر العظيم، وهو لم يفرغ كما يلوح لنا في مستقبل تطور الفكر الإسلامي الحديث.

لعل التوفيق والنجاح الكبير الذي تحقق على يد الشهيد الصدر في الدراسات القرآنية، كان ثمرة ناضجة لمنهج التأصيل النظري، ذلك المنهج الذي ولد في ذهنه منذ أوائل العقد الثالث من عمره، وقطف الشهيد الصدر ثمرته باكراً في «اقتصادنا»، أي قبل حوالي عشرين عاماً من تاريخ صياغته للمعالم والأسس التفصيلية النظرية لهذا المنهج، ومحاولة تطبيقه في ميدان الدراسات القرآنية.

ولم ينس أنِ يشدد على ما يمكن أن ينجزه تعميّم تطبيق المنهج النظري البحوثَ الفقهية في بداية كلامه عن مسوَغات استخدامه في تفسير القرآن الكريم، فقد أكد على ضرورة أن يتوغل «**الاتجاه الموضوعي في الفقه، لابد وان يتوغل، لابد وان ينفذ عمودياً، لابد وان يصل إلى النظريات الأساسية، لابد وان لا يُكتفى بالبناءات العلوية، بالتشريعات التفصيلية، لابد وان ينفذ من خلال البناءات العلوية إلى النظريات الأساسية، التي تمثل وجهة نظر الإسلام، لأننا نعلم أن كل مجموعة من التشريعات في كل باب من أبواب الحياة ترتبط بنظريات أساسية، ترتبط بتطورات رئيسة، أحكام الإسلام، تشريعات الإسلام في مجال الحياة الاقتصادية ترتبط**

بنظرية الإسلام، بالمذهب الاقتصادية في الإسلام...»[١].

وكأن السيد الشهيد ينعطف نحو الماضي، فيعود مذكِراً بأن عملية التأصيل النظري التي يقوم بها هنا في حقل الدراسات القرآنية، لم تولد في فراغ، ولم تكن مقطوعة الجذور، وإنما هي محاولة أخرى في تطبيق هذا المنهج وإتمام بنيانه، وهي تكمل مأتم من خطوات سابقة على هذا الطريق.

وإن كانت الأسس النظرية تتبلور تلقائياً حين تحتضن محاولات التطبيق، وبذلك تدفقت في صورتها التامة والناضجة على يد الشهيد الصدر، في المرة الأخيرة التي كان يطبق فيها منهجه هذا في الدراسات القرآنية، حيث مهّدَ لعمله هذا ببيان الإطار العام للإتجاه التوحيدي الموضوعي كما أسماه هو وأركانه ومقوماته الرئيسة، والدوافع والأسباب التي تقضي باستخدامه في الدراسات الإسلامية المعاصرة عموماً، والدراسات القرآنية بشكل خاص.

وهي المرة الأولى التي تبرز فيها التفاصيل والأسس النظرية للمنهج الذي تواصل استخدامه في أعماله منذ البدايات، ولم يتخلف في واحدة من أعماله التالية.

وإن كان ظهور الأفكار النظرية الأولى في تأصيل هذا المنهج يعود إلى التمهيد الواسع للجزء الثاني من «**اقتصادنا**»، والذي انبسط على أكثر من خمسين صفحة من الكتاب، تحت عنوان «**عملية اكتشاف المذهب**

---

(١) يعتبر كتاب: دستور الأخلاق في القرآن_ للعلامة الدكتور محمد عبد الله درّاز، وهو رسالته الأساسية التي نال بها درجة دكتوراه الدولة من السوربون في باريس، أول محاولة رائدة على طريق اكتشاف نظرية الأخلاق في القرآن) في هذا العصر.

الاقتصادي ص ٣٧٥ _ ٤٢٩»، وأوضح فيه كيفية استخلاص وصياغة مذهب الإسلام الاقتصادي في ضوء معطيات القرآن الكريم، والسنة الشريفة، والتراث الفقهي، وأماط اللثام عن مجموعة المشكلات التي تُمنى بها مثل هذه العملية الاجتهادية، والسبل الكفيلة لتفادي الوقوع في تلك المشكلات، بعد تحديد الإطار المرجعي النظري الذي يتقوم على أساسه النسق العام لبناء المذهب، ويتم تركيب كافة ركائزه ومقوماته.

في هذا الضوء استطاع الشهيد الصدر أن يؤصل لمنحيً جديد في عملية الاستنباط الفقهي، لا تستعين بالأدوات المتعارفة في عملية الاستنباط، مما كانت تؤمنه العناصر والقواعد المشتركة في علم أصول الفقه، لا تستعين بها فحسب، وإنما تعمد إلى الإفصاح عن ولادة قواعد جديدة ينبغي أن تستلهمها بحوث أصول الفُقه، بعد أن تحرك البحث الفقهي من خندقه التقليدي ووطأ أرضاً بكراً، لم يعرفها الأسلوب المتداول في الاستنباط.

صياغة التنظير:

ولا نزعم أن الشهيد الصدر فرغ من تأصيل تمام القواعد اللازمة في أصول الفقه لعملية استنباط وصياغة النظرية، ولكنه أشعل أول شمعة في الطريق لمن جاء بعده، ومن المعلوم أن القواعد الأصولية إنما تتحرر بصورة طبيعية في فضاء الممارسة العملية للبحث الفقهي، باعتبارها تؤمن الإجابات والحلول للمشكلات التي تثيرها تلك العملة، ولذلك لا يمكن أن يتكامل بناء القواعد الأصولية ويولد علم أصول فقه جديد يتولى تأمين المستلزمات والأدوات الأساسية لاستنباط النظرية الفقهية في أي حقل من حقول الحياة، من دون ممارسة الفقيه لعملية استنباط النظرية،

وما يمكن أن تفرزه هذه العملية من إستفهامات وإشكاليات، تتولى إثارة وعي العقل الأصولي، وزحزحته من الدائرة التي ألفها، وإقحامه في مسارب جديدة، ما كان له أن يبلغها لو ظل مرتهناً للإشكاليات القديمة التي تكررها عملية الاستنباط التقليدية.

هكذا ينمو ويتطور الفكر الأصولي، من خلال تفاعله مع البحث الفقهي، ووقوفه على رهاناته وما تتمظهر به.

وكلما تكامل الفكر الأصولي واكبه تطور وتكامل التجربة الفقهية، باعتبار أن علم الأصول يؤمن للفقيه الأدوات اللازمة له في عملية الاستنباط، فتنمو هذه العملية أفقياً ورأسياً تبعاً للنمو في أدواتها.

لكن الرسالة التي قُدِمت نسختها الفرنسية إلى المطبعة عام ١٩٤٨، لم تظهر ترجمتها العربيةِ إلا بعد ربع قرن من ذلك التاريخ، وأكثر من خمسة عشر عاماً على وفاة مؤلفها.

وبعبارة أخرى هناك تفاعل وتأثير متبادل بين نمو وتطور الفقه والأصول، فبينما يقتحم الفقه آفاقاً جديدة، تستجيب له أصول الفقه فيقعِد مجموعة قواعد وأسس تمكنِه من التغلب على المشكلات والإِستفهامات التي تثيرها عملية الاِستدلال الفقهي، وهكذا تتحرك التجربة الفقهية في فضاءات أخرى عندما ينتهي العقل الأصولي إلى ابتكار وتقنين قواعد جديدة[1].

(١) الصدر، السيد الشهيد محمد باقر. المدرسة القرآنية. بيروت: دار التعارف، ط ٢، ١٤٠١ هـ _ ١٩٨١/، ص ٣١ _ ٣٢.

من الواقع إلى فقه النص:

إتسم المنهج الذي اعتمده الشهيد الصدر في التنظير لمواقف الإسلام من مشكلات الحياة المتنوعة بتحليل مدلولات النص في ضوء معطيات الواقع، ونتائج التجربة البشرية على الأرض، وما تفرزه وتقرره هذه التجربة من تقدم أو تراجع، فهو حين يكتب يعاين حياة الإنسان، ويتدبر الواقع، ويسعى لوعي واستيعاب مكتسبات تلك التجربة وآثارها المختلفة، كما يتفاعل مع التجربة الخاصة للحركة الإسلامية، ويسبر غور هذه التجربة ليلتقط ما يرهصها من تحديات، باعتبارها تسعى لتطبيق الإسلام في هذا العصر من خلال إقامة الدولة الإسلامية، فيعكف على استنطاق النص «القرآن الكريم، والسنة الشريفة» ومحاورته في ضوء الإشكاليات التي يعكسها الواقع.

لقد استطاع الشهيد الصدر أن يتغلب على عقبة كؤود ارتهن في إطارها التفكير الإسلامي فترة طويلة، فوجهه نحو واقع الحياة الاجتماعية ومتطلباتها، ونزل به من الفضاء الذهني الذي كان محتبساً فيه إلى تضاريس الحياة الاجتماعية، وميدان التجربة الحياتية للإنسان بكل ما تختزنه من وقائع، وتصدعات، وأخاديد، وما يتجلى عنها من أفكار، وإضاءات، وما تفصح عنه وتقوله من مقولات وما تخفيه ولا تفصح عنه من رؤىً وإستفهامات.

هكذا تحرر الوعي في خطاب الشهيد الصدر، وتخلص من الاستغراق الخيالي في مفاهيم تجريدية ظل الخطاب الإسلامي في أسرها فتراتٍ طويلة، يجري ويعوم في حالة ذهنية غير واقعية، ويراوح في متاهاتٍ نظرية لا تتصل بالحياة الاجتماعية وإشكالياتها بشكل مباشر، وإنما تغوص في وقائع السماء وأحوال عوالمها، وأحوال عوالم أخرى مفترضة

من قبيل عوالم العقول والمثال، فيما تُغيَّب وقائع الأرض وأحوال حياة الإنسان فيها وما يكتنفها من تحديات وإرهاصات معرفية وعملية.

وان فكر الشهيد الصدر كان حواراً حافلاً مع الواقع، وتحليلاً دقيقاً لمشكلات الحياة، واستكشافاً رائداً للنظريات الإسلامية إزاء هذه المشكلات، من خلال استنطاق القرآن الكريم والسنة الشريفة فيما يحمله لها من أسئلة الواقع، وما يطرحه عليهما من مسائل الاجتماع البشري، فهو يبدأ بالواقع لينتهي إلى النص، أي إن فقه النص يتحرر لديه في أفق الواقع، ويستلهم الموقف في فضاء إشعاعاته، وبذلك تدفقت رؤيته للنص، ووعى دلالاته، واستخلص منها ما يقوله النص، في إطار متطلبات الواقع وقضاياه.

وبهذا يتضح أن عملية تأصيل النظريات الإسلامية فيفكر الشهيد الصدر، ترتكز بصورة أساسية على هذه الكيفية، التي أفصح هو عنها بصراحة في بداية حديثه عن الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير، وأبرز ملامح هذا الاتجاه، والأسلوب الذي يعتمده في استلهام مواقف وتوجيهات القرآن الكريم إزاء الحياة، فقد صرح بأن هذا الأسلوب يتمثل في أن «**التفسير يبدأ من الواقع، وينتهي إلى القرآن، لا أنه يبدأ من القرآن وينتهي بالقرآن، فتكون عملية منعزلة عن الواقع، منفصلة عن تراث التجربة البشرية، بل هذه العملية تبدأ من الواقع وتنتهي بالقرآن، بوصفه القيِّم والمصدر الذي تُحدَّد في ضوءه الاتجاهات الربانية بالنسبة إلى ذلك الواقع**»[1].

---

(١) الرفاعي، عبد الجبار. النظام التعليمي في الحوزة العلمية: رؤية تقويمية لدواعي التجديد. (مخطوط) (فيه بيان مفصل لتأثير تطور البحث الفقهي على تطور الفكر الأصولي ونموه التكاملي نحو ما يؤمن للفقه أدواته وقواعده، وتجاوز الفكر الأصولي للحالة التكرارية، وحالة النمو المترهل نحو آفاق غير عملية لا تخدم عملية الاستنباط).

كما أكد إن ما يعنيه بالموضوعية في استخدام هذا المنهج، هي **«بمعنى أن يبدأ من الموضوع وينتهي إلى القرآن هذا الأمر الأول، والأمر الثاني أن يختار مجموعة من الآيات تشترك في موضع واحد، ويقوم بعملية توحيد بين مدلولاتها، من أجل أن يستخرج نظرية قرآنية شاملة بالنسبة إلى ذلك الموضوع»**[١].

هذه هي الطريقة الرائدة في استخلاص النظرية، وتجاوز المشاغل التقليدية للعقل الإسلامي، حيث أعاد هذا المنهج ترتيب نظام التفكير، وأسلوب وعي العقل للنص بنحو آخر، بعد ان استنفد الأسلوب التجزيئي أغراضه، ولم ينجز معطيات كبيرة مع تقادم الزمان، سواء في حقل الدراسات القرآنية أو غيرها، **«حتى نكاد نقول والقول للشهيد الصدر ان قروناً من الزمن متراكمة مرت بعد تفاسير الطبري والرازي والشيخ الطوسي، لم يحقق فيها الفكر الإسلامي مكاسب حقيقية جديدة، وظل التفسير ثابتاً لا يتغير إلا قليلاً خلال تلك القرون على الرغم من ألوان التغيير التي حفلت بها الحياة في مختلف الميادين»**[٢].

إن إدراك الشهيد الصدر لتخلف مواقف الفكر الإسلامي، عن التحول والتغير المطّرد في أنماط حياة الإنسان، وطبيعة عيشه، واستغلاله للطبيعة وازدياد سيطرته عليها، من خلال اكتشاف قوانينها، والتعرف على أسرارها، وعدم تمكن هذا الفكر من استيعاب هذه التحولات، ومواكبة حركة التغيير في بنية المجتمعات، وإنتاج مفاهيم ومقولات تستجيب للمتطلبات الراهنة للحياة، إن ذلك هو الذي دعاه إلى الاعتماد على هذا الأسلوب الجديد في وعي معطيات النص، بالانتقال من الواقع إلى النص،

---

(١) الصدر، السيد الشهيد محمد باقر. المدرسة القرآنية. ص ٢٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٩.

والتوحيد بين التجربة البشرية بما تشتمل عليه من أبعاد وتفاصيل متنوعة وما يقوله النص، فإن التحام الواقع بالنص بهذه الكيفية، يتيح للمفكر المسلم أن يؤصل رؤىً إسلامية جديدة تغاير ما ألفه من رؤىً لا تتواصل مع التحولات المختلفة في أنماط الحياة، ولا تتجاوز الأسلوب التجزيئي في التفكير الذي ظل لفترة طويلة من أهم أسباب إعاقة نمو وتطور الفكر الإسلامي، لأنه يجعل التكفير بعيداً عن واقع التجربة البشرية، حيث لا يستطيع في إطاره العقل أن يوحد بين واقع هذه التجربة والنص.

من نتائج منهج التأصيل النظري:

في مراجعة سريعة للتراث الفكري للشهيد الصدر تلوح لنا بعض الآثار والنتائج، التي أثمر عنها تطبيقه لهذا المنهج، ومما يمكن أن نستخلصه منها ما يلي:

١ - لقد كان المهم الأكبر في فكر الشهيد الصدر، هو أن ينتهي إلى تأصيل نظرية إسلامية، وتحديد المركب النظري الإسلامي في كل حقل فكري بحثه، كما يقول لنا بصراحة في بيان ما يهدف إليه تطبيق منهجه، في التفسير مثلاً، وهو «**أن يستحصل أوجه الارتباط بين المدلولات التفصيلية، يحاول أن يصل إلى مركب نظري قرآني، وهذا المركب النظري القرآني يحتل في إطاره كل واحد من تلك المدلولات التفصيلية موقعه المناسب، وهذا ما نسميه بلغة اليوم بالنظرية، يصل إلى نظرية قرآنية عن النبوة، نظرية قرآنية عن المذهب الاقتصادي، نظرية قرآنية عن سنن التاريخ، وهكذا عن السماوات والأرض..**»[١].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٨.

استطاع الشهيد الصدر من خلال تطبيق هذا المنهج استكشاف نظرية الإسلام في الاقتصاد في كتاب «**اقتصادنا**» ونظرية الإسلام في المعاملات المصرفية في كتاب «**البنك اللاربوي في الإسلام**»، ونظرية القرآن عن سنن التاريخ، ونظرية القرآن عن عناصر المجتمع، في كتاب «**المدرِسة القرآنية**» والنظرية السياسية في الإسلام في السلسلة التي كتبها قُبيل استشهاده، ونُشرت فيما بعد بعنوان (الإسلام يقود الحياة) في ست حلقات.

ولم يتخلف البحث الفلسفي والمنطقي لدى الشهيد الصدر عن تطبيق هذا المنهج فقد وافق لقطف ثماره في «**الأسس المنطقية للإستقراء**» باكتشاف وصياغة مذهب جديد في تفسير كيفية نمو المعرفة البشرية وتوالدها، عبر عن اتجاه آخر في تفسير المعرفة البشرية، غير ما كان معروفاً بين المذهبين التجريبي والعقلي، وهو ما اصطلح عليه بـ «**المذهب الذاتي للمعرفة**». وقال عنه: «**نريد بالمذهبِ الذاتيِ للمعرفة: اتجاهاً جديداً في نظرية المعرفة، يختلف عن كلٍ من الاتجاهين التقليديين اللذين يتمثلان في المذهب العقلي والمذهب التجريبي**»[1].

وقد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن بحوثه الأصولية والفقهية شعت فيها شذرات تطبيق هذا المنهج ـ نأمل أن نقف مع منهجه الأصولي وإبداعه في علم الأصول في مناسبة لاحقة ـ كذلك تجسد هذا المنهج في الدراسات التاريخية المحدودة التي طرقها في حياة أهل البيت عليهم السلام كما أوضحنا ذلك فيما سبق.

وذلك يتضح إن كل أعمال الشهيد الصدر كانت تُعَدُّ عقداً انتظمت حباته في إطار منهج التأصيل النظري، حيث أضحى كل مؤلَّف للشهيد

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧.

الصدر، يمثل محاولة جادة ودقيقة يترسم فيها تجسيد هذا المنهج، ويتقدم خطوة على طريق إشادة أركانه.

ومما ينبغي التذكر به إن عملية التنظير التي اضطلع بها هذا المنهج، لا تعني الانتقاء الكمي لمجموعة من النصوص، واقتناص بعض المفاهيم منها، وإنما هي عملية امتزاج وتفاعل تتوحد في افقها التجربة البشرية مع النص، وتنصهر مجموعة العناصر المكونة للنظرية في بوتقة واحدة، لتنتج مركباً نظرياً، نظير ما نراه من تفاعل مجموعة عناصر كيمياوية بمقادير محددة وفي ظروف وشروط خاصة، وإنتاجها لمركب معين، يمثل شيئاً جديداً يختلف عن تلك العناصر في خصائصه وآثاره.

٢ - تسود الكثير من الكتابات الإسلامية نزعة تقديس لتراث السلف بتمامه، ويبلغ التقديس حداً لا يميز فيه بعضٌ بين ما هو مقدس وكامل «القرآن الكريم، والسنة الشريفة»، وما هو نسبي متأثر بالأحوال والحاجات والظروف التي ولد فيها، وهو إنتاج المسلمين في العلوم الإسلامية.

وينشأ عن هذا الفهم موقف يدعو إلى أن وظيفتنا في هذا العصر تتلخص في فهم وشرح التراث الإسلامي فقط، وكأن الحقيقة قيلت بتمامها، والعلوم الإسلامية استنفذت تمام إمكانات نموها وتكاملها، وان ما قاله علماء الإسلام الأوائل هو الكلمة الخالدة في كل العصور، ولذا يجب ان نتولى دور حراسة هذا التراث وحفظه واستظهاره فقط، من دون أن يكون لنا دور في نقد هذا التراث، وتفعيل عناصره الحية، ووعي النص المقدس «القرآن الكريم، والسنة الشريفة» في فضاء الواقع الحياتي المتجدد، واستلهام مواقف النص تجاه مشكلات الواقع.

لقد تغلب هذا المنهج الذي اعتمده الشهيد الصدر على هذه النزعة «اللاتاريخية» في الخطاب السلفي، وما أشاعته من مناخ، كان له الأثر الكبير في تعطيل حركة تطور الفكر الإسلامي، وطمس روح الإبداع والتجديد في العلومِ الإسلامية لفترة طويلة، فزحزح العقل الإسلامي من حالة السكون، ومكنه من التواصل مع مشكلات العصر، واختراق فضاء الحياة ورهاناتها الحاضرة، وتجاوز المفاهيم والمقولات التي أنجزت في ظل نسق تاريخي خاص، وأشاد رؤىً وأفكاراً ونظرياتٍ في ضوء المنظومة المعرفية التي أصّلها، تعالج هموم المسلم المعاصر، وتداعيات التجربة البشرية الراهنة.

بيد أنه من المؤسف أن هذا المنهج الذي أرسى دعائمه الشهيد الصدر، وواصل تطبيقه في مؤلفاته وأبحاثه، وحرص على تعميمه في الدراسات الإسلامية المعاصرة، لم يتم استيعابه وتمثله فيما بعد، ولذا لا نجد تطبيقات واسعة لهذا المنهج في الفترة التي تلت استشهاد السيد الصدر، لا سيما وإن الحاجة إلى تبني منهج التأصيل النظري في الدراسات الإسلامية، تبدو في الوقت الحاضر أكثر إلحاحاً وأعظم من أي وقت آخر في السابق، بعد مضي أكثر من ثلاثة عقود ونيفاً على تجربة تطبيق الإسلام في إيران، ومحاولة تطبيق الإسلام في السودان منذ سنوات، وتعاظم دور الحالة الإسلامية في الكثير من أقاليم العالم الإسلامي، وضراوة المواجهة الفكرية، وتفاقم آثار الصراع الحضاري بين الإسلام وخصومه التاريخيين.

تجديد الفكر الإسلامي:

تطفو على السطح في الإنتاج الفكري للإسلاميين مجموعة ظواهر

تحكي انفصال هذا الإنتاج عن مواكبة آلام وآمال المجتمعات الإسلامية وحاجاتها المعرفية والثقافية، وقصور أدواته في تقصي المشكلات الفكرية والتعرف على سبل الخروج منها، وتبعثر طاقاته في مشاغل هامشية، وغفلته عن المتطلبات الآنية العاجلة لهذه المجتمعات.

وتساهم جملة عوامل في إنتاج ظاهرة قصور الإنتاج الفكري الإسلامي وعجزه، يعود بعضها لجذور تاريخية توارثها الباحث المسلم من عصور الانحطاط، فيما يعود بعضها الأخر إلى نسيان إبداعات المفكرين المسلمين في هذا العصر. فبدلاً من ان يعمل الإسلاميون على قراءة واستيعاب منجزات الفكر الإسلامي في المئة سنة الأخيرة، ويتمثلونها في وعيهم، ثم يستأنفون النظر فيها، ويعملون على تقويمها ومحاكمتها ليتواصلوا معها، أهمل الإسلاميون ذلك فجهلوا ما بين أيديهم من بضاعة مثلما جهل أسلافهم في فترة الانحطاط قدر مفكريهم.

ويمثل فكر الإمام الشهيد محمد باقر الصدر نموذجاً بارزاً لفقيه مفكر ظل إبداعه مهملاً بين قطاع واسع من الإسلاميين، فلم يُقرأ القراءة العلمية المطلوبة، فضلاً عن إننا لم نجد من يتواصل مع مشروعه المعرفي في مختلف حقوله إلا في جزر مغلقة وبخطوات وئيدة. على الرغم مما تكتنزه آثار الشهيد الصدر من ثراء معرفي بالغ، لا نراه مجتمعاً لدى مفكر مسلم ممن أتى من بعده، لان آثاره دشنت لبنات تأسيسية للفكر الإسلامي الراهن في كل موضوع أطلت عليه، وظلت تترقب من يراكم لبنات جديدة على تلك الأسس.

ولهذا يصح أن يعد الشهيد الصدر واحداً من أبرز مجددي الفكر الإسلامي في القرن الأخير.

معالم فكرة مدرسة الصدر:

السيد الشهيد الصدر عاش مظلوماً ومات مظلوماً ولما يزل مظلوماً، بعد مضي أكثر من ثلاثة عقود ونيفاً على استشهاده، ففي حياته لم تكتشفه قطاعات واسعة من الأمة الإسلامية، وبالذات النخبة المثقفة والمتعلمة منها، إلاّ في جزر مغلقة ذات وجود محدود في الجامعات والحوزات العلمية تمثلت بمجموعات من الطليعة المؤمنة في الجامعات وبعض علماء الدين المستنيرين في الحوزة العلمية في النجف الأشراف، ولذلك حرمت الأمة من استثمار مواهبه وقدراته الإبداعية بتمامها.

أما بعد استشهاده فصحيح ان شهادته كانت عاصفة عنيفة تناهت أصداؤها إلى مناطق شتى في العالم، غير ان ذلك لم يوجه الأنظار نحو فكره وإبداعه المتعدد الأبعاد، وإنما تنبه الناس إلى الدوافع السياسية والأيديولوجية التي أدت إلى تصفيته من قبل جلاد بغداد، وهكذا ظل إبداعه مهملاً لولا مبادرات فردية للتعريف بمدرسته وقراءة الأبعاد التأسيسية في فكره، كان أبرزها الدراسة التي كتبها تلميذه السيد كاظم الحائري في مقدمة كتابه «مباحث الأصول[1]»، والكتاب الذي ألفته نخبة من الباحثين ونشرته دار الإسلام في لندن [2]، والعدد الخاص من مجلة قضايا إسلامية[3].

---

(١) الحائري، السيد كاظم، مباحث الأصول، تقريرات لأبحاث سماحة آية الله العظمى الشهيد السيد محمد باقر الصدر، قم، ١٤٠٧هـ ص ١١ ـ ١٧٣.

(٢) نخبة من الباحثين، محمد باقر الصدر.. دراسات في حياته وفكره، لندن، دار الإسلام، ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦م، ٧٧٦ ص.

(٣) قضايا إسلامية. العدد الثالث (١٤١٧هـ ١٩٩٦م)، ٦٣٨ص (محور العدد: فكر الإمام الشهيد الصدر: قراءات في الأبعاد التأسيسية).

وأخيراً الكتاب الذي ألفه تلميذه الشيخ محمد رضا النعماني[1].

وماعدا ذلك لا نعثر على قِراءات جادة لآثاره، ومراجعة وتقويم لأفكاره، واستجلاء خصائص مدرسته والتواصل مع مشروعاته التي لم تكتمل.

ومن المؤسف أن تختصر مدرسته الفكرية باحتفالات جماهيرية تبجيلية معظمها خطابات ارتجالية دعائية لأصحابها ومقالات صحفية أنية، ربما تساهم في حجب الأبعاد الحقيقية لمدرسته.

ولعل بعضهم يسقط في الوهم، فيحسب إن المفكر العالمي هو الأكثر شهرة، وليس الملتصق بهموم و ألآم البشرية، ولا يدري ان الشهرة طالما اقترنت بالطواغيت والفراعنة وبعض السياسيين الذين تسببوا في عذابات وشقاء الإنسان، أو اقترنت بنجوم السينما والرياضيين مثلاً، ينما ظل غير واحد من المبدعين الأحرار الذين عاشوا من أجل سعادة البشرية مجهولاً.

ويمكن القول إن الإمام الشهيد محمد باقر الصدر هو واحد من هؤلاء الكبار المجهولين، فانه مع ما له من فضل كبير في تأسيس مشاريع فكرية وسياسية هامة، ومع انه ثائر رباني لا يخشى في الله لومة لائم، وهب حياته للدفاع عن العقيدة، والجهاد من أجل تجسيد أهدافها العظمى في تحرير المستضعفين، وأرخص دمه وأعار جمجمته لله، ونازل أشرس طاغية في هذا العصر حتى خر صريعا مُتوشحاً بدم الشهادة، إلاّ انه لم ينل من الشهرة والعالمية ما ناله الكثير من الأشخاص.

---

(١) النعماني: الشيخ محمد رضا، الشهيد الصدر.. سنوات المحنة وأيام الحصار، عرض لسيرته الذاتية ومسيرته السياسية والجهادية، قم، ١٤١٧هـ ٣٥٠ ص.

المصادر

١- القرآن الكريم.
٢- آل ياسين، جعفر: الفكر الفلسفي عند العرب، دار المناهل، ١٩٩٣.
٣- أغروس (+ رورت م): العلم في منظوره الجديد سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ١٣٤.
٣- الأفغاني، جمال الدين: الرد على الدهريين، ترجمة: محمد عبده، إسلام العالمية.
٤- إقبال، محمد: تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة: عباس محمود. لجنة التأليف والترجمة ٥- والنشر، القاهرة، ١٩٥٥.
٦- جدعان، فهمي: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩.
٧- جنابي، ميثم: علم الملل والنحل، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر.
٨- الحاج محمد، أبو القاسم: العالمية الإسلامية الثانية، دار المسيرة.
٩- الزمخشري: الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٠- الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني.
١١- صبحي، أحمد محمود: علم الكلام.
١٢- السيد الشهيد محمد باقر الصدر:
_ الأسس المنطقية للاستقراء، دار التعارف للمطبوعات، لبنان.

ـ الإسلام يقود الحياة، دار التعارف للمطبوعات، لبنان.
ـ أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف. دار التعارف للمطبوعات، لبنان.
ـ اقتصادنا، دار التعارف للمطبوعات، لبنان.
ـ فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، لبنان.
ـ الفتاوى الواضحة، دار التعارف، لبنان.
ـ المدرسة القرآنية، دار التعارف، لبنان.
ـ المدرسة الإسلامية. دار الكتاب الإيراني.
ـ اخترنا لك. دار الزهراء، بيروت.
ـ نشأة الشيعة والتشيع، تحقيق: عبد الجبار شرارة، مؤسسة الثقلين.
ـ بحث حول المهدي، دار التعارف.
١٣- السيد الشهيد محمد صادق الصدر: تاريخ الغيبة الكبرى، منشورات ذو الفقار، قم.
١٤- الطباطبائي، محمد حسين: تفسير الميزان، الأعلمي، ١٩٩٧.
١٥- الطباطبائي، محمد حسين: شيعة في الإسلام، دار التعارف.
١٦- الشيخ عبده، محمد: رسالة التوحيد، دار إحياء التراث، بيروت.
١٧- مطهري، مرتضى: ـ الفلسفة، دار التيار الجديد ـ الكلام والعرفان، الدار الإسلامية.
١٨- المظفر، محمد رضا: الفلسفة الإسلامية.
١٩- د. ملاط، شبلي: تجديد الفقه الإسلامي، محمد باقر الصدر بين النجف وشيعة العالم.
٢٠- الهاشمي، محمود: بحوث في علم الأصول، المجمع العالمي للشهيد الصدر.
٢١- الأعيان الشيعة –
٢٢- بغية الراغبين- الإمام شرف الدين – طبعة بيروت ١٩٨٣، الدار الإسلامية.

٢٣- تكملة الأمل للسيد حسن الصدر - ط بيروت ١٩٨٦ .
٢٤- لؤلؤة البحرين، للبحراني (يوسف) تحقيق محمد صادق بحر العلوم ط قم مؤسسة أهل البيت.
٢٥- الخاقاني، علي، شعراء، بغداد، بغداد، طبعة ١٩٢٦.
٢٦- النص والاجتهاد (تقديم) محمد صادق الصدر ، ط طهران مؤسسة البعثة، العتبات المقدسة (قسم الكاظمية) ١/ ٧٤ ط ٢ (١٩٨٧) ـ (الخليلي).
٢٧- الطهراني، أغا بزرك، نقباء البشر في القرن الرابع عشر، مشهد، دار المرتضى، ١٤٠٤هـ ص ٦٨٣.
٢٨- مجلة النجف، ١٥ جمادي الثانية ١٣٧٦هـ ـ ٢٠ كانون الأول.
٢٩- السيد كاظم الحائري، مباحث الأصول.
٣٠- مجلة صوت الأمة، (رجب ١٤٠١هـ).
٣١- النعماني، الشهيد الصدر سنوات المحنة وأيام الحصار.
٣٢- قضايا إسلامية، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).
٣٣- تجارب محمد جواد مغنية، إعداد: عبد الحسين مغنية، بيروت، دار الجواد، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، ص ٢٩٠.
٣٤- حسن، غالب، الشهيد الصدر رائد الثورة الإسلامية في العراق، طهران، وزارة الإرشاد الإسلامي، ١٤٠٢هـ ص ٣٣ ـ ٣٤.
٣٥- (٢) الأشكوري، السيد نوري، مقال حول أستاذه الشهيد الصدر، مجلة الجهاد، ع ١٣.
٣٦- آل حيدر، حيدر، ماذا جاء حول كتاب فلسفتنا للشهيد الصدر؟ قم، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٣ هـ ص ٤٧.
٣٧- المجتمع الإسلامي بين النظرية والتطبيق- البهي الخولي، اشتراكية الإسلام- الدكتور مصطفى السباعي.
٣٨- الإسلام بين الإنصاف والجحود - الدكتور حسن عبد الغني حسن، ديمقراطية القومية د. عبد الله العربي.

٣٩- مجلة الأضواء تاريخ حزيران ١٩٦٠م، النجف الأشرف ـ موضوع رسالتنا.

٤٠- دروس من القرآن الكريم، دراسة للسيد الشهيد - كتبها لمجلة الأضواء .

٤١- الرفاعي، عبد الجبار. النظام التعليمي في الحوزة العلمية: رؤية تقويمية لدواعي التجديد.

فهرس

الفصل الأول
نبذة عامة عن التاريخ الأسري

الفصل الثاني
التجديد الكلامي عند الشهيد الصدر

الفصل الثالث
معالم التجديد الكلامي

الفصل الرابع
المضامين الجديدة في ضوء المنهج الجديد

الفصل الخامس
عوامل النبوغ الفكري.

فصل السادس
المنهج في الاحتفالي
«دراسة في فكر الإمام الشهيد الصدر ﵅»

الفصل السابع
قراءات في حركة التجديد وفي الأسس المنطقية للاستقراء

الفصل الثامن
منهج التقريب